

الكتاب العربي

للكاتب الإنكليزي
تشارلز ديكنز

نسخها وصححها
محمد حمادي

نقلها إلى العربية
ناديا أسعد

دار القلم العربي بجلد

0193555



Bibliotheca Alexandrina

منتدى سور الأندلس

WWW.BOOKS4ALL.NET

تشارلز ديكنز

الأيام العصيبة

نقلت إلى العربية
مناديا أسعد

صَحَّحَهَا وَدَقَّقَهَا
محمَّد حمَّامي

منشورات دار القلم العربي
حلب - سورية

تشارلز ديكنز حياته وأعماله

مقدمة المؤلف

ولد تشارلز جون ديكنز في ٧ شباط ١٨١٢ في (بورتس ماوس)
في انكلترا ، كان الثاني ضمن ثمانية أطفال من أم تدعى أليزبيت
وأب يدعى جون ديكنز وهو محاسب فقير .

ومنذ أن كان عمره مابين سنتين وخمس سنوات عاش مع عائلته
في لندن حيث علمته والدته الانكليزية واللاتينية ، ومابين السادسة
والعاشرة من عمره عاشت عائلته في (تشام) حيث دخل تشارلز الى
مدرسة يديرها (وليم جيلز) وانتقلت العائلة سنة ١٨٢٣ الى لندن
حيث أمضى تشارلز معظم أوقاته في استكشاف الشوارع التي أصبحت
بعد ذلك مشاهد في رواياته .

عندما عجز جون ديكنز عن مواجهة ديونه المتصاعدة قررت
زوجته انقاذه بفتح مدرسة خاصة للأطفال المغار، ولكن محاولاتها
باءت بالاخفاق. فذهب تشارلز للعمل في الصباغة وذلك عندما بلغ
الثانية عشرة من عمره . وفي أوائل ١٨٢٤ سجن والده بسبب ديونه
في (مارشال سي) وانضمت اليه زوجته وأولاده الستة بينما بقي
تشارلز بغرفة في لندن يعيل نفسه بعمله اليومي الذي كان يمارسه
أمام نافذة بمراى من الناس ، وكان ذلك يشعره بالارتباك
والاشمئزاز مما ترك في نفسه أعمق الأثر وظهر واضحا في أعماله .
ان معظم شخصياته الهامة كانت من الأطفال ممن كانوا

فغولتهم تعسة .

وفي خلال عمله في مصنع الصباغة كان نومه مؤمنا، أما الأمور الأخرى فكان عليه أن يدبّر نفسه فيها بمبلغ ٦ شلنات في الأسبوع، وبما أنه لم يكن يملك المال الكافي للذهاب إلى أي مكان، وكان عمله قليلا فقد كان يمضي أوقات فراغه متجولا في لندن . وفي رواياته لم يصف ديكنز الأماكن الجميلة والمؤثرة فقط ولكنّه وصف أيضا الأزقة الخلفية القذرة كوصفه لمنزل الرجل النذل الخائف في قصته (أوليفر تويست) .

أما السائد في رواياته فهو الجانب الأسود من حياة لندن، أي الشوارع القديمة المزدحمة المتسخة ولاسيما في روايته (البيت الكئيب) ولحسن حظه أطلق سراح والده بعد ستة أشهر من توفية ديونه اثر ارث ورشه، وتشاجر ديكنز وصاحب مصنع الصباغة وطرد من العمل

عاد يكنز إلى المدرسة سعيدا في أكاديمية (ولينغتون) . وقد وصفه أحد رفاقه بقوله : انه شاب أنيق مليء بالحياة والمرح .

في خلال هذا الوقت بدأ بكتابة القصص وبقرائنها على رفاقه ، وكان مولعا بالمرح، ورافقه ولعه هذا طوال حياته . وكان يقدم بعض العروض الخاصة لأهله وأصدقائه . وكان طموحه أن يصبح ممثلا محترفا . وكان يمكنه تحقيق هدفه هذا عندما كان في العشرين من عمره لو لم يصب بانفلونزا حادة منعتة من الذهاب لمقابلة مدير المسرح في (كوفنت غاردن) ، في ذلك الوقت بدأ ينجح فسي

الصحافة فتخلّى عن فكرة التمثيل .

بعد مغادرته المدرسة تحوّل طموحه الى أن يصبح صحفياً،
وبتصميم وإرادة بدأ يوهل نفسه لذلك بتعلّم الاختزال مساءً في
المتحف البريطاني. ونتيجة لذلك حصل على وظيفة كاتب اختزال في
محكمة رجال القانون. وهنا عاود ديكنز الاستعانة بتجاربه فسي
كتابة الروايات، ففي (قصة مدينتين) و(التوقعات الكبيرة) استخدم
قاعات المحكمة .

عندما أصبح في الثانية والعشرين من عمره فكر في أن عمله
صحفياً متنقلاً سيكون أكثر متعة، فحصل على وظيفة في صحيفة
(تاريخ الصباح) مقابل خمسة جنيهات أسبوعياً، وانتقل عبر المدن
من (ادنبرغ الى اكستر) وتمتع بكل لحظة لأنه خلال طفولته كان
يعاني من الجوع والبرد، أما الآن فإنه يستطيع أن يصل في الليل
الى فندق مريح ويطلب وجبة دسمة، واستراحة أمام المدفأة. ولكن
حياة الصحفي في تلك الأيام لم تكن كلها لهوا ولعباً فديكنز
كان يعمل بضمير حي، وكان عمله يأتي في المقام الأول .

كانت عادة ديكنز أن يرسم شخصياته بألوان من الخيالة،
فكثير من المشاهد المثيرة الموجودة في رواياته مستمد من
تجاربه من حيث هو صحفي، فإذا قرأت وصفه لمشهد دمار السفينة
في روايته (ديفيد كوبر فيلد) فسوف تلاحظ قدرته الصحفية، هذه
الحقيقة لم تكن لتخفى عن رؤسائه، فكانوا يرسلونه بمهام هامة.
وكانت تقاريره الصحفية كرواياته فيها وضوح ومتعة وفكاهة،

وتختلف كلياً عن التقارير الصحفية الرتيبة التي كانت موجودة في
صحف تلك الأيام .

نشرت روايته الأولى عام ١٨٣٣ في المجلة الشهرية وهي (عشاء
خلال شجر الحور)، ونشر مقتطفات أخرى في المجلة نفسها وفي مجلتي
(تاريخ الصباح) و(تاريخ المساء) . وجمعت هذه المقتطفات سنة ١٨٣٦
ونشرت تحت اسم (مقتطفات بوز) .

وبين عامي ١٨٣٦ و١٨٣٧ وبإشراف دار (شابمان وهول) للنشر
كتب ديكنز قصة (أوراق بكويك) وهي قصة هزلية نالت شهرة واسعة .
كان ديكنز يكتب دائماً عن تجربة ببلدته ومعرفة عميقة
بها، وكان مراقباً دقيقاً وشاملاً، فإذا لم تتوافر له معلومات
وافية حول قصته لم يكن يدخر جهداً للحصول على أوراق التفاصيل،
فقبل كتابة قصته (نيقولا سنيكلباي) التي نشرت سنة ١٨٣٨ تثبت
من حقائق القصة بسفره إلى (يوركشاير) حيث زار عدداً من المدارس
الداخلية بحجة أنه يبحث عن مدرسة لابن صديقه، وخلال زيارته لهذه
المدارس وجد أن مديراً إحدى المدارس الداخلية سجن بسبب قسوته وترك
ذلك أثراً في وصفه لهذه القصة .

تزوج في نيسان سنة ١ٸ٣٦ من (كاثرين هوغرت)، وكان والدها
ناقداً موسيقياً ورئيس تحرير مجلة (تاريخ المساء)، وفي عام ١٨٣٧
من تلك الحقبة كتب ديكنز روايته (أوليفر تويست) إضافة إلى
كتب أخرى عدة .

وما بين سنتي ١٨٤٤ و١٨٤٦ عاش ديكنز وعائلته التي أصبحت

مؤلفة خمسة أفراد متنقلا بين ايطالية وفرنسة وكتب في هذه المرحلة (صور من ايطالية) وقصة (دنبي وولده) وهاجم فيها عبادة المال .

ومنذ عودته الى انكلترة سنة ١٨٤٧ نظم فرقة مسرحية وكان مديرا لها وممثلا رئيسا فيها، وانضم اليها سنة ١٨٥١ (كولنر) وهو مؤلف روايات أصبح صديق ديكنز الحميم وشريكه . أماروايته (ديفيد كوبر فيلد) فقد عكست سيرة حياته الشخصية وتدرجه من عدم الى الشهرة . وتمثل هذه الرواية تقدما فنيا للكاتب .

أقام ديكنز عددا من الأمسيات الأدبية لمساعدة الطبقة العاملة لاكتساب المزيد من الثقافة، وكان يشترط أن يكون ثمن الدخول قليلا حتى يتمكن العمال من الحضور والتمتع بالأمسيات .

زار ديكنز مدينتي (ستراتفورد ، مكان ولادة شكسبير، وليتشفيلد مكان ولادة د. حونسون)، ومرة كان هناك مع بعض الأصدقاء حيث أمضوا مدة طويلة نفد خلالها مالهم، فرهنوا ساعاتهم الذهبية لدى أحد الصاغة، واذ انزعج رفاقه من ذلك راج هو يضحك لذلك طويلا . فقد كان ذلك يوم ثر فيه أيام فقره، أما الآن مع الثروة والشهرة فالأمر مجرد دعاية .

وعندما كان صبيا في (تشام) كان يحلم بشراء منزل (غادشل) قرب (روشستر) وقد استطاع أن يحقق حلمه من أحلام طفولته مرة أخرى فاشتراه سنة ١٨٥٦ وعاش فيه منذ ١٨٦٠ حتى مماته .

وكان هذا المكان مزدحماً دائماً بالناس والمرح والضحك، واشترى بعد ذلك مرجاً كبيراً خلف المنزل وجعل منه ملاعب رياضية ونظم مباريات رياضية عدة، ووزع جوائز كثيرة. ولم يكن يدخر جهداً في سبيل عمل جيد ونبيل. ولكن هذا المنزل كان شؤماً عليه، فقد انفصل عن زوجته ١٨٥٨ وتولت ابنة أخته شؤماً ون منزله حتى وفاته. ألقى ديكنز الكثير من المحاضرات العامة ما بين سنتي ١٨٥٩ و ١٨٦٨ في لندن وأمريكة واسكوتلندة، وزاد ذلك من دخله كثيراً. آخر رواية مكتملة له كانت (صديقنا المشترك) ١٨٦٤ - ١٨٦٥ وهي قصة نقدية اجتماعية، أتبعها بقصتين قصيرتين (عطلّة رومانية) و(شرح جورج سيلفرمان) سنة ١٨٦٨ . عاد إلى منزله سنة ١٨٧٠ حيث بدأ العمل بقصة مشوقة، وبعد انتهاء الفصل السادس منها سقط في غرفة الطعام في منزله وتوفي صباح اليوم التالي وهو في الثامنة والخمسين من العمر ودفن في (ويست منستر أبي) ولم يراع طلبه أن يدفن في قبر بسيط قرب منزله . ولم تمض سنوات على وفاته حتى توطدت العلاقة بين شخصياته الروائية وبين القراء. فقد أعطانا ديكنز عالماً دافئاً غنياً وواقعيّاً. عالماً مليئاً بالجميل والسيئ ولكنّه دائماً مليء بالأمل في المستقبل . لقد كان رجلاً من عامة الشعب وتحدث عن عامة الشعب وأعطاهم عالماً غنياً بالخيال

الأيام العصبية

الفصل الأول الشيء الضروري الوحيد

انّ ما أريده الآن هو الحقائق، لا تعلموا الفتيان سوى الحقائق .
فالحقائق فقط هي المطلوبة في الحياة . لا تزرع شيئا سواها واقنع
أي شيء آخر . تستطيع أن تكيّف الحيوانات العاقلة بالحقائق فقط .
لا شيء آخر سوف يفيدهم . هذه هي القاعدة التي أنشأت عليها أطفالي
وهو لاء الأطفال ثبتوا على الحقائق ياسيدي ...

المشهد غرفة في مدرسة عبر سرداب رتيب عار ومستو، والمتكلم
الذي هو صاحب المدرسة يؤكد بسبابته ملاحظاته بوضع خط تحت كل
جملة هامة، هذا التأكيد يظهره فم المتكلم الذي كان مريضاً ومنظماً
تنظيماً معباً، وصوته الذي كان جافاً وجامداً وديكتاتورياً، وشعره
الذي كان منفوشاً على رأسه الأصلع كزرع من الأشجار لمنع الريسح
عن سطحه المشع، مما أوحى بكتلة عقد كغلاف فطيرة الخوخ، وكان رأسه
مستودعاً للحقائق المعبة المخزنة بداخله .

فشكل المتكلم العنيد، وساقاه المربعتان، وكتفاه المربعتان ،
وربطة عنقه الملتفة التفافاً عنيداً غير مريح، كل ذلك يساعده
على تأكيد ملاحظاته .

في هذه الحياة لا نريد شيئاً سوى الحقائق ياسيدي والحقائق
وحدها فقط .

تراجع المتكلم ومعلم المدرسة والشخص الآخر الموجود قليلاً
وأصبحوا جاهزين للحصول على الحقائق من هؤلاء الأطفال الموجودين
في المدرسة ممن عبثوا بالحقائق أقصى العبث .

الفصل الثاني قتل الأبرياء

(توماس غرارد غرند) ياسيدي هو رجل الحقائق. رجل الحقيقة
والحسابات . الرجل الذي يؤكد المبدأ. القائل: اثنان زائد اثنين
يساوي أربعة ولا شيء أكثر، وهو لا يسمح بأي تجاوز قطعياً (توماس
غرارد غرند) أنه قطعياً توماس، توماس غرارد غرند ذو مسطرة
وكفتي ميزان وآلة حاسبة هي دائماً في جيبه ياسيدي، وهو مستعد
أن يزن ويقيس أي جزء من الطبيعة الانسانية ويخبرك برقة ماذا
ينتج منها، وهذا التصرف ما هو إلا مجرد قضية حسابية بسيطة
بالنسبة اليه .

ربما تتمنى أن توصل بعض المعتقدات غير المنطقية الى رأس
جورج غرارد غرند، أغسطس غرارد غرند أو جون غرارد غرند أو جوزيف
(كلها افتراضات لأشخاص غير موجودين) أما الى رأس توماس غرارد
غرند فكلما ياسيدي .

والسيد توماس دائماً يقدم نفسه بذلكاء سواء ضمن دائسرة
معارفه الخاصة أو الى العموم بشكل عام، ومن دون شك فهو يريد أن
يجعل الموجودين ممثلين ومشبعين بالحقائق كلياً .

فـالغرفة التي يوجدون فيها وشكل توماس ونظـرته للموجوديين
بـبريق متحمس أمور جعلته يبدو أشبه بـبارود مشحون بالحـقائق في
فـوهة مدفع ستنفجر لتنظفهم من رواسب مرحلة الطفولة، وبـدا وكأنه
جهاز كهربائي مشحون بـقدرة ميكانيكية ناسفة لأحلام الشبـان
وتخيلاتهم .

أشار السيد غراد غرند بأصبعه وقال :

الفتاة رقم ٢٠، أنا لا أعرف تلك الفتاة من هي؟ أحابت رقم ٢٠

وهي خجلة تقف بانحناء :

(سيبي جوب) ياسيدي

سيبي . ليس باسم، قال السيد غراد غرند، لا تسمي نفسك سيبي،

سقي نفسك سيسيليا .

أجابت الفتاة بصوت مرتجف وبحيرة :

والدي أسماني سيبي .

اذن ليس من شأنه أن يفعل ذلك، أجابها غراد غرند بقولي له

يجب ألا يفعل ذلك. سيسيليا جوب، دعيني أر من والدك؟ قالت :

انه يعمل في السيرك .

عـبس السيد غراد غرند وأشار بيده إشارة اعتراضية :

لانريد أن نعرف أي شيء عن ذلك هنا . يجب ألا نخبرينا بشأن

ذلك الموضوع هنا، والدك يروى الخيل أليس كذلك؟

عندما يحضرون أي حواد من أجل الترويض يفعلون ذلك فـسي

الحلبة ياسيدي .

أجابها :

يجب ألا تخبرينا عن الحلبة هنا . حسنا اذن صفي لنا والسدك
مادام مروضا للخيل . أعتقد أنه يداوي الخيول المريضة أليس كذلك؟
بلى ياسيدي .

حسنا اذن هو طبيب بيطري ومروض خيول ومهترج ، عرّفي لسي
الحصان . شعرت سيسي بقلق كبير ازاء هذا الطلب .
قال السيد غراد غرند :

الفتاة رقم ٢٠ لاتستطيع أن تعرف الحصان .
الفتاة رقم ٢٠ لاتملك أية حقائق حول واحد من أكثر
الحيوانات المألوفة . أريد تعريف الحصان من أحد الفتيان ، مما
تعريفك يا (بيتزر) .

وبذلك انتقلت سبابته من هنا الى هناك واستقرت فجأة على
بيتزر ، ربما لأنه كان مصادفة يجلس قبالة أشعة الشمس التي كانت
تندفع عبر احدى النوافذ العارية للغرفة المطلية . كانت سيسي تقف
على زاوية من الجانب المشمس وكان بيتزر يقف على الطرف الآخر ،
وبما أنّ الفتاة كانت ذات عينيّن غامقتين وشعر غامق فقد بدت
وكأنها قد حصلت على لون أكثر تألقا عندما سطعت أشعة الشمس
عليها .

أما بيتزر فكان لون عينيّه فاتحا وشعره فاتحا ، مما جعل
أشعة الشمس تبدو وكأنها تنطلق منه ، أما عيناها الباردتان فقد
كان يصعب أن تكونا عينيّن ، ولكن رمشيّه بمقارنتهما السريعة مع
شيء أشحب منهما يعتبران عن شكلهما من حيث هما رمشان .

شعره القصير هو امتداد للنمش المتناثر على جبينه ووجهه

وبشرته الشاحبة اللون حتى لتظنّ عدم وجود الدم تحتها .

قال السيد غراد غرند:

ما تعريفك عن الحصان يابيتزر؟

له أربع أرجل، يأكل العشب، له أربعون سنا هي أربعة وعشرون
طاحنا، أربع أسنان في الفك العلوي وأثنا عشر قاطعا. حوافسه
قاسية ولكنها محورية. عمره يعرف بوساطة علامات في فمه .

قال السيد غراد غرند:

الآن يا فتاة رقم ٢٠ هل تعرفين لي ما الحصان ؟

انحنت ثانية واحمرت خجلا أكثر من ذي قبل، أما بيتزر وبعد
أن نظر خلسة وسريعا الى توماس غراد غرند بعينيه فقد وضع يده
على جبينه وجلس ثانية .

تقدّم الآن الرجل الثالث، وهو رجل جاف وجارح لمشاعرا الآخرين .
كان موظف حكومة وملاكما محترفا يتدرّب دوما، وهو مستعد دوما
لقتال كل انكلترة والدخول في أي موضوع مستعملا يميناه، ثم يتبع
يسراه بها، يتوقف، ويعبس، ويزعج معارضييه ويجرّهم الى الحبسال
وينقض عليهم انقضا متقنا .

حسنا، قال هذا الرجل وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ضاما يديه .
كان ذلك تعريف الحصان .

الآن دعوني أسألكم أيها الفتيان والفتيات، هل تستطيعون
توريق غرفة بحضور جياد؟

بعد مدة من المصمت صاح النصف الأول من الأطفال صيحة جماعية:

نعم ياسيدي. بينما أجاب النصف الآخر بعد أن رأى تعابير على وجه الرجل توحى بأن الجواب خطأ:

كلا ياسيدي. وكالعادة في هذه الامتحانات ، قال الرجل :

بالطبع لا ولكن لماذا لا تستطيعون؟

مدة صمت أخرى ثم غامر أحد الفتيان البدينين وهو يتنفس

محدثا صوتا كالأزيز :

لأنه لن يورق الغرفة أبدا بل سوف يدهنها .

قال توماس غراد فرند :

يجب أن تورق الغرفة سواء أحببت ذلك أم لم تحب .

لاتقل لنا انك لن تورقها . ماذا تعني يا ولد؟

قال السيد :

سوف أشرح لكم اذن لماذا لا تورقون الغرفة بحضور الجيساد؟

هل رأيتم في حياتكم جيادا تمشي ذهابا وايابا في الغرف حقيقة؟

هل رأيتم؟ النصف منكم أجاب : نعم ياسيدي، والنصف الآخر أجاب : لا .

طبعا لا، قال السيد وهو ينظر غاضبا الى النصف الخاطئ ، لماذا

اذن لاترون في أي مكان ماترونه في الواقع؟ ماندعوه الذوق هو

في الواقع اسم آخر للحقيقة .

أوما توماس رأسه استحسانا .

قال السيد :

هذه قاعدة جديدة ، اكتشاف ، اكتشاف عظيم ، الآن سوف أجربكم

ثانية . افترضوا أنكم تريدون فرش غرفة ، هل تستخدمون سجادة

مرسوما عليها أزهار؟

كان هناك اقتناع عام هذه المرة بأنّ الجواب هو لا ياسيدي ،
وهذا هو الجواب الصحيح بالنسبة الى السيد، وكان مجموع من قال : لا
كثيرا جدا . أصوات قليلة فقط أجابت نعم، وكان صوت سيبي جوب
من بينها .

قال السيد وهو يبتسم ابتسامة الهادئ القوي بالمعرفة :
- الفتاة رقم ٢٠ . احمرت سيبي خجلا ووقفت . اذن سوف
تفرشين غرفتك أو غرفة زوجك اذا كنت شابة وعندك زوج، بسجادة
مرسوم عليها أزهار . أليس كذلك؟ لماذا؟

أجابت الفتاة :

- أنا معجبة جدا بالأزهار ياسيدي .

أجابها السيد :

ولهذا تضعين المناضد والكراسي على الأزهار وتسمحين للناس
أن يدوسوا عليها بأحذيتهم الثقيلة .

أجابت سيبي :

- ذلك يوءذي الأزهار ياسيدي، فهي لن تتحطم أو تذبل لأنها
صور عن أشياء جميلة وممتعة، وأنا أتخيّل ...
صاح الرجل وهو مزده بالوصول الى هدفه :

- هيه هيه ... ولكن يجب ألا تتخيلي. هذه هي الحقيقة يجب
ألا تتخيلي أبدا .

أعاد توماس غراد غرند القول :

- يجب ألا تفعلي أمرا كهذا ياسيليا جوب .

قال السيد :

— الحقيقة — الحقيقة — الحقيقة .

وكرر توماس كذلك :

— الحقيقة — الحقيقة — الحقيقة . فقط من دون تخيل ، فالخيال

يجب أن يكون معدوما ، ويجب التركيز على الواقع .

قال السيد :

يجب أن تكونوا منظمين في كل شيء ومنضبطين بالحقيقة .

نتمنى أن يكون عندنا وقبل وقت طويل لجنة مؤلفة من هيئة

للحقائق يجبرون الناس على أن يكونوا أناس حقائق ولا شيء سوى

الحقائق .

عليكم الغاء كلمة التخيل نهائيا لأنكم لاتستطيعون أن

تفعلوا بها أي شيء . يجب ألا يكون أي موضوع مهما يكن مزيئا أو

مزخرفا مناقضا للحقيقة . فأنتم في الحقيقة لاتمشون فوق الأزهار

ولا يسمع لكم بأن تمشوا فوق الأزهار الموجودة على السجاد . لذا

يجب دائما أن تستعملوا أشكالا حسابية مليئة بالبراهيس—

والاثباتات .

هذا هو الاكتشاف الجديد، هذا هو الذوق، هذه هي الحقيقة .

انحنت الفتاة وجلست وبدأ عليها الخوف من مفهوم الحقيقة .

قال السيد :

الآن أود أن يسمح الأستاذ (المدرس) بأن يعطي درسه الأول

الآن، وسوف أكون مسرورا يا أستاذ غراد غرند في أن أرد على

طلبك بمراقبة تصريحه وأسلوب تدريسه .

بدأ الأستاذ بأفضل أسلوب يملكه . والأستاذ—

(Mr. M^oChoakum child) تعرض لاختبارات كثيرة وأجاب
من الكثير من الأسئلة المرتبطة بالعلوم المختلفة كعلم الفلسفة
والجغرافية وضبط التهجية وعلم النحو وعلم العروض وعلم الأحياء
وعلم وصف الكون والجبر والموسيقى الصوتية ... وتخرج بأعلى
الدرجات ، وهو على المام تام بالأمور كافة كتاريخ الشعوب وأسماء
الأنهار والجبال وعادات البلاد الأخرى وأخلاقيها ، ولكنني أرى أنه
لو كان قد تعلم أقل من ذلك لكان حتماً سيعلم أفضل لو بدأ
بإعطاء درسه وهو يتطلع إلى هذه العقول الصغيرة الجالسة أمامه
واحداً تلو الآخر حتى يرى ماتحويه .

ولكن ألا تعتقد أيها الأستاذ أنك إذا تحشو هذه السروس
بالحقائق سوف تقضي على الخيال الموجود في الداخل أو تعمل على
إتلافه .

الفصل الثالث الملتقى

مشى السيد غراذ غرند من المدرسة إلى منزله وهو في حالة من
الزهو والرضى الكلي ، فالمدرسة مدرسته كان يهدف إلى جعلها نموذجية .
وكان يهدف إلى جعل كل طفل فيها ، مثالياً كما كان أولاده الخمسة
مثاليين (بحسب اعتقاده) . كان عنده كما ذكرنا خمسة أطفال كل
منهم كان مثالا بحد ذاته ، وقد علمهم كل شيء منذ نعومة أظفارهم
عندما أصبح باستطاعتهم السير بمفردهم كان أول ما فعلوه هو
الركض إلى غرفة الدرس ، وأول موضوع كان لهم علم به هو لوح أسود

ضخم مرسوم عليه غول شاحب اللون. هذا لا يعني أنهم كانوا يعرفون بالاسم أو بالطبيعة أي شيء عن الغول، ولكنني استخدمت هذه الكلمة لأعبر عن وجود غول في هذا المنزل المليء بالدروس التي تزيد حدة الجو القاتم والصارم الذي يخيم على المنزل وعلى الأسلوب الجسدي الملتمزم الذي يتبعه صاحب المنزل في تربية أطفاله حتى لقد وصل إلى حد مزعج، فقد قيدت الطفولة ولم تنطلق انطلاقها الطبيعي. لم يتعلم أحد من أطفاله الأغنية المشهورة التي يعرفها كل الأطفال (تألقي، تألقي، أيتها النجمة الصغيرة، كم يعجبني ما أنت عليه) وذلك لأنهم عندما بلغوا الخامسة من العمر كانوا على المسام بالتحليل والتشريح وبكل شيء عن النجوم، مثلهم مثل البروفسور (أون) وهو المعروف بعلم التشريح، وكانوا يقودون الجرافة مثل أي سائق آلة متنقلة .

لم يسمح غراد غرنند لأي واحد من أطفاله بالذهاب إلى الحقل ليشاهد عن كثب البقرة بقرونها المجعدة التي تقذف الكلب الذي يخيف القطعة التي تقتل الفأرة التي تأكل الشعير، وكذلك فإنهم لا علم لهم بالبقرة الأكثر شهرة من السابقة التي ابتلعت يد توم. إنهم لم يعرفوا هذه الأشياء لكن كل ما عرفوه عن البقرة أنها تأكل العشب وتجتر الطعام ولها أكثر من معدة .

اذن فأطفاله كانوا بعيدين عن البراءة وكانوا يتصرفون بطريقة توحى بأنهم في عمر أكبر من عمرهم وذلك نتيجة تربية والدهم إياهم، البعيدة عن الخيال والمركزة على الحقائق .

(ستون لودج) كان يوجه كل تصرف ويديره بدقة مدروسة، وكان قد تقاعد عن عمله في التجارة قبل بناء منزله هذا وبدأ يتطلع الى فرصة مناسبة للدخول الى البرلمان .

كان (ستون لودج) يقع على أرض منبسطة على بعد ميسل أو ميلين من البلدة، وكانت تسمى بلدة (كوك)، وكان يمثل منزله هذا مرآة لأبنية البلدة، وكان منزله ضخماً ذا مدخل مغطى يحجب الضوء عن النوافذ الرئيسية، كما كانت حواجب سيد المنزل الكثيفة تظلل عينيّه . ست نوافذ كانت على جانب أحد الأبواب وست على الجانب الآخر.

اثنى عشرة نافذة في هذا الجناح وفي الجناح الآخر اثنى عشرة أخرى. يحيط بالمنزل مرج أخضر وحديقة، وطريق محفورة بين صفين من الأشجار فضلاً عن ذلك مما وصفه صاحب المنزل شمة مصرف لتصريف المياه، ومكان لتهوية الغاز، وأعمدة ثابتة في الأرض، وآلة ضد الحريق، ومشد من الحديد، وكلها من أجود الأنواع .

وإضافة الى مصاعد نقل الخدم وكل أدواتهم . فقد كان شمة في هذا المكان كل ما يشتهي القلب . كل شيء؟ حسناً أعتقد ذلك. فقد كان عند صغار غراد غرند كل شيء حتى غرف خاصة بكل علم وحده . كان عندهم غرفة صغيرة لعلم الأصداف، وأخرى لعلم المعادن وأخرى لاستخراج المعادن ...

فماذا بحق الله يريد هؤلاء الصغار أكثر من ذلك ؟ ترى الام يطمحون أكثر ؟

لاشيء سوى العلم - الحقيقة . أما الخيال والمرح فمعدومان تماما .
تابع السيد غراد غرند مشواره والسرور باد عليه وذهنه
متفتح . كان والدا عاطفيا ، ولكن لو أراد أن يصف نفسه لقال :
" انه أب حقيقي ورفيع الشأن " ، وكان لعبارة رفيع الشأن وضع
خاص عنده . فقد كان على ثقة بأن أي اجتماع عام في البلدة مهما
يكن موضوعه سيلمح فيه واحد من أهل البلدة . صديقه الرفيع الشأن
غراد غرند . وهذا مايسره دائما ، وهو يعلم أن ذلك هو ما يستحقه ،
وكان يقبل هذا الاستحقاق .

كان السيد غراد غرند قد وصل الى أرض محايدة خارج البلدة ،
عندما سمعت أذناه أصواتا موسيقية ، وكانت هذه الأصوات تتصاعد
من السيرك حيث تتجمع الخيول المستريخة في سرائق خشبي ، وعلى صوت
الضربات القوية أخذت الخيول تنهق كالحمير بصوت واحد وقد علتق
علم على العمود كتب عليه (سيرك سليري) وكان سليري رجلا بدينا
يحمل دائما علبة لجمع النقود . وأما ابنته جوزفين فكانت
طويلة ونحيلة تساعد في أعمال السيرك . (أما سيفيور جوب) وهو
والد سيسي فقد كان يقوم بالعباب بهلوانية صعبة تجعل الحاضرين
يطلقون الصيحات الحماسية .

لم يعر توماس غراد غرند هذه السخافات أي اهتمام بالطبع ،
ولكنه مشى مشية رجل موزون ، وكان يحاول أن يزيل هذه الأصوات
المزعجة من سمعه أما بالفائها وأما بتحويل مصدرها الى مكان
للاصلاح . فقد كان السيد غرند يعد هذه الألعاب اضاءة للوقت . وفي

طريق العودة الى منزله مرّ من خلف دكان متنقل فوجد مجموعة من
الأطفال محتشدين يحاولون التسلل عبر الطاقات للتفرّج على السيرك.
توقف وقال :

فلأفكر بهؤلاء الأشرار الذين يأخذون المغار من مدرسة
نموجية الى أماكن كهذه .

كان هناك مسافة من الأعشاب الفتية والنفايات تفصل بينه
وبين هؤلاء المغار، لذا خلع نظاراته وأخذ ينظر لعله يستطيع
التعرّف على هؤلاء الأطفال ويأمرهم بالابتعاد عن هذا المكان .

كان شمة حوادث لاتصدق فعلا على الرغم من أننا نراها رؤية
واضحة .

تري ماذا رأى السير غراد غرند سوى ابنته لويزا المولعة
بدراسة المعادن وهي تتسلل بكل قوتها عبر فتحة صغيرة، وابنته
توم الذي يتمرغ على الأرض .

لقد أصيب بالذهول والدهشة ووصل الى المكان الذي يقف عليه
الأولاد شأن كل ولد مخطيء وقال :

لويزا، توم .

وقف كلاهما خجلا ومرتبكا، ولكن ابنته نظرت الى الوالد بشجاعة
أكثر من توم . بالطبع لم ينظر توم الى والده ولكنه ترك نفسه
ينقاد كالألة الى البيت . ثم قال السيد غراد غرند وهو يقودهما
متعجبا ومدهوشا :

ماذا تفعلان هنا؟ أجابت لويزا:

نريد أن نرى ماذا يبدو في السيرك .

ماذا يبدو ؟

نعم يا أبي .

بدا الطفلان يسيطر عليهما جو من الكآبة ظهر على الفتاة أكثر مما ظهر على الطفل توم، إضافة الى عدم الرضى، وكان يشع من وجهيهما ضوء لا يستقر على شيء، وشمّة مخيلة متقدة بالحياة تأتلق بتعابير مختلفة، ولكن ذلك الألق ليس الفرح المتفائل، بل المشاعر غيـر المستقرة الغاضبة المملوءة بالألم، والمشابهة المتغيرات على وجه أعمى يستدل على طريقه .

هي طفلة الآن بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من عمرها، ولكن بين ليلة وضحاها سوف تصبح امرأة، هذا ما فكر فيه والدها وهو ينظر اليها . كانت جميلة، ولها ارادة مستقلة .

أما أنت ياتوم، فعلى الرغم من أنني أرى الحقيقة أمامي لكنني أجد صعوبة في أن أصدق أنك بثقاقتك وذكاكك تحضر شقيقتك الى مشهد كهذا . أجابت لويزا سريعا :

أنا أحضرتة يا والدي، أنا طلبت اليه القدوم . أجاب الأب : أنا متأسف لسماع ذلك، ألا يجعل هذا موقف توم أفضل ويجعل موقفك أسوأ يا لويزا ؟

نظرت لويزا الى والدها مرة ثانية ولكنها لم تسقط أية

دمعة .

أنت ياتوم وأنت يا لويزا المفتوحة أمامكما دائرة العلوم،

أنتما اللذان يمكن أن يقال: انكما مملوءان بالحقائق، أنتمما المتدربان على الدقة الحسابية، أنتمما... - صاح الوالد غراد غرند- بهذا الوضع المخزي... أنا مدهوش.

أجابت لويزا:

لقد تعبت . تعبت منذ مدة طويلة .

أجابها والدها متعجبا:

ممّ تعبت ؟

قالت :

أنا لا أعرف ممّ؟ من كل شيء كما أعتقد. قال والدها: لا تتفوهي بكلمة أخرى

أنت طفلة، لن أسمع شيئا إضافيا. ولم يتكلم ثانية إلا بعد أن مشى صامتا نصف ميل، عندئذ هب قائلا :

ماذا سيقول أعز أصدقائك يا لويزا؟ ألا تحسبن لهم حسابا؟ ألا تقيمين لهم وزنا...؟ ماذا سيقول السيد (باوندر باي)؟ وحين ذكر اسمه ضحك وفكر في شخصيته القوية والباحثة. لم يعلق بأي شيء. وقبل أن ينظر إلى ابنته كانت قد حولت نظرها عنه. عاود القول: ماذا سيقول السيد (باوندر باي)؟. كمر ذلك خلال الطريق أكثر من مرة وهو يقود الطفلين المذنبين بسخط شديد إلى المنزل .

الفصل الرابع السيد باوندر باي

ترى من السيد باوندر باي؟ انه الصديق الأقرب إلى السيد غراد

غرند، وكان رجلا مجردا من العواطف تربطه علاقة روحية بالسيّد
غراد غرند الذي كان مثله مجردا. أيضا من العواطف، وبقدر ما كان
قريبا منه كان بعيدا عنه. كان رجلا غنيا، صاحب مصرف، تاجرا،
صاحب مصنع، ما الذي كان ينقصه؟

انه رجل ضخم صوته جهوري، وضحكته كانت ثابتة وفولاذيعة.
كان خشنا، ذا رأس منتفخ وعروق منتفخة في جبينه، وكانت بشرته
مشدودة الى وجهه، ومن كثرة الشد كانت عيناه جاحظتين دائما
وحواجبه مرتفعة. وكان مظهره العام منفوخا كالبالون. وهو يتبجح
دائما بأنه رجل عصامي، وكان يعلن دائما عن جهله وفقـره
القديمين. كان يصغر صديقه غراد غرند بسنتين، وكان يبدو أكبر
من عمره الذي يتراوح ما بين ٤٧ سنة و٤٨، ويمكنك أن تضيف الى
عمره من ٧ الى ٨ سنوات دون أن يفاجأ أحد بذلك. أما شعره
فكان خفيفا حتى ليخيّل اليك أنه قد انتزعه ولكن ماتبقى كان
موزعا من دون انتظام. كان يقف على سجادة في غرفة الاستقبال
في (ستون لودج) وهو يدفع نفسه أمام المدفأة، ويحدث السيدة غرند
عن ظروف مولده. كان يقف أمام المدفأة لأن عصر ذلك اليوم كان
باردا، على الرغم من شروق الشمس لأن (ستون لودج) كانت دائما
مسكونة بشبح الرطوبة.

لم أكن أملك حذاء أو جوارب، ولم أكن أعرف شيئا عنها
حتى الاسم. كنت أمضي النهار في حفرة، والليل في مكان قذر. هكذا
أمضيت طفولتي في سن العاشرة. ولكن هذا لا يعني أنّ الحفرة كانت

جديدة بالنسبة اليّ. لأنني ولدت في حفرة . سألتها السيدة غرند وهي امرأة صغيرة نحيلة شاحبة ذات عينيّن شاقبتين ويبدو عليها الضعف عقليا وجسديا، وكانت تتناول الدواء دائما دون أن تتأثر به ،قائلة :

وهل كانت الحفرة جافة ؟

أجابها السيد باوندر باي:

بل كانت رطبة جدا رطوبة كافية لأن تسبّب الأنفلونزا، كان هذا هو استنتاج السيدة غرند .

أجابها السيد باوندر باي:

انفلونزا... لقد ولدت مصابا بالتهاب في الرئتين والتهاب في كل شيء آخر، فأنا طوال سنوات عدة مضت ياسيديتي كنت من أتعس البائسين المضارب، كنت مريضا جدا وأتألم دوما، كنت قذرا جدا حتى ليتعذّر عليك لمسي ولو بملقط .

نظرت السيدة غرند بضعف الى الملطّط وهذا دليل قاطع على غبائها .

قال السيد باي متابعا :

كيف قاومت ذلك لا أعرف، كنت عقدت العزم وأصبحت شخصية مصممة وصاحبة قرار في الحياة، وها أنذا الآن ياسيدة غرند، على كل حال، لا أحد يستحق الشكر على وجودي هنا سوى نفسي .

تمنت السيدة غرند برقة وضعف أن تكون أمه، قد... (ولم يدعها تكمل استفسارها) .

أمي هربت يياسيدتي . دهشت السيدة . غرند كعادتها .

قال السيد باي: تركتني والدتي لجدتي، واعتمادا على أفضل ماتبقى في ذاكرتي فقد كانت جدتي أحقر وأساء امرأة عجوز، فهي اذا حملت على أي فردتي حذاء كانت تأخذهما وتبيعهما من أجل الحصول على خمرة . فقد علمت أنّ جدتي كانت تستلقي على سريرها وتشرب نحو أربعة عشر قدحا من الخمر وذلك قبل الافطار . تبسمت السيدة . غرند بضعف ، ولم تبد أي شيء آخر من الحيوية ، وبدت كما تبدو دائما مثل خيال امرأة صغيرة معدومة الشفافية ومن دون أي ضياء .

تابع باي: كانت جدتي تملك دكانا لبيع الشموع، وكاننت تبقيني في علبة بيض . وهذا كان سرير طفولتي، علبة قديمة للبيض، ولكن عندما أصبحت كبيرا بالقدر الذي يسمح لي بالهرب هربت طبعها وأصبحت متشردا صغيرا، وعوضا عن أن أجوع وأتعذب على يد امرأة واحدة، عجوز أصبح أي امرئ من الناس جميعا يجيعني ويضربني مهما يكن عمره . أنّ الناس محقون . فلم يكن لهم من عمل سوى ذلك، وقد كنت مزعجا، بل كنت وباء، أنا أعرف ذلك تماما . كان عليّ أن أقاوم يياسيدة غرند . سواء أكان عليّ أن أفعل ذلك أم لا يياسيدتي فقد فعلت . لقد قاومت على الرغم من أنّ أحدا لم يرم لي حبلًا للنجاة . كنت خادما متشردا، وعاملا متشردا، وعتالا، ومحاسبا، وشريكا صغيرا ثم مديرا رئيسا، وأصبحت بعد ذلك السيد (جوزيه باوندر باي) المقيم في (كوك تاون)، هذا

هو ماسبق من حياتي ياسيدة. غرند، وهذا ماوصلت اليه الآن، فقد تعلمت من الحياة، قالثقافة التي اكتسبتها لايسطيع أي امرئ اكتسابها .

عندما وصل الى هذا القدر كان قد تحمس جدا، وتوقف عن الحديث في الوقت نفسه الذي دخل فيه صديقه الحميم وهو يرافسق المغيرين المذنبين الى الغرفة . عندما رآه السيد غرند توقف ونظر الى لويزا نظرة توبيخية تقول صراحة :

انظري الى باوندر باي .

قال السيد باوندر باي متبجحا :

حسنا، ماالموضوع؟ لماذا يبدو توم ساكتا هكذا؟ وكان باي يتكلم على توم وينظر الى لويزا . أجابت لويزا بتكبر : كنا نسترق النظر الى السيرك ووالدي قبض علينا .

قال زوجها بأسلوب متكبر :

ياسيدة غراند، كنت أتوقع أن أرى طفلي يقرأ ان الشعر فسي هذا الوقت .

همست السيدة غرند :

ياالهي! كيف استطعنا أيها الولدان عمل شيء كهذا، أنا متعجبة منكما، انكما تجعلان الانسان يندم. أن يكون عنده عائلة . لكم أود القول: اني أتمنى أن لا يكون عندي عائلة . والآن أود أن أعرف ماذا فعلتما؟

يبدو أنّ السيد غرند لم يكن مسرورا من هذه الملاحظات الشديدة، فقد كان يعبس ضجرا .

قالت السيدة غرند:

بما أنّ رأسي في وضعه الحالي متعب أفلا تستطيعان الذهاب والنظر في الأمور المؤمنة لكما بدلا من الذهاب الى السيرك، فأنتما تعلمان، كما أعلم أنا أيضا أنّ لا أحد يحضر معلمين من أجل دراسة السيرك وأنّ لا أحد يحضر دروسا تتحدث عن السيرك، إذن ماذا تريدان أن تعرفا عن السيرك؟ أنا متأكدة أنّ عندكما الكثير مما ترغبان في عمله، لا أستطيع تذكر أشياء كثيرة وأنا في وضعي الحالي عسى نصف الحقائق التي يجب أن تعرفاها وتواظبا عليها .

قالت لويزا متجهمّة :

هذا هو السبب ...

أجابتها السيدة غرند:

لاتقولي لي: أنّ هذا هو السبب، فذلك غير ممكن، اذهبي وافعلي أي شيء معقول حالا.

لم تكن شخصية السيدة. غرند علمية، وغالبا ما كانت تصرف ولديها الى دراستهما بهذا التنبيه العام. والحقيقة أنّ مخزون السيدة غرند من الحقائق كان ناقصا. ولكن السيدة غرند بتحميلها هذه المسوءولية كانت تنطلق من سبب أنها خالية من القدرة على التعامل عن طريق الخيال، ولم تكن تعرف الكثير عن الحياة التي تعيش فيها. فهي امرأة بسيطة وغير ذكية .

قال السيد غرند وهو يقرب كرسيه الى جانب المدفأة :

باوندر باي، أنت دائما تهتم بطفلي الصغيرين وخاصة لويزا،

ولذا لا أجد مانعا من اخبارك أنني مغتاط من فعلتهما هذه . وأنت تعلم أنني وقفت نفسي لتعليم الشقافة المنطقية لعائلتي .

فالمنطق - كما تعلم - هو القوة الوحيدة التي يجب أن توجَّسه اليها الثقافة ، وعلى الرغم من ذلك - يا باوندر باي - يبدو أن ما حدث اليوم يعد من الظروف السخيفة غير المتوقعة ، وبمَّان أحدا ما قد تسلل الى عقلي توم ولويزا فأثر فيهما من دون أن يتـرك فرصة لهما للتفكير تفكيراً منطقياً .

أجابه السيد باي :

يجب ألا ننظر باهتمام الى هذه المجموعة من المتشردين ، فأنا عندما كنت متشردا لم يهتم بي أحد .

وهنا تساءل الأب :

أنا أعرف ذلك ، ولكن كيف برز عندهما هذا الفضول تجاه الأشياء العامة ؟

أجابه باوندر باي :

أنا أقول لك كيف ، بالتخيّل الكسول .

أجابه السيد غرند :

لا أتمنى ذلك ، وعلى كل حال أنا أعترف أنّ الريبة قد ساورتني حول هذا الموضوع وأنا في طريق العودة الى المنزل .

التخيّل الكسول - يا غراد غرند - عاود باي قوله هذا . انه شيء سيء جدا لأي شخص ، وهو لعنة بالنسبة الى فتاة كلويـزا . أعتذر من السيدة غرند لاستخدامي هذه التعبيرات القوية ، ولكنهما تعرف جيدا أنني لست بالشخصية المهذبة ، ومن يتوقع مني التهذيب

فسوف يهاب بخيبة أمل، فأنا لم أتلق نشأة مهذبة .

قال السيد غرند وهو يضع يديه في جيوبه ويحدّق بعينيهِ—
الواسعتين في النار:

أي خادم أو معلم اقترح على الأولاد شيئاً كهذا؟ أو ربما
قرأت أو لويّزاً شيئاً عن هذا؟ وربما—على الرغم من كسـل
الاحتياطات المتبعة—تسربت قصة من هذا النوع إلى المنزل؟ ففسي
عقول دربت على القانون والنظام هكذا يبدو أنه أمر يدعو إلى
الغرابة وعدم التصديق .

صاح باوندر باي:

توقف قليلاً، وكان لا يزال واقفاً كل هذا الوقت في موقعه السابق
نفسه، ولكن عندك في المدرسة أحد هؤلاء الأطفال المتشردين .
قال السيد غرند وهو يحدّق بصديقه:

اسمها سيسيليا جوب .

وعاود السيد باي الصياح قائلاً:

والآن كيف وصلت هذه الفتاة إلى هناك؟

أجابه السيد غرند:

الحقيقة أنني رأيت الفتاة أول مرة الآن فقط، فهي لا تنتمي

رسمياً إلى بلدتنا، نعم أنت محق، يا باوندر باي، أنت محق .

عاود باوندر باي الصياح مرة أخرى:

توقف لحظة، هل رأيتها لويّزاً عندما أتت؟

أجابه غرند: طبعاً رأيتها، لكنني لا أشك في أنها رأته—

بحضور زوجتي .

قال السيد باي:

أرجوك ياسيدة غرند، ماذا حدث ؟

أجابت السيدة :

آه يا لصحتي الضعيفة، أرادت الفتاة أن تدخل الى المدرسة ،
وأراد السيد غرند أن ندخل الفتيات الى المدرسة، وتوم ولويزا قالا
معاً: انّ الفتاة تريد أن تأتي، وكيف كان يمكن معارضتهما.

قال باوندر باي:

الآن سوف أقول لك ماتفعله يا غرند، اطرده هذه الفتاة فوراً،
وتلك ستكون النهاية .

أجابه السيد غرند:

أنا من رأيك .

افعل ذلك فوراً، قال باي وتابع :

انّ ذلك كان شعاري دائماً منذ كنت طفلاً، فعندما فكرت في أن
أهرب من جدتي فعلت ذلك فوراً، افعل مثلي، افعل ذلك فوراً .

سأله السيد غرند:

هل أنت ذاهب ؟ لديّ عنوان والدها ولعلك لاتمانع أن تذهب
معي الى البلدة ؟

أجابه السيد باي:

بالطبع لا أمانع مادمت ستفعل ذلك حالا .

رمى السيد باي قبعته سريعا على رأسه، وكان يفعل ذلك
دائماً وكأنه يريد أن يوحي بأنه رجل مشغول ببناء نفسه ولا يجد
متسعاً من الوقت ليتعلم كيفية ارتداء قبعته . وخرج الى القاعة

وافها يديه في جيوبه .

بينما كان السيد غرند في الطابق العلوي يحضر العنوان فتح السيد باي غرفة دراسة الأولاد . كانت لويزا تنظر نظرة واهنة عبر النافذة دون النظر الى أي شيء ، بينما كان توم الصغير ينظر نظرة حاقدة قرب المدفأة . اضافة الى لويزا وتوم كان للسيد غراد غرند ثلاثة أطفال آخرين وهم آدم سميث ومالتوس والصغيرة جين التي كانت تنام والدموع تبلل خديها وهم يحضرون الدروس .

قرر السيدان غرند وباي طرد سيسي من المدرسة لأنها توقعها أنها توشر في نفسية لويزا وتوم .
قال السيد باي :

كل شيء على مايرام الآن يا لويزا ويا توم ، لن تفعل ذلك مرة أخرى ، سوف أسوي الأمر مع والدكما . حسنا يا لويزا ذلك يستحق قبلة أليس كذلك ؟

تستطيع أن تأخذ واحدة يا سيد باي ، أجابت لويزا وهي تمشي ببطء في الغرفة وقد رفعت خدها نحوه بامتعاض وأدارت وجهها .
أنت دائما محبوبتي أليس كذلك يا لويزا ؟ الى اللقاء ..

ذهب في سبيله ولكنها بقيت واقفة في المكان نفسه وهي تمسح خدها من قبلته بمنديلها بعنف حتى أصبح مشتتلا من الاحمرار ، وبقيت على هذه الحال خمس دقائق .

سألها أخوها ، ماذا تفعلين يا لو ؟ سوف تحفرين فجوة في خدك .
تستطيع يا توم أن تقطع مكان القبلة بسكينك اذا أحببت ولن أبكي أو أشعر بالألم .

الفصل الخامس بلدة كوك تاون

إن كوك تاون البلدة التي يسير اليها الآن السيدان غرند وباي كانت ، في الحقيقة ، بلدة الحقائق ولا يوجد فيها أي لمحة خيال ، مثلها في ذلك مثل السيدة غرند نفسها . كانت بلدة من القرميد الأحمر . بلدة الآلات والمدافع المرتفعة أي انها صناعية يتصاعد منها دوماً سحاب من الدخان الأسود غير المحدود . أما النهر الذي يجري فيها فلونه أرجواني قائم وذلك من الصباغ . ويمكننا أن نشاهد أكواماً فسيحة من المباني المليئة بالنوافذ حيث ثمة جلبية وضوء طوال النهار اضافة الى صوت مكبس البخار الذي يعمل عملاً متواصلاً ، هذه البلدة مليئة بالشوارع الصغيرة المتشابهة ويسكنها أشخاص متشابهون يدخلون ويخرجون في الساعات نفسها ويحدثون الأصوات ذاتها على الأرصفة نفسها من أجل العمل نفسه . حيث أن كل يوم هو مثل سابقه ومثل مابعدہ وكل سنة نسخة مما قبلها ومن السنة التي تليها .

هذه الصفات ملازمة لكوك تاون وكان يقابلها هناك حياة الرفاهية الموجودة في العالم . لا ترى شيئاً في كوك تاون سوى العمل القاسي . كتبت كل الأسماء العامة في البلدة كتابة متشابهة بالأبيض والأسود ، كما أن الأبنية فيها كلها متشابهة فأنت لاتستطيع أن تفرّق بين السجن وبناء مأوى العجزة إلا بعد قراءة اللافتة .

فالسجن يمكن أن يكون مأوى العجزة والعكس صحيح . الحقيقة .

الحقيقة . الحقيقة . موجودة ومخيمة في كل شيء في البلدة ، فالمدرسة كانت حقيقة ومدرسة الرسم والتصميم كانت حقيقة ، والعلاقات بين الناس كانت واقعية .

هل كانت هذه البلدة المليئة بالاثباتات والحقائق تسير سيرا طبيعيا؟ بالطبع لا . لأن كوك تاون كانت مليئة بالغموض المدهش فقد كان من الغريب جدا أن تسير عبر الشوارع صباح الأحد لأن أجراس الكنائس تدق، وكان الناس ينظرون الى ذلك وكأن هذا الأمر لايعنيهم وهم غير مباليين به ، فقد كانوا غير متدينين وقد شكلت لجنة من أهل البلدة لاجبار السكان على القيام بالشعائر الدينية بالقوة .

وتبرز جماعة لاتشرب الخمر وتتذمر من ادمانها، وتصرى أن المدمنين مستمرين في ذلك. وهناك جماعة من المدمنين يوضحون أنهم يشربون الأفيون في حال عدم وجود الخمر. وأخيرا يظهر كاهن السجن وهو يقول بسطحية: انّ هوءلاء الأشخاص سوف يلجأون الى مأوى وضع، هربا من عيون العامة لسماع غناء وضع، ومشاهدة رقص وضع . في هذه الأثناء كان السيدان غرند وباي يسيران بهذه البلدة وكانا معا لايتوانيان عن اعطاء انطباعات سطحية منبثقة من تجربتهما الشخصية والحقيقة انهما كانا سيئين. فمهما فعلت لهما فلن يكونا مسرورين منك أو شاكرين لك. فقد كانا سيدين متبرمين لايعرفان ما يريدان. وكانا يعيشان أفضل من كثير من البشر وعلى الرغم من ذلك كانا غير راضيين وأفضل مايمكن أن يقال فيهما تلك الحكمة التي قيلت على شكل قصة للأطفال .

كان هناك امرأة عجوز وكانت تعيش على الماء والزاد فقط .
وعلى الرغم من ذلك لم تكن تسكت قط وتتبرم دوما . قال السيد
غرند :

والد سيسيليا يعيش في مكان يدعى (بوداند) . وأنا لأعرف
بالضبط هذا المكان فأين هو يا باي ؟

وباي كذلك لم يكن يعرف المكان معرفة محددة لذا فقد توقف
لحظة وأخذا ينظران حولهما . في هذه الأثناء رأيا فتاة تركض من
زاوية الشارع بخطوات سريعة وهي تنظر خائفة . تعرف عليها السيد
غرند فقال مرحبا : توقفي الى أين أنت ذاهبة ؟

عندئذ توقفت الفتاة رقم ٢٠ وقلبها يخفق بشدة . وسألها
السيد غرند :

لماذا تهولين في الشارع بهذه الطريقة غير اللائقة ؟
كنت ملاحقة يا سيدي وأردت الهرب . أجابت الفتاة وهي تلهث .
ملاحقة . من يلاحقك ؟

جاء الجواب فجأة بقدم الصبي الأصفر اللون بيتزر وهو يركض
بسرعة قصوى ومن دون أن يستطيع الوقوف وجد نفسه يصطدم بالسيد
غرند ويلتصق بصدريته .

ماذا تفعل يا ولد ؟ وكيف تجرؤ على أن تصطدم باي بهذه
الطريقة ؟ التقط بيتزر قبعته واعتذر بقوله :

لقد كان حادثا .

هل كان هذا الولد يركض خلفك يا جوب ؟ سأله السيد غرند .

نعم ياسيدي . صرخ الولد :

كلا لم أكن أطاردها ياسيدي ليس قبل أن تهرب مني لأن
العاملين في السيرك لا يآبهون لما يقولونه ياسيدي. لأنهم معروفون
بعدم مبالاتهم بما يقولون وكما هو معروف في البلدة فهم
لا يجيدون جدول الضرب .

قالت الفتاة :

لقد أخافني كثيرا بوجهه القاسي.

صاح بيتزر :

ألست واحدة منهم أنا لم أنظر اليها قط ياسيدي، سألتها
فقط ان كانت ستعرف كيف تعرف الحصان غذا وقد عرضت عليها أن
أعلمها ذلك ولكنها ركضت فركضت وراءها حتى أعرفها الاجابة .
ولو لم تكوني تعملين في السيرك لما فكرت في مثل هذه
الأشياء المؤذية .

قال السيد باي :

يبدو أن أسلوبها قد عمم على الطلاب ففي خلال أسبوع يمكن أن
تجد كل أطفال المدرسة وهم يتلصصون في صف طويل .
أجاب السيد غرند :

في الحقيقة أنا أعتقد ذلك.

ثم وهو ينظر لبيتزر ويقول له :

اذهب حالا الى منزلك واذا سمعت مرة أخرى أنك تصرفت بهذه
الطريقة فسوف يكون حسابك عند أستاذ المدرسة . وأنت تعرف ما
أعني، أما أنت يا جوب فابقي هنا مدة .
نظر الولد الى البنت ثم استدار راجعا الى منزله .

والآن أيتها الفتاة خذينا الى والدك .

سألها السيد باي :

ماذا تحملين في الزجاجة التي بيدك؟ ويسكي؟ أوه كلا يــــا

سيدي انها نوع من الزيوت .

سألها السيد باي:

ماذا؟

نوع من الزيوت لأدلك والذي به .

ضحك السيد باي ضحكة عالية وقصيرة وقال:

بحق الشيطان لماذا تدلكين والدك بالزيوت ؟

أجابت الفتاة وهي تنظر من خلف كتفها للتأكد من أن بيتزر

قد ذهب ،

هذا ما يستعمله الناس عندنا ياسيدي عندما يصابون بأي أذى

في الحلبة . فهم في أحيان كثيرة يؤذون أنفسهم .

أجابها السيد باي:

اذن اخدمهم جيدا لأنهم كسولون، بينما نظرت اليه بدهشة

وخوف .

تابع السيد باي قوله :

عندما كنت أصغر منك بأربع سنوات وأخمس أصبت بجروح لم يكن

يشفيها أي نوع من الزيوت . فأننا لم أداو جراحي بأعمــــال

اصطناعية، ولكن كنت أضرب لم أكن أرقص على الحبال بل على الأرض

العارية وكنت أربط بالحبل .

على الرغم من قسوة السيد غرند فهو لم يكن يملك قسوة السيد

بهاي لشخصيته لم تكن غير لطيفة، وكان يمكنه أن يكون لطيفاً
جداً لو كان هناك بعض الأخطاء في العملية الحسابية لترتيب
حياته .

قال السيد غرند بلهجة تأكيد عندما وصلا إلى شارع ضيق :
هذا هو المكان المحدد الذي نقصده يا جوب . أليس كذلك ؟
بلى ياسيدي هذا هو المنزل .

وقفت بالقرب من منزل عامي وضع صغير مضاء بأنوار قاتمة
ويبدو عليه الوسخ .

أرجو انتظاري هنا لحظة حتى أحضر شمعة وإذا سمعت صوت
كلب ياسيدي فسيكون (ميري لك) وهو ينبح فقط .

قال السيد باي وكان آخر من دخل وهو يضحك ضحكته الفولاذية :
(كلب وزيوت) آه هذه بداية جيدة لرجل عصامي . (الكلب ميري
لك) كان لوالدها . وكان يصاحبه دوماً في كل خطوة يخطوها .

الفصل الثامن «سليري»

سليري هو صاحب السيرك الذي يعمل فيه والد (سيبي جوب) . أما
اسم المنزل العام الذي ينزل فيه العاملون في السيرك فهو (بينسا
سوس ارمز) وكان اسم الفندق مكتوباً بالحروف الرومانية .

تبع السيدان الفتاة إلى الطابق العلوي من دون أن يقابل أي
منهم أحداً . ووقفوا في الظلام بينما ذهبت الفتاة لأحضار شمعة
وكانوا يتوقعون نجاح الكلب في أية لحظة . وإلى أن ترجع الفتاة

وهي تحمل الشمعة لم يحدث ماتوقعوه .

قالت الفتاة بوجه فيه الكثير من الدهشة :

والدي ليس في غرفتنا ياسيدي، أرجو أن تدخلنا وسأجده فوراً .
دخل السيدان وبعد جلوسهما على كرسيين وضعتهما لهما ، انصرفت
بخطوات خفيفة وسريعة . كانت الغرفة وضیعة ووسخة وفيها سرير .

كان غطاء رأس والد سيسي الليلي المزین بريشتي طاووس على
مسمار في الجدار هو الشيء الوحيد الظاهر في هذه الغرفة .

سمعا أصوات الأبواب والغرف تفتح وتغلق فسيسي كانت تنتقل
من واحدة الى أخرى وهي تسأل عن والدها كما سمعا أصواتا تعتبر
عن الدهشة . ونزلت وهي تقفز بسرعة كبيرة وفتحت صندوقاً قديماً
وجدته فارغاً وأخذت تنظر حولها ويدها مكبلتان ووجهها مليء
بالخوف .

لابد أن أبي قد ذهب الى الدكان المتنقل ياسيدي، انني لا أدري
لماذا عليه الذهاب الى هناك، ولكن يجب أن يكون هناك وسوف
أحضره خلال دقيقة . وذهبت فوراً وشعرها الطويل الأسود مسترسل من
دون شريطة .

قال السيد غرند :

كيف ستعودين خلال دقيقة والمكان يبعد أكثر من ميل؟ وقبل
أن يرد عليه السيد باي دخل شاب وقدم نفسه لهما : باذنكما أيها
السيدان .

قال ذلك وهو يضع يديه بجيوبه . كان وجهه نحيفاً وشاحباً
ويغطي رأسه شعر كثيف أسود . كانت رجلاه قويتين جداً ولكنهما

أقصر مما ينبغي أن تكونا عليه . أما صدره وظهره فعريضان .
وكان يلبس معطفا جديدا وبنطالا مناسبا ويضع شالا حول رقبتـه
تخرج منه رائحة الزيت وكان يبدو نصف انسان ونصف حيوان (أي
مزيجا من الاسطبل والمسرح) كان هذا الشخص يدعى السيد (شيلدرز) .

قال شيلدرز وهويتحدث في الغرفة :

باذنكما أيها السيدان، أنتما كما أعتقد اللذان يودان رؤية

جوب ؟

نعم

قال السيد غرند :

ذهبت ابنته للبحث عنه ولكني لاأستطيع الانتظار،ولذا أرجو
أن تعطيه الرسالة التي سأتركها له معك. تدخل السيد باي وقال :
أنت ترى يا صديقي أننا من النوع الذي يعرف قيمة الوقت أما
أنتم فمن النوع الذي لايعرف قيمة له .

قال السيد شيلدرز بعد تأمله للمتحدث من رأسه حتى قدميه :
لم يحصل لي شرف المعرفة بك،ولكن اذا كنت تعني أنك
تستطيع الحصول على مال أكثر عند استغلالك لوقتك أكثر منـني
فعليّ أن أعترف ،استنادا الى مظهرك أنك محق .

وهنا قال (كيوبد)وهو(بمثابة الابن للسيد شيلدرز الذي يرافقه
دوما وقد كان شيلدرز وكيوبد من العاملين في السيرك ؛
عندما تحصل على المال فأعتقد أنه يمكنك المحافظة عليه .
أوقف ذلك يا (كيدر منستر)وهو اسم كيوبد الثاني .
فصرخ كيوبد قائلا :

لماذا يأتي الى هنا ويحدثنا بوقاحة اذن؟

قال ذلك وقد أصبح مزاجه عصيا نزقا .

رد عليه السيد شيلدرز بصوت مرتفع :

قلت لك أوقف ذلك .

ثم وجه كلامه الى السيد غرند قائلا :

انّ والد سيبي قد فقد مهارته .

تساءل السيد غرند ماذا فقد ؟

لم يستطع فعل ماطلب اليه وقد قصر في قفزه وكان سيثا في

ألعابه البهلوانية .

ضحك السيد باي الضحكة المعهودة وقال: زيوت . كلب . فقدان

مهارة . أعلام وألعاب بهلوانية . نموذج غريب من الرفاق لرجل قد

أبرز نفسه .

جاوبه كيوبد :

اذن تواضع قليلا من دون خجل، كان عندنا شاب صغير نوذّر أن

تقابله وذلك لو عرفنا أنكما قادمان الينا ومن المؤسف لـم

تعذرنا مسبقا مع انكما دقيقان جدافي مواعيدكما . أنتمـا

متناسكان أليس كذلك؟

رد عليه السيد غرند بقنوط :

ماذا يعني هذا الولد غير المهذب بكلمة متناسكان؟

رد عليه شيلدرز وهو يدفع ابنه خارج الغرفة بطريقة همجية :

لاتهتما بذلك، كنت ستعطيني رسالة لجوب .

نعم كنت اذن - تابع السيد شيلدرز سريعا لن يحمل عليها

أبدا . هل تعرفان الكثير عنه ؟

لم أر الرجل في حياتي .

أنا أشك في أنكما ستريانه ، بصراحة أقول لكما انه قد رحل .

هل تعني أنه قد هجر ابنته ؟

أوما السيد شيلدرز برأسه قائلًا :

انه قد فعلها . فقد يئس ولم يعد يحتمل .

سأل السيد غرند وهو يجبر نفسه على الكلام باشمئزاز :

لماذا أصبح هكذا ؟

أجابه شيلدرز :

انّ مفاصله أصبحت قاسية ولم تعد تساعد على العمل بالرغم من

أنّ كلامه البهلواني لا يزال كما هو . ولكنه لن يستطيع العيش بذلك .

لقد مر عليه كثيرا في الحقيقة ياسيدي ، أن تدرك ابنته حالته

هذه .

قال باي لصديقه غرند :

جيد ، هذا جيد أن يوجد رجل مفتون بابنته افتتانا يدفعه

الى أن يهرب بعيدا عنها ، سوف أقول لك أيها الشاب شيئا سيدهشك

سماعه ، فانا هربت أمي مني .

جاوبه شيلدرز :

انه لم يفاجأ قط بسماع ذلك .

قال باي :

حسنا لقد ولدت في حفرة وهربت أمي مني ، هل أعذرنا لذلك ؟

هل سأعذرنا مستقبلا ؟ لا طبعاً . ماذا سأقول عنها ؟ انها أسوأ

امراة في العالم هي وجدتي السكيرة . لأحس بفخر نحو عاشلتي . لا
أحس احساسا عاطفيا مزيّفا، فأنا واقعي أقول عن الرفش انه رفش
وأقول عن أم باي بدون خوف ما أقوله عن أم أي شخص آخر . اذن
بالنسبة الى هذا الرجل فهو متشرد ومحتال وهارب باللغة الانكليزية.
هذا هو تعريفه .

أجابه شيلدرز :

أنا لايهمني ما هو سواء . أكان ذلك بالانكليزية أم كــان
بالفرنسية فأنا أخبر صديقك الحقيقة فقط .

واذا لم تكن تحب سماعها فانك تستطيع أن تعرض نفسك
للهواء الطلق . فلقد تكلمت بما فيه الكفاية فأكمل كلامك في بيتك
على أقل تقدير .

تابع من ثمّ سخريته : لاتعد للتكلم اذا لم يطلب اليك ذلك .

ضحك السيد باي وهو يجيب :

ربما هذا هو الصحيح .

اذن

قال شيلدرز :

تكلم في بيتك لأنّ هذا البناء غير قوي . وكلامك الكثير سوف
يهدمه . وبعد أن حدق في السيد باي من رأسه الى قدميه ثانية
استدار نحو السيد غرند، وتابع قوله :

انّ جوب أرسل ابنته في مهمة منذ ساعة، ومن ثم غادرو قبعته
فوق رأسه وحزمته ملفوفة يحملها بيده . وهي لن تصدق أبسدا
تصرفه هذا، ولكنه هرب وتركها .

قال السيد غرنند:

ولكن لماذا لن تصدق أنه تصرف كذلك ؟

لأن هذين الاثنين كانا واحدا فهما لم يفترقا قط وقد كان حتى هذا الوقت شفوفا عليها .

قال شيلدرز ذلك وهو يتقدم خطوة أو اثنتين للنظر فسي الصندوق الفارغ . السيد شيلدرز والسيد كيوبد كلاهما يمشي بطريقة غريبة فخطواتهما أوسع من الخطوة العادية لأي رجل . ومن المفروض أنهما كانا يعانيان من تجفاف في الركب وهذه المشية كانت معروفة لدى كل الأعضاء في سيرك سليري وكانت تعتبر من أنهم موجودون على ظهر الحصان .

مسكينة سيبي كان عليه أن يهتم بها حتى هذه الساعة .

هذا ما قاله شيلدرز.

أما الآن فقد تركها من دون شيء تهتم به . فقد كان والدها - تابع شيلدرز ومتجاهلا وجود السيد باي - مصمما على تعليمها بكل ما يستطيع ولا أعرف كيف دخلت هذه الفكرة الى رأسه ، لا أستطيع القول، أن ما أستطيع قوله فقط هو أن الفكرة لم تعد تخرج من رأسه قط، فقد كان يعلمها القليل من القراءة هنا والقليل من الكتابة هناك . خلال السنوات السبع الماضية .

سحب السيد شيلدرز إحدى يديه من جيبه وأخذ يضرب على وجهه وذقنه وينظر بكثير من الشك والقليل من الأمل الى السيد غرنند . فقد كان منذ البداية يفكر في أن يصلح السيد غرنند من أجل

مصلحة الفتاة . وتابع يقول عندما دخلت سيسي الى المدرسة عندكم
كان والدها مسرورا جدا، ولم أستطع معرفة السبب بنفسى، لأننا لم
نكن مقيمين هنا بل كنا نذهب ونجىء في كل مكان، ومهما يكن
من أمر فأعتقد أنه كان خفيف العقل. واذا كنت قد حضرت الليلة
ياسيد غرند من أجل اخباره بأنك تريد مساعدة ابنته فأعتقد
أن الوقت مناسب جدا .

أجابه السيد غرند:

بل على العكس، جئت الى هنا اليوم لاعلامه أن وجودها فسى
المدرسة أمر غير مرغوب فيه، ولكن اذا كان والدها قد هجرها فعلا
ومن دون أي سبب يا باي فدعني أحدثك بكلمة على انفراد،
بتهذيب انسحب السيد شيلدرز الى الباحة الخارجية وسمع بعض
العبارات تخرج من باي مثل (كلا) .

(أنا قلت كلا) (أنا أنصحك بالأ تفعل ذلك) .

وسمع السيد غرند يقول بصوته المنخفض :

(ولكن لندعها نموذجا من أجل لويزا حتى نرى الام سينتهى
الامر) . (فكرني ذلك يا باي من وجهة النظر هذه) .

في هذا الوقت دخل العاملون في السيرك وهم يتكلمون بصوت
منخفض الى الغرفة يرافقهم شيلدرز وكان بينهم امرأتان أو ثلاث،
شابات وأنىقات مع أزواجهن اضافة الى أمهات وأطفال مغسار
يتراوح عددهم مابين الثمانية والتسعة والجميع كانوا يقومون
بأعمالهم في السيرك .

وكان يوجد نوع من الطفولة والوداعة لدى هؤلاء الناس فقد

كانوا مستعدين تماما ودوما لمساعدة بعضهم بعضا . ظهر أخيرا السيد سليري وهو رجل بدين ذو عين سليمة وأخرى عاطلة ، وصوته اذا استطعنا تسميته صوتا مثل الخوار ، رأسه مترهل ومشوش ويببدو وكأنه غير صاح ، وغير سكير .

قال السيد سليري الذي كان يلدغ بحرف السين ولا يفسر كلامه ، وموجهها كلامه الى السيد غرند :

لا شك في أنك سمعت عن المهرج الذي هرب ؟ فجاوبه :

نعم . هل في نيّتك تقديم أي شيء لابنته ؟ أجابه غرند :

سوف أعرض عليها موضوعا عندما تعود .

قال السيد سليري :

أنا مسرور لسماع ذلك ، ولكن هذا لا يعني أنني أريد التخلص من الطفلة ولكنني لأريد الوقوف في طريقها . وبينما كان غرند والسيد سليري يتحدثان قالت جوزفين ابنة سليري وهي فتاة جميلة ذات ثمانية عشر ربيعا وكانت أمنيّتها أن تدفن قرب حصانين صغيرين عندما تموت قد ربيت مع الأحصنة مذ كانت في الثانية من عمرها :

أبي وملت سيسي

وكانت سيسي قد دخلت وهي تركض الى الغرفة ، وعندما رأت الجميع مجتمعين ورأت نظراتهم ووالدها غير موجود بدأت تبكي بصوت مرتفع ورمت نفسها على صدر سيدة كانت تعمل في السيرك فانحنّت هذه عليها وأخذت تبكي معها .

قال السيد سليري :

لعمري أنّ هذا الشيء محزن ومؤسف .

كانت سيدي تنتحب وتقول :

يا والدي الحبيب والحنون الى أين ذهبت ؟ لقد ذهبت من أجل
مصلحتي أنا أعرف ذلك وكم ستكون تعسا من دوني .
وكان سماع ذلك محزنا جدا ولاسيما وأن وجهها كان يتطلع
الى أعلى ويدها ممدودتان كأنهما تحاولان وقف خياله المفادر .
وكانت ترسل القبيلات لهذا الخيال غير المرئي ولم يتفوّه أحد بكلمة
حتى تولى الأمر السيد باي الذي فقد بصره .

قال أنّ هذا الآن أيها الناس الطيبون اضاءة للوقت . دعسوا
الفتاة تفهم الحقيقة وإذا أحببتهم فسأقول لها ماجري بنفسي .
الآن ما اسمك؟ لقد ولى أبوك هاربا وهجرك وعليك ألا تتوقعي
روميته ثانية ماحييت .

هوؤلاء الناس (العاملون في السيرك) لم يكن لهم اهتمام بالحقيقة
المجردة فبدلا من أن يتأثروا بمنطق المتكلم شعروا بغضب شديد ،
فالرجال تمتموا صائحين: يا للعار .

أما النساء فقد قلن هاتفات : وحشية .

أما سليزي فقد عقب سريعا بالملاحظة الآتية وهو يوجهها الى
السيد باي وهو منفرد به :

انّ جماعتي طيبون جدا ولكنهم سريعون في حركتهم فنصيحتي
لك أن تختصر الموضوع وتتوقف عند هذا الحد، وإذا لم تعمس
بنصيحتي فسوف يؤذونك .

وبعد أن حوّر السيد باي بهذا الاقتراح وجد السيد غرنسـد

مدخلا للتحدث في هذا الموضوع قائلًا:

سواءً توقعت عودة هذا الشخص في أي وقت أو عدم عودته فهو الآن قد رحل، ولا يوجد توقع حالي لعودته، وأعتقد أنّ ذلك يوافق عليه الجميع.. وأنا الذي أتيت لعلامه بأنّ هذه الفتاة المسكينة غير مرغوب فيها في المدرسة. وذلك بسبب وجود بعض الاعتراضات التي لا مجال لذكرها الآن. انني في هذه اللحظة مستعد لرعايتك وتشقيفك يا جوب. أما الشرط الوحيد (فوق تصرفك وسلوكك الجيد) الذي أضعه فهو أن تقرري الآن وحالا اما مرافقتي واما البقاء هنا. واذا مرافقتني الآن فمن المفهوم أن لا تتملي بأحد من أصدقائك الموجودين الآن. انّ هذه الايضاحات كافية للمساءلة.

وهنا قال السيد سليمي:

وأنا يجب أن أقول كلمتي: اذا أحببت ياسيسي أن تبقي معنا فأنت تعرفين طبيعة عملنا وتعرفين رفقتنا، فالسيّدة التي أنت في حضنها الآن ستكون بمنزلة الأم بالنسبة اليك وجوزفين كأختك. أنا لا أظهار بأنني ملاك.

ردّ السيد غرنند. انّ الملاحظة الوحيدة التي سأوجهها لك ياسيسي هي أنه من المرفوب فيه جدا أن تنالني ثقافة واسعة ومناسبة فوالدك نفسه (بحسب ما فهمت) يتمنى أن تكوني كذلك. كان للكلمات الأخيرة التي تفوه غرنند بها تأثير خفي فيها، فتوقفت عن البكاء، ونظرت الى السيد غرنند بكل قوتها حتى لقد لاحظ كل الحاضرين قوة تغيّر وجهها وتنفسوا عميقا وقالوا:

سوف تذهب.... حذرنا السيد غرنند بقوله:

كوني متيقنة مما تقررين يا حوب ولن أخيف شيئا آخر .

قالت الفتاة والدموع تتفرق محددًا في عينيها :

عندما يعود والذي كيف سيحدثني إذا ذهبت ؟ أجابها السيد

غرند بهدوء قائلا :

في هذه الحالة سوف يجد والد السيد ... سليري هو اسمي وأنا
لا أخل منه فهو معروف في كل انكلترا والطريق مفتوحة أمامه
دوماً تابع السيد غرند .

سوف يجد السيد سليري الذي سيعلمه أنك ذهبت . وأنا لأملك
السلطة على ابقائك برغم ارادته ولن يجد أية صعوبة في أي وقت
من الوصول الى السيد توماس غرند فأنا معروف جيداً .

صادق السيد سليري على قول السيد غرند بأنه معروف تماماً .
وبعد لحظة صمت قصيرة تابعت الفتاة قولها :

أعطوني ثيابي ودعوني أذهب قبل أن ينفطر قلبي أسى .

بدأت النسوة بجمع الثياب سريعاً ووضعت في سلة طالما راافقتهن
في سفرهن .

كانت سيسي تجلس طوال الوقت على الأرض وهي تبكي وتغطسي
عينيهما ، بينما وقف السيد غرند وصديقه السيد باي قرب الباب
مستعدين لأخذها . وقف السيد سليري في منتصف الغرفة وحوله النساء
وكأنه واقف في منتصف الباحة وابنته جوزفين تقدم استعراضهما
الذي لا يحتاج إلا الى سوط واحد .

رتبت السلة بصمت وأحضرت النساء لها شريطة شعرها ومشطن هذا

الشعر المبعثر ثم انحنين عليها يقبلننا ويحضننا بعطف شمس
أحضرن الأطفال لوداعها فقد كنّ مجموعة من النسوة ذوات القلوب
البسيطة والطيبة .

قال السيد غرند:

الآن يا جوب اذا صمت فتعالي .

ولكن كان عليها أن تقول : وداعا لمجموعة الرجال الموجودين
وكان كل واحد من الجميع يؤد اعطاءها قبلة الوداع ماعدا السيد
كيوبد الذي كان من طبيعته كره الناس ، فقد اختفى وانسحب بحزن
وكان آخر من ودعها السيد سليري الذي أخذها بين يديه ، ووقفت
أمامه تبكي .

قال سليري : الى اللقاء يا عزيزتي وأتمنى لك السعادة وأعدك
بأن يزمجك أحد من رفاقك .

ثم قبلها وهو يهز رأسه وسلمها للسيد غرند . وهتف الجميع
الى اللقاء ياسيسي ، الى اللقاء بحماية الرب يا عزيزتي .

وكانت الأصوات متنوعة تخرج من كل أنحاء الغرفة . ولكن السيد
سليري لاحظ أنّ زجاجة الزيوت كانت لا تزال معها فقال :

اتركي الزجاجة هنا يا عزيزتي فهي كبيرة ولن تفيدك في شيء
الآن أعطنيها لي .

كلا ! كلا .

كان ردها وهي تبكي دعني أحتفظ بها الى وقت عودة والدي
فهو سيحتاج اليها عند عودته . فهو لم يكن يفكر في الذهاب عندما
أرسلني لحضارها فيجب أن أحتفظ بها ، هذا ما أرجوه .

حسنا يا سيدي الى اللقاء وكلمتي الأخيرة لك هي : ابقى على
وعدك ولا تتذكرينا، أما عندما تكبرين وتتزوجين وتمرين أمام
السيرك فتذكرينا ولا تنسينا .

وسأعطيك فلسفتي في هذه الحياة . افعلي دائما الأفضل، فسي
هذه الحياة وليس الأسوأ .

الفصل السابع السيدة سبارست

بما أنّ السيد باي كان عزبا فقد كان هناك سيدة . مسنة تقوم
على خدمته لقاء راتب سنوي . كانت تدعى السيدة سبارست وكانت
هذه السيدة من عائلة محترمة وكان لها عمّة غنية تدعى السيدة
سكاد جرس . وكان زوجها المتوفى قريبا لعمتها الغنية التي كانت
عجوزا مصابة بنهم غريب لأكل اللحوم وكان لها قدمان غريبتان
لم يفادرا الفراش منذ أربعة عشر عاما وقد دبزت زواجهما في
سن مبكرة من دون أن يكون لهما وعي كاف . ولقد ورث السيد
سبارست من عمه ثروة محترمة ولكنه دفعها ديناً قبل أن يتمكن
بها، وعندما توفي لم يترك لأرملته التي هجرها بعد قليل من شهر
العسل امكانية العيش في ظروف ميسورة . أما زوجته التي كانت
تكبره بخمس عشرة سنة فقد وقعت في نزاع مع قريبتها السيدة .
سكاد جرس ولكي تستطيع اغاظتها وتعيل نفسها بدأت تعمل وهاهي
ذي الآن بحاجبتها السوداوين الكثيفين وأنفها المميز تقدم الشاي
للسيد باي وهو يتناول افطاره . لو كان السيد باي عزبا وكانت

السيدة. سبارست أميرة أثيرة عنده، لم يكن يعاملها بتفخيـم
كمعاملته لها الآن، فكان من دواعي سروره. أن يحقر أصله ويعظم
أصله السيدة سبارست ولم يكن يدع فرصة تفوته إلا ويمجـد
شخصيتها، ويبرز كيف كانت طريقها مفروشة بالورد ثم يقول : كيف
انقلبت الأمور بعد كل ذلك؟ وكيف هي الآن تقوم على خدمة السيد
هاوندر باي .

قالت السيدة. سبارست للسيد باي :

ليس من عادتك أن تكون بطيئا في تناول الافطار ياسيدي ؟

أجابها : أنا أفكر ياسيدي في نزوة غرند .

وكان باي يتكلم مراوغة وهو يقول نزوة توم غرند ياسيدي

باحضاره هذه الفتاة المنهارة . (توم هنا تعبير اسم توماس) .

قالت السيدة سبارست : الفتاة تنتظر الآن لمعرفة احتمال

ذهابها مباشرة الى المدرسة أو الى بيت السيد غرند. أجابها باي :

عليها أن تنتظر ياسيدي حتى أعرف نفسي، فأنا أعتقد. أن السيد

غرند سيحضر الآن وإذا كان يريد أن يبقيا هنا مدة يوم أو يومين

فهل باستطاعتها ذلك ياسيدي .

طبعاً تستطيع إذا أردت ذلك ياسيد باي . فرد باي :

لقد قلت لتوم البارحة يمكنك ابقاؤها هنا حتى تقرر هل

يمكنها أن يكون هناك أي احتكاك بينها وبين لويـزا .

هذا تصرف حكيم منك ياسيد باي .

قال باي :

من الصعوبة أن أفهم كيف يمكن الهرة الصغيرة الحصول على أي

فائدة من رفقة كهذه .

هل تتكلم يا سيد باي على الأنسة غرند ؟

نعم ياسيديتي أتكلم على لويزا .

ولكن ملاحظتك المحددة بالهرة الصغيرة لم توضح أي من الفتاتين

المقصودة . أعاد السيد باي قوله :

لويزا . لويزا . لويزا .

قالت السيدة سبارست وهي ترشف قليلا من الشاي :

أنت بمنزلة الأب الثاني للويزا .

أجابها السيد باي:

لو قلت انني أب آخر لتوم الصغير لكنت قد اقتربت من

الهدف أكثر وسوف آخذ توم الصغير الى العمل عندي في المصـرف

وسوف يكون تحت اشرافي ياسيديتي .

ولكنه ياسيدي مازال صغيرا على ذلك أليس كذلك ؟

وكانت بتفخيمها للسيد باي بقولها ياسيدي تهـدف الى وضع

نفسها بالحسبان وليس تشريفه هو .

لن آخذه قبل أن ينهي تعليمه، وسوف يحصل على الكثير من

العلم خلال حياته .

عندما كنت في سنه لم أكن أفقه شيئا، وكنت أجد صعوبة في

التكلم في موضوعات مختلفة مثال ذلك، كنت أتكلم معك صباح هذا

اليوم عن المتشردين، وأنت ماذا تعرفين عن المتشردين فأنت ذات

مستوى عال فقد كنت تخرجين من الأوبرا الايطالية ياسيديتي وأنت

ترتدين المجوهرات والساتان الأبيض وكنت مشرقة بينما لم يكن

يمكنني الحصول على مشعل لانارته لك .

أجابته السيدة سبارست بهدوء موزون :

كنت بالطبع ياسيدي أحضر الأوبرا الايطالية في مرحلة سابقة
من هذا العمر .

أجابها باي: كنت ياسيدي أفترش الأرض فراشا قاسيا، أو كد
لك ذلك. فأناس مثلك معتادون منذ طفولتهم على التمدد على ريش
ناعم ليس لديهم فكرة عن مدى معوبة النوم على حجر. لاجدوى من
حديثي معك عن المتشردين بل يجب أن أتكلم على السادة والسيدات
والشرفاء والراقصين الأجانب .
ردت السيدة سبارست بأدب :

ليس من الضرورة أن تفعل شيئا من هذا فقد تعلمت أن أقلم
نفسي من تغيرات الحياة .

حسنا ياسيدي. ربما سوف يسر بعض الناس لسماع قصة عذابني
ولكن عليك أن تعترفي أنك قد ولدت في حضن الرفاهية . هيا يا
سيدي أنت تعلمين أنك ولدت في حضن الرفاهية أنا لأنكر ذلك
ياسيدي .

اضطر السيد باي الى الوقوف والتطلع نحوها وتابع حديثه بقوله؛
وكنت في مجتمع ذي مستوى عال .
هذا صحيح ياسيدي .

قالت ذلك وهي تتظاهر بالخضوع .

وأخذ السيد باي يضحك عندما أعلن عن وصول السيد غرنسـد
والآنسة ابنته واستقبلهما بمصافحة السيد وتقبيل الآنسة .سأله

السيد غرند هل يمكنني طلب جوب الى هنا يا باي؟

بالطبع .

ولمّا حضرت انحنت للسيد باي والسيد غرند وللويزا ولسـوء حظها غفلت عن الانحناء للسيدة سبارست فعلق السيد باي على ذلك بقوله: الآن يافتاتي سوف أذكر لك اسم هذه السيدة : السيدة سبارست وهي مدبرة المنزل وهي سيدة محترمة وذات مستوى راق . واذا دخلت مرة ثانية الى غرفة في هذا المنزل فلن تبقي مدة طويلة فيه اذا لم تتصرفي تجاه هذه السيدة بكل احترام، فأنا لا أكثرث أي اكتراث مهما قلّ مقداره بكيفية تعاملك واياي لأنني لاشيء فلقد أتيت من زبدة الأرض وأما تجاه هذه السيدة فأنا أهتم كثيرا بأن تعاملنيها باحترام والا فلاتأتي أبدا . قال السيد غرند وهو يحاول التوفيق :

أعتقد يا باي انها سهوة .

رد باي :

ياسيدة سبارست صديقي غرند يرى أنها مجرد سهوة، ولكنني لا أسمح ولو بمجرد سهوة تجاهك . أجابت السيدة سبارست وهي تهز رأسها: أنت جيد جدا ياسيدي فالأمر غير جدير بالتحدث عنه . وقفت سيبي خلال كل هذا الوقت والدموع تملأ عينيها تتطلع باهتمام الى السيد باي .

بينما وقفت لويزا ببرود تتطلع الى الأرض .

قال السيد غرند:

ياجوب لقد قررت أخذك الى منزلي وعندما لا تكونين في المدرسة
تعاونين السيدة غرند المتوعدة صحيا ولقد شرحت للويزا النهاية
التعيسة والطبيعية لظروفك،وعليك أن تفهمي تماما أنّ الموضوع قد
انتهى ومن الآن سببداً تاريخك الحديد،وأنت في الوقت الحاضر
جاهلة أنا أعرف ذلك .

نعم ياسيدي كثيرا . أجابته الفتاة بانحناءة .
ثم تابع قائلا لها : سوف أثقفك ثقافة كلية،وسوف
تكونين برهانا حيا لكل من يتصل بك حول فائدة التمرينات التي
سوف تتلقينها . سوف يتم إصلاحك .
كنت معتادة أن تقرئي لوالدك وللجماعة الذين وجدتك بينهم
أعتقد ذلك؟ وكان قد قربها منه واختفى صوته .
فقط لوالدي ياسيدي على الأقل أعني لوالدي بينما كلبه كان
دائما موجودا .

غير مهم الكلب ياجوب - قال السيد غرند وهو يعبس - أنا
لاأسألك عنه . أنا فهمت منك انك معتادة أن تقرئي لوالدك أليس
كذلك ؟

بلن ياسيدي آلاف المرات . وكانت من أسعد الأوقات التي
قضيناها معا .

وكانت المرة الأولى التي نظرت فيها لويزا اليها وذلك بعد أن
بدا عليها الحزن الشديد . تابع السيد غرند بصوت منخفض :
وماذا قرأت لوالدك ياجوب ؟

قرأت له ياسيدي عن الساحرات الأقزام . الأحدب والجنيمات

أجهشت و

اسكتي اسكتي .

قال السيد غرند: هذا كاف . لالتنfyسي بكلمة عن هذه السخافات

مرة أخرى .

يباى هذه حالة من التمرينات القاسية وسوف أوليها الاهتمام

الكافي .

أجابه السيد باى:

لقد أعطيتك رأيا مسبقا، وأنا لأفعل مثلما تفعل أنت ولكن
حسنا بما أنك اعتمدت وهكذا أخذ السيد غرند وابنته سيسيليا
جوب معهما الى (ستون لودج) وخلال الطريق لم تتفوه لويزا بأية
كلمة جيدة أو سيئة، وذهب باى الى أعماله اليومية بينما جلست
السيدة سبارست تتأمل وهي تحيك الشياى قرب المدفأة .

الفصل الثامن لاتعجب ولا تدهش

دعونا نعد قليلا الى الوراء قبل أن نتابع . فعندما كانت
لويزا أصغر بست سنوات مماهى عليه الآن أجرت محادثة وشقيقها
فى أحد الأيام وقالت : ياتوم أنا أعجب .
وما ان تفوهت بهذه الكلمة حتى تقدم السيد غرند الذى كان
يستمع اليها وقال لها :

لويزا لاتعجبى أبدا هنا ينشأ غموض تثقيف المنطق، وميكانيكية
الفن من دون خضوعه للعواطف والاحساسات . لاتعجبى فبالجمع والطرح

والقسمة والضرب كل شيء يكون مركزاً . من دون حاجة الى الدهشة والتعجب . وكما قال أستاذ المدرسة : أحضر لي طفلاً في بدايته خطواته وأنا سوف أضمن أنه لن يدهش أبداً . فإضافة الى عدد من الأطفال هم في بداية خطواتهم الآن يوجد في (كوك تاون) عدد كبير من الأطفال يمشون عكس الوقت نحو العالم غير المحدود طوال عشرين سنة أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين أو أكثر . هؤلاء الأطفال مخلوقات مضطربة ، وغير قادرة على التسلسل في المجتمع الانساني ولا تعرف الدهشة . فالشخص الأول يقول : عليهم أن يعتمدوا على الثقة . والشخص الثاني يقول : يجب أن يعتمدوا على الاقتصاد السياسي . والشخص الثالث كتب قصصاً صغيرة قاتمة لهم يعتبر بها كيف أنّ الطفل الذي ينشأ تنشئة جيدة يوماً من مستقبله ، أما الذي ينشأ تنشئة سيئة فيتشرد . وكل الأشخاص اتفقوا معاً أنّ على هؤلاء الأطفال عدم الدهشة أبداً . كان يوجد في (كوك تاون) مكتبة وكان الدخول اليها سهلاً ، وكان السيد غرند يشغل فكره دائماً بما يقرأ هؤلاء الناس في هذه المكتبة . وكانت حقيقة محزنة بالنسبة اليه وهي أنّ هؤلاء القراء يصرون على الدهشة فهم يدهشون بالطبيعة الانسانية والعاطفة الانسانية ، والآمال والمخاوف الانسانية ، والصراعات ، والنصر ، والهزيمة ، والأفراح ، والآتراح ، والحياة ، والموت ، والرجال والنساء . وهؤلاء أحياناً وبعد خمس عشرة ساعة من العمل المتواصل يجلسون ويقرأون قصصاً خرافية حول رجال ونساء مثلهم وحول أطفال مثل أطفالهم كانوا يقبلون على الأعمال الخيالية أكثر من الأعمال الواقعية .

نعود الآن الى الغرفة التي توجد فيها لويزا وأخوها توم الصغير. عندما قال لها أخوها أنا سئمت حياتي يا لو، أنا أكرهها كثيرا وأكره الأشخاص كلهم ماعداك. ولكنك لاتكره سيسي يا توم ؟

رد توم بحزن :

أنا أكره أن أكون مجبرا على مناداتها جوب ،وهي تكرهني كذلك .

كلا ياتوم هي لاتكرهك وأنا متأكدة من ذلك .

يجب عليها ذلك - قال توم :-

عليها أن تكره وتحقر كل مايقت الينا بصلة فهم سوف يتعبون رأسها فهي قد أصبحت شاحبة كالشمعة وبليدة مثلي تماما. كان توم يعتبر عن مشاعره وهو جالس أمام المدفأة ويداه الى الخلف ووجهه كئيب وكانت شقيقته في الجانب المظلم قرب المدفأة . تنظر اليه تارة وتارة أخرى الى النار المشتعلة . قال توم :

أما بالنسبة اليّ فأنا حمار وعنيد مثله تماما وغبي،فأنا أحصل على المتعة نفسها التي يحصل عليها وأحب أن أرفس مثله تماما .

أجابته لويزا:

أتمنى ألا أكون أنا ياتوم من ترفسني؟

كلا يا لو،فأنا لن أوء ذيك فقد استثنيتك منذ البداية .

هل صحيح ياتوم أنك تعني ذلك؟

طبعاً أنا أعني ذلك،وأضاف:فأنا لا أعرف كيف يمكنني العيش

في سجن كهذا من دونك .

أجابته لويزا :

كلما كبرت أكثر جلست أعجب وأفكر كيف أنني لم أستطع
لسوء الحظ أن أمالك وهذا المنزل أفضل من الآن، فأنا لا أعرف ما
تعرفه الفتيات الأخريات ، فلا أستطيع مثلا أن أعزف وأغني لك ، ولا
أستطيع أن أتحدث معك في أمور تفرح ذهنك فلم أشاهد قسط أي
مناظر مسلية ، أو أقرأ أي كتب شيقة تكون بمنزلة المتعة والراحة
لك خلال المحادثة عندما تكون متعبا . أجابها توم :

أنا لست أفضل منك بل أنا سيء بنسبتك نفسها في هذا الضجال
وعنيد كالحمار ، ولكنك لست كذلك ، وإذا كان أبي قد قرر أن يجعلني
حمارا أو مغرورا وأنا لست مغرورا لذا كان من المنطق أن أكون
حمارا وهذا هو الواقع فعلا . لقد كان يتكلم بياس . أجابت لويزا :
هذا مؤشر للشفقة ياتوم ، وهذا من سوء حظنا معا . قال توم :
أوه أنت فتاة يالويزا ، والفتاة تخرج من ذلك أفضل من الولد ، أنت
المتعة الوحيدة لي فأنت تستطيعين إضفاء بريق حتى على هذا
المكان ، وتستطيعين قيادتي كماتشائين .

أجابته لويزا :

أنت شقيق عزيز ياتوم . وعندما تفكر أنه يمكنني فعل أشياء
كهذه فأنا لا أكثر ثباتا أعرف أكثر ، وعلى الرغم من أنني أعرف
أفضل ياتوم ، فأنا متأسفة لذلك كثيرا .

ثم تقدمت وقبلته وعادت الى زاويتها مرة ثانية . فقال لها

توم :

أتمنى أن أجمع كل الحقائق التي سمعتها وكل الأشكال والناس
الذين أوجدوا هذه الحقائق وأتمنى أن أضع آلاف الشحنات المتفجرة
تحتهم وتحتها معا لأنفسهم وإياها . ومهما يكن من أمر فعندما
أذهب للعيش مع السيد باي العجوز سوف أنتقم .

تنتقم ياتوم؟

أنا أعني أنني سوف أمتع نفسي قليلا سارى وأسمع أشياء
جديدة . سوف أبدأ . ثانية بداية مختلفة عما أنشئت عليه .
ولكن ياتوم السيد باي يفكر بطريقة أبيك نفسها وهو أقسى
منه كثيرا ووالدنا ألطف منه .

ضحك توم وأجابها :

أنا لا أكثر بذلك فسوف أعرف تماما كيف أدبر باي العجوز
وأجعله ليّنا .

ماطريقتك لذلك ياتوم؟ هل هو سر؟

أجابها :

لو كان سرا فانه لم يعد كذلك فخطتي هي الانتشار لأنفسك
قطته الصغيرة والمفضلة عنده . وسوف يفعل أي شيء لك، وعندما يقول
لي مالا أحبه فسوف أقول له : ستنزعج أختي لو وتحزن ياسيد باي
فهي دائما تخبرني أنك ستكون متساهلا معي أكثر من ذلك، هذا ما
سوف ينفع معه ولا شيء غير ذلك .

وبعد أن انتظر ردا منها ولم يحصل على شيء، تطلع فجأة

وسألها :

هل استغرقت في النوم يا لو؟

قالت :

كلا ياتوم أنا أنظر الى المدفأة . أجابها توم :
يبدو أنك تجيدين أشياء أكثر مما أجيد أنا خلال النظر الى
المدفأة ، وهذه ميزة أخرى لك كونك فتاة .

وسألها بهدوء وبلهجة فضولية :

هل تتطلعين الى أي تغيير بالنسبة الى السيد باي؟ ثم تابع
وهو يدفع الكرسي ويقف هناك :

الحل الوحيد هو الخروج من المنزل .

أعادت لويزا ماقاله : نعم الحل الوحيد هو الخروج من المنزل .
رد توم قائلًا : مايوءسفني هو أن أتركك في هذا المنزل، ولكن
عليّ أن أذهب وأنت تعرفين ذلك سواء أحببت ذلك أم لم أحبه ،
ومن الأفضل أن أذهب الى مكان يوجد فيه بعض الفائدة من خلال
دعمك أفضل من الذهاب الى مكان أخسر فيه كل شيء ، ألا ترين ذلك؟
بلى ياتوم .

تأخرت كثيرا قبل أن ترد عليه على الرغم من أنّ ردها جاء
دون تردد، مما حدا بتوم أن يتقدم نحو الكرسي الذي يجلس عليه
ويتأمل النار التي تتأملها قائلًا :

ماذا ترين في هذه النار، لاأظن أنك تشاهدين نقطة نظرك فقط
من دون كونها نارا، لاتبدو بالنسبة اليّ إلا فارغة وغبية .

أجابته لويزا :

بالتحديد لاأرى فيها ياتوم، ولكن خلال نظري اليها كنت أعجب

حول نمونا نحن .

أجابها توم:

تعجبين ثانية؟

فقالت:

عندي أفكار كثيرة ومعقدة وتشير الدهشة.

قالت السيدة غرند التي فتحت الباب دون أن يسمعها أحد: اذن أتوسل اليك يا لويزا، أتوسل اليك مجدداً ألا تفعلي شيئاً من ذلك الوصف بحق الاله، فوالدك سيفض بكثيراً، من المخجل ياتوم حقاً أن ولداً أنشئ تنشئتك وثقافته كلفت الشيء الكثير أن يشجع أخته على التعجب وهو يعرف أن والده منعها من ذلك.

نفت لويزا أن يكون أخوها فعل شيئاً من هذا القبيل، ولكن والدتها وقفتها بالجواب الحازم:

لويزا لاتقولي لي وأنا بهذا الوضع الصحي، أنه لو لم يشجعك أحد فمن المستحيل جسدياً ونفسياً أن تفعلي شيئاً كهذا. لم يشجعني يا والدتي سوى هذه الجمرات الحمر التي تخرج من النار ثم تبيض وتموت. فجعلتني أفكر بعد كل ذلك، ما أقصر حياتي وما أضعف الأمل لي أن أفعل أي شيء خلال هذه الحياة.

قالت السيدة غرند بقوة: هذا هراء، هراء لاتقفي هكذا وتخبريني بهذا اللفظ بعد كل ما فعلناه لأجلك، وبعد كل الدروس التي حضرتها والتجارب التي شاهدتها، وبعد أن سمعتك بنفسي تتكلمين على الجمر والنار، ألم أكون عاتلة قسط، وعندك كنت ستعلمين ماذا سيحدث من دوني.

الفصل السابع تقدم سيسي

لم تمض سيسي وقتاً سهلاً فبين أستاذ المدرسة والسيدة غرنند كان هناك دوافع قوية لهروبها خلال الأشهر الأولى من اختبارها. كانت تشبع بالحقائق اشباعاً قاسياً في خلال اليوم كله، وكانت الحياة مفتوحة أمامها مثل كتاب الشيفرة عدا المفهوم والمعقد، وكان من المؤكد لها أن تهرب لولا مانع واحد وهو اعتقادها أن والدها لم يهجرها وهي تعيش على أمل عودته وكانت مؤمنة أنه سيكون سعيداً أكثر ببقائها في هذا المكان. كانت سيسي متعلقة بهذا الأمل بجهل تعس. وكان رفضها للفكرة المنطقية التي تقول: إن والدها كان متشرداً كانت تملأ السيد غرنند بالشفقة عليها. ولكن ما العمل؟ أستاذ المدرسة أخبره أن لها ذهنًا سميكًا تجاه الأشكال وكان استيعابها للدروس محدوداً جداً. وأنه بعد ثمانية أسابيع من دراسة أساليب الاقتصاد السياسي، ويوم أمس ذاته ابان سوءها عن المبدأ الأول لهذا العلم كان جوابها هو: أفعل مع الآخرين ما أحب أن يفعلوه معي. هنا لاحظ السيد غرنند أن الأمر سيء، وأنه يجب ملاحقتها دوماً وهذا ما حدث، ولكنه أدى إلى هبوط معنوياتها وعدم تحسنها ذهنياً.

وفي إحدى الأمسيات وبينما كانت لويزا تحاول مساعدتها في حل بعض الدروس وتوضيحها استعداداً لليوم التالي قالت:

سيسي:

كم هو جميل أن أكون اياك يا آنسة لويزا؟

أجابتها لويزا:

هل تعتقدين ذلك؟

نعم كنت سأعرف أكثر يا آنسة لويزا، فكل ما يصعب علي الآن كان سيكون سهلا لو كنت مكانك، ولكن لعله يمكنك أن لاتكوني الأفضل ياسيسي.

أذعنت سيسي بعد لحظة تردد بسيطة، لن أكون السوأي يا آنسة لويزا.

وكان جواب لويزا: أنا لأعرف ذلك.

كان الاتصال محدودا جدا. بين لويزا وسيسي لأن الحياة فسي (ستون لودج) كانت تسير رتيبة كالآلة، وبسبب وضع سيسي السابق كانت، ماتزالان غريبتين. كانت سيسي تتطلع بعينيها السوداويين بحيرة في وجه لويزا وهي غير متأكدة من أن تتابع الحديث أو تبقى صامئة؟ قالت لويزا:

أنت أكثر فائدة لوالدتي وأكثر انسجاما واياها مني. وأكثر انسجاما ونفسك مما أنا فيه .

ولكن يا آنسة لويزا. أوه أنا غبية. غبية جدا.

فردت عليها لويزا وهي تضحك ضحكة برّاقة أكثر من المعتاد قائلة: انها سوف تصبح برّاقة أكثر رويدا رويدا. أنت لاتعرفين قالت سيسي وهي نصف باكية: ما أشد غبائي ففي خلال ساعات المدرسة ارتكب أخطاء كثيرة، فأستاذ المدرسة وزوجته دائما يوجهسان الأسئلة اليّ وأنا لأستطيع الرد عليهما ردا جيدا.

سألته لويزا: أعتقد ياسيسي أنّ الأستاذ وزوجته لا يرتكبان
أخطاءً أليس كذلك؟

كلاهما يعرفان كل شيء. أخبريني ببعض أخطائك .

أجابته سيسي باشمئزاز:

أنا أشعر بالخجل، فاليوم مثلاً كان السيد (شوكم شايلد) أستاذ
المدرسة يشرح لنا عن الازدهار الطبيعي.

علقت لويزا بقولها:

أنت تعنين الازدهار الوطني أليس كذلك؟

أجابت سيسي ثم قالت بحياد:

بلى صحيح ولكن أليس الوطني والطبيعي يوءديان المعنى نفسه .

فأجابته لويزا بتحفظها:

من المستحسن أن تقولي الوطني كما قال الأستاذ. حسناً الازدهار
الوطني وتابع الأستاذ قوله: إنّ هذا الصف أمة وفي هذه الأمة يوجد
خمسون مليون ليرة. أليست هذه الأمة مزدهرة؟ يافتاة رقم ٢٠
أليست هذه أمة مزدهرة؟ وألست في وضع مزدهر؟

سألته لويزا: وبم أجبته؟

أجبته: أنني لا أعرف، فكرت أنني لا أستطيع معرفة هل هي أمة
مزدهرة أو لا وهل أنا في وضع مزدهر أو لا. إلا إذا عرفت من
حصل على المال وإذا كان أي جزء من هذا المال يخصني. ولكن هذا
لم يجد .

قالت سيسي ذلك وهي تمسح عينيها .

عقبت لويزا بقولها: كان هذا خطأ عظيماً منك ياسيسي.

نعم أنا أعرف ذلك يا آنسة لويزا .

ثم قال الأستاذ: انه سيحاول معي مرة أخرى وقال: انّ هذا الف هو قرية كبيرة فيها مليون مواطن فقط خمسة وعشرون ألف منهم يموتون جوعا في الشوارع كل سنة فما تعليقك على هذه النسبة؟ وكان تعليقي، وهو أفضل ما استطعت التفكير فيه، انّ الصعوبة هي نفسها وبمقدار كبير على هؤلاء الذين يموتون جوعا سواء أكان الآخرون مليوناً أم كانوا أكثر، وكان جوابي أيضاً خطأ، بالطبع كان كذلك .

ثم قال الأستاذ: انه سيختبرني مرة أخرى وقال هنا - ولفظت سيسي كلمة بطريقة مخطئة صحتها لها لويزا بقولها: هنا فن وضع التقويم .

نعم يا آنسة لويزا . قال الأستاذ:

انه في وقت محدد ذهب مائة ألف شخص الى البحر في رحلات طويلة وغرق منهم خمسة آلاف فقط أو أحرقوا حتى الموت فمما النسبة؟ وأجبت - وأجهشت سيسي بالبكاء اعترافاً منها بخطئها الكبير - وقلت له لا شيء .

لا شيء ياسيسي .

لا شيء يا آنستي بالنسبة الى علاقات الأشخاص الذين قتلوا وأصدقائهم فلن أتعلّم أبداً وأساء من كل ذلك أنه على الرغم من أنّ والدي كان يتمنى كثيراً أن أتعلّم، وعلى الرغم من أنني أرغب في التعلّم لأنه يرغب في ذلك فأخشى من أنني لن أحب ذلك .

وقفت لويزا وهي تنظر الى الرأس الجميل الخجول ثم سألتها :
هل كان والدك يعرف الكثير حتى كان يود أن يعلمك أيضا ياسيسي؟
ترددت سيسي قبل الجواب ، وكانت حذرة جدا وكأنها كانت
تدخل أرضا محرمة مما جعل لويزا تضيف :

لأحد يسمعنا وإذا سمعنا أحد فأنا متأكدة من أنه لا يترتب
أي أذى على سوء ال بريء كهذا .
أجابت سيسي: كلا يا آتسة لويزا ، أبي كان يعرف القليل جدا
مما يكفي لأن يكتب وكان الناس يجدون صعوبة في قراءة ما يكتبه ،
مع أنه كان يبدو سهلا بالنسبة اليّ .

والدتك ؟

كان أبي يقول: انها كانت متعلمة ولقد توفيت عندما
ولدت . كانت - قالت سيسي بعصبية - راقصة .

هل كان والدك يحبها ؟

كانت لويزا تسأل هذه الأسئلة بدهشة قوية وباهتمام بالغ .
نعم كان يحبها بشغف مثلما يحبني فأبي أحبني أولا من أجلها .
أخذني معه منذ كنت طفلة ، ولم نفترق منذ ذلك الوقت .
ولكنه تركك الآن ياسيسي .

تركني فقط من أجل مصلحتي فلا أحد يفهمه ويعرفه مثلي . فهو
عندما غادر كان قلبه يقطر أسى وهو لن يكون سعيدا ولو دقيقة
واحدة حتى يعود .

سألتها لويزا :

أخبريني أكثر عنه ولن أسالك مرة أخرى ، أين كنتم تسكنون ؟

كنا نساfer حول البلدة ولم يكن لنا مكان ثابت نعيش فيه ، فأبى

كان - قالت سيسى ذلك هامة - كان مهرجا .

فسألتها لويزا بذلك :

من أجل اضحك الناس ؟

نعم ولكن فى بعض الأحيان كانوا لا يضحكون وهنا كان أبى يبكي وفى الأيام الأخيرة وفى أغلب الأحيان لم يعودوا يضحكون قط ، فكان يعود الى البيت وهو فى حالة يأس شديدة ، فأبى ليس مثل الكثيرين ممن لا يعرفونه جيدا ولا يحبونه مثل محبتي له ، لقد كانوا يعتقدون أنه لم يكن على حق كانوا يمارسون عليه أحيانا بعض الحيل ، ولكنهم لم يعرفوا قط كيف كان يشعر ويتحمس عندما يجلس وحيدا معى ، فقد كان وديعا أكثر مما يظنون .

أجابتها لويزا :

وكنت أنت راحته الوحيدة ضمن كل شيء ؟

أومات سيسى برأسها والدموع تترقرق على وجهها :

نعم وأبى كان يقول لى ذلك ولقد أصبح خائفا جدا لأنه كان يشعر أنه فقير ، وضعيف ، وجاهل ، ورجل فاقد للأمل (هذه كانت كلماته) لذا كان يريدنى أن أعرف الكثير وأن أكون مختلفة عنه . كنت أقرأ له لأنعش نفسه وأقوى شجاعته وكان مسرورا جدا بذلك ، ولكن نوعية الكتب كانت خاطئة ، على ألا أتكلم على نوعية هذه الكتب هنا ولكننا لم نكن نعلم أنها تشغل أى أذى .

فسألتها لويزا :

وهل كان يحب هذه الكتب ؟

قالت ذلك وهي تنظر نظرة استكشافية الى سيسي طوال الوقت :
نعم كثيرا فقد كانت تبعده وقتا طويلا عما يسبب له أذى
حقيقيا، وكانت تنسيه متاعبه وهو يخمن هل سيدع السلطان السيدة
تكمل القصة أو سوف يأمر بقطع رأسها قبل أن تنهي الرواية* .
سألته لويزا :

وهل كان والدك دائما لطيفا وحتى النهاية ؟
دائما، دائما، أجابته، سيسي ألطف مما أستطيع قوله، ولكنه
هضب في ليلة واحدة فقط، ولكن ليس عليّ بل على كلبه .
لماذا ؟

بعد أن عاد والدي مع كلبه من العرض طلب من الكلب أن يقفز
من على ظهر كرسيين وأن يقف عليهما وكانت هذه اللعبة إحدى لعباته
البهلوانية، ولكن الكلب نظر الى والدي ولم يقم بالعمل وكان كل
شيء في نظره خاطئا في ذلك اليوم بالنسبة الى والدي، ولم يكن قد
قام بما يرضي الجمهور آنذاك، فصرخ وهو يقول : انّ كلبه يعرف
أنه مخفق، ومع ذلك لا يראف به أبدا وقد ضرب الكلب ضربا مبرحا
فخفت عليه، وقلت له : والدي أرجوك لاتؤذ هذا المخلوق الذي يحبك
كثيرا، لتسامحك السماء، توقف يا أبي .

وتوقف بعد أن أدمى الكلب وسقط والدي يبكي على الأرض والكلب
بين يديه يلحس وجهه . رأت لويزا أنّ سيسي كانت تبكي فذهبت
اليها وقبلتها وأخذت يدها، وجلست بجانبها قائلة : أنهى حديثك
ياسيسي باخباري كيف تركك والدك؟

قالت سيسي وهي تغطي عينيها وتبكي :
■ يقصد المؤلف بالرواية هنا " ألف ليلة وليلة " .

أتيت ياعزيزتي من المدرسة الى البيت بعد الظهر ورأيت والدي
المسكين قد وصل توا الى المنزل أيضا قادما من الدكان المتنقل ،
وجلس قرب المدفأة وبدأ وكأنه يتألم فقلت له : هل آذيت نفسك
ياوالدي؟ وقال :

قليلا يا حبيبتي .

وعندما اقتربت منه ، ونظرت في وجهه رأيت يبكي، وكلمنا
تكلمت معه خبا وجهه وكان جسمه كله يرتجف ولم يقل شيئا فسي
البداية سوى يا حبيبتي ويا حبي .

وبينما كانتا مستفرقتين في الكلام دخل توم متكاسلا ونظر
اليهما ببرود وبدأ غير مهتم بشيء سوى نفسه . تحدثت اليه لويزا
بقولها :

أنا أسأل بعض الأسئلة ياتوم وبما أنك لن تذهب فلا تزعجنا
للحظة ياعزيزي .

حسنا - أجابها -

لكن والدي قد أحضر معه الى المنزل باي العجوز وأريدك أن
تدخلي الى غرفة الجلوس لأنه في حال حضورك فالفرصة كبيرة كسي
يدعوني باي العجوز للعشاء أما اذا لم تأت فلن أتلق الدعوة .
قالت لويزا : سوف آتي حالا . سأنتظرك حتى أتأكد من قدومك .
تابعت سيسي بصوت منخفض وفي النهاية قال والدي : انه لم يعد
شمة أية فائدة ، وانه خجول من نفسه وانني سوف أكون في وضع
أفضل من دونه . وقد قلت له كل الكلمات الحنون التي أحفظها بقلبي ،
وكان هادئا وأنا أجلس قربه أخبره عن المدرسة وما يحدث فيها .

وعندما لم يعد هناك شيء أقوله وضع ذراعيه حول عنقي وقبلني
مرات كثيرة، وطلب إليّ أن أحضر له زيوتا من الطرف الثاني من
البلدة، ثم بعد أن قبلني ثانية تركني أذهب وعندما غادرت ثانية
لعلني أبقي برفقته قليلا ونظرت من الباب وقلت له : أبي الحبيب
هل آخذ الكلب معي؟ فهز رأسه وقال:

كلا ياسيسي لاتأخذي شيئا معروفا انه لي يا حبي .
وتركته جالسا قرب المدفأة ولا بد أنّ الفكرة كانت قد خطرت له
كل ذلك الوقت ، مسكين والذي فلقد غادر كي يحاول فعل شيء
لصالحه، وعندما عدت كان قد ذهب . وهنا ذكر توم لويزا بالسيد
باي، تابعت سيسي ليس هناك المزيد للقول يا آنسة ولقد احتفظت له
بالزيوت جاهزة وأنا متأكدة من أنه سيعود. كلما رأيت رسالة في
يد السيد غرند التقطت أنفاسي وفتحت عيني وأنا أعتقد أنّ والذي
قد أرسلها لي أو أنّ السيد سليمي قد بعث بها بخصوص والذي، فقد
وعد أن يكتب لي عندما يسمع عنه شيئا، وأنا واثقة من أنه
سيلتزم بكلمته .

وعاود توم تذكير لويزا بوجود السيد باي وبأنه سوف يغادر
إذا لم تحضر. منذ ذلك الوقت ما أكثر ما انحنيت سيسي للسيد غرند
بحضور عائلته وسألته بلهجة مضطربة أستميحك عذرا ياسيدي في
ازعاجك ولكن هل تلقيت أي رسالة بخصوص ؟ وكانت لويزا تنتظر
الاجابة بلهفة لاتقل عن لهفة سيسي. وعندما كان يرد عليها السيد
غرند بقوله :

كلا - كلا يا جوب لم أتلّق شيئا. كانت شفتاهما ترتجفان ووجه

لويزا يعكس التعبير نفسه وكانت عيناها ترافقان سيسي بعاطفة
الى الباب . وكان السيد غرند يعقب أنه لو كانت سيسي قد أنشئت
انشاء جيدا منذ سن مبكرة لكانت أثبتت لنفسها عدم جدوى هذه
الآمال الوهمية . على الرغم من أنه يبدو أن الأمل الوهمي كان
يمنح منحي قويا كالحقيقة تماما من دون أن يكون للسيد شيء في
ذلك فهو لا يرى شيئا من هذا .

الفصل العاشر ستيفن بلاك بول

قرية كوك تاون قبيحة تنخر بالعمل الشاق الذي ينقل لناس
صورة كفاح العمال ويوضح النوعية التي نشأت والتي تدعى (الأيدي)
فالظروف دفعت بالعمال لأن يكونوا أيدي فقط أو مثل المخلوقات
الضعيفة الموجودة على شاطئ البحر أيدي ومعدات فقط، وكان يعيش
ضمن هذه المجموعة ستيفن بلاك بول، ويبلغ من العمر أربعين سنة
ويبدو أكبر من سنه لأنه عاش حياة قاسية، ويقال: أن كل حياة
لها أزهارها وأشواكها ويبدو أن هناك خلافا في قضية ستيفن
فأزهاره اقتناها أحد غيره، واقتنى ستيفن أشواك غيره، إضافة إلى
أشواكه، وكان الناس يسمونه دائما ستيفن العجوز دلالة على الولاء
القاسي لهذه الحقيقة . كان رجلا ذا انحناءة، حاجباه ملتحمان، وهو
ذو وجه مغبر . نظراته قاسية، ورأسه عريض يغطيه شعر رمادي
طويل وخفيف . وكان يمكنه أن يكون رجلا ذكيا في ظروفه، ولكنه
لم يكن كذلك فلم يكن له مهمة ضمن الأيدي التي للذين كانوا

يلقون الخطابات ويحملون الشعارات . فالآلاف من زملائه يستطيعون
التكلم أفضل منه في أي وقت . كان حائك نول في معمل وكان
مجتهدا وذا استقامة . ولعل ما يوجد فيه أكثر من ذلك ما كان
قادرا على أن يظهره بنفسه .

الأضواء في المصانع الكبيرة التي تبدو عندما تكون مضياءة
كالقصور الخيالية ، قد أطفئت وكان أصحاب الأيدي رجالا ونساء والصبية
والفتيات يعودون أسرابا إلى منازلهم . وكان ستيفن العجوز يقف
في الشارع وموت الآلات مازال يعمل في رأسه .

قال ستيفن:

ولكنني حتى الآن لم أر (راشيل) ، كانت ليلة رطبة ومجموعة
من النسوة تمر من أمامه ومناديلهن على رؤوسهن لمنع تبللهن
بالمطر . كان يعرف راشيل جيدا ومجرد القائه نظرة على هذه
المجموعة كانت كافية ليعلم أنها ليست ضمنهم . ثم قال بلهجة
يائسة: لقد افتقدتها . ولكنه لم يمش أكثر من شارعين عندما
رأى مجموعة أخرى تتقدم منه ونظر بانتباه لعله يرى خيالها على
الرصيف الرطب . وكان يمشي بخطوات سريعة بعدما رأى خيالها مارا
حتى وصل قربها وصاح: راشيل . استدارت ورفعت قبعتها قليلا
فبدأ وجهها البيضوي الناعم مشرقا بعينين لطيفتين وشعر أسود
لامع لم يكن وجهها في أول تفتحه كانت امرأة في الخامسة والثلاثين
من العمر .

قالت وابتسامة تشع من وجهها:

هذا أنت ؟

وأعادت قبعتها وذهبا معا .

هل خرجت باكرا اليوم؟

أحيانا أخرج باكرا وأتأخر بعض الوقت أحيانا أخرى .

نظر اليها وبعض اليأس على وجهه ولكن باقتناع كلي في أنها
محقة في كل ماتفعله . وتعبيره هذا لم يخف عليها فوضعت يدها
على ذراعه قليلا وكأنها تشكره .

نحن ياستيفن صديقان حقيقيان وقديمان كذلك، وبدأنا نعجز .
كلا ياراشيل، فأنت شابة كما كنت .

مهما يكن من أمر ياستيفن من الخطيئة أن نخفي عن بعضنا
أي شيء .

وكانت تتحدث معه بسرور وكأنها على اتصال معه .

قال ستيفن خلال سنوات عدة فعلت لي الكثير ياراشيل، وعالمك
مهم بالنسبة اليّ ويشغل شريعتي، وهو أفضل من الكثير من الشرائع
الحقيقية وأجابته سريعا:

لاتغضب بسببها ياستيفن، دع الشرائع كما هي .
أجابها:

نعم لندعها كما هي، فالشرائع تشويش وارباك .
أجابته راشيل:

دائما تشويش؟

قالت ذلك وهي تلمسه برفق وكأنها تريد أن تعيده من شروره
وكان للمستها تأثير سريع فيه فاستدار بوجهه المبتسم وقال بعد
أن استعاد ضحكته المرححة:

صحيح هذا تشويش فأنا دائما أضع نفسي في مواقف كهذه .
سارا مسافة قليلة واقتربا من منازلهما وصلت هي أولا، وكيسان
منزلها يقع ضمن شوارع صغيرة . وقفت في الزاوية وسلمت عليه
متمنية له ليلة سعيدة .

ذهبت بشكلها النحيف ، وخطواتها الخفيفة ، عبر الشارع المظلم ،
وبقي ينظر اليها حتى دخلت أحد البيوت الصغيرة . وكان كل ما يصدر
عنها ذا أهمية خاصة في عيني هذا الرجل ، وكل نبذة بصوتها كان
لها صدى بقلبه . وعندما غابت عن بصره اتجه نحو منزله وكان
ينظر أحيانا الى السماء ، حيث انقطع المطر وبدأ أنه قد استمتع
في هذه الليلة .

كان منزله يقع في شارع ضيق فوق دكان صغير . أخذ شمعة من
رف في الدكان ومن دون أن يزج . عاملة الدكان التي كانت نائمة في
غرفتها وصعد الى منزله . كانت غرفة نظيفة فيها بعض الكتب
والأوراق على مكتب قديم في الزاوية ، وكانت مفروشاتها كافية
ومرتبة . وبينما اتجه لوضع الشمعة على الطاولة اصطدم بشيء ،
وعندما نظر وجد امرأة تجلس على كرسي . صاح يا لشفقة الله كيف
هدت ثانية . مخلوقة سكرى احدى يديها على الأرض والأخرى تلملم
بها شعرها عن شعرها . مخلوقة أقدر من أن تستطيع النظر اليها .
بثوبها البالي الملوّث وقدر بسمعتها التي كانت تثير الاشمئزاز
لرؤيتها ، وبعد قسم أو اثنين وبعد الاشارات الغبية منها الملمت
شعرها عن عينيها حتى تستطيع أن تلمحه ثم جلست تهز جسمها
وترسم اشارات بيدها العصبية ، وكان أمرها يدعو للضحك على الرغم

من أن وجهها كان أحمر وذابلا من النعس وقالت له :
ماذا تفعل هنا أيها الولد؟ بينما كان رأسها متدلليا نحو
صدرها. فها أنا ذي قد عدت ثانية نعم وسأعود دائما. ولم لا؟
وقفت وهي تستند الى الحائط وتنظر اليه نظرة احتقار وأخذت
تقول :

سوف أبيعك ثانية ومرات كثيرة .
وكان يجلس على جانب الفراش ، ووجهه بين يديه وكانت تريده
أن يقوم عن الفراش ، وعندما هجمت عليه تجنبها ، وتنحى الى الجانب
الأخر من الغرفة ، ردت نفسها على الفراش بشقل ومضت في سبات عميق
بينما غرق هو في كرسيه ولم يتحرك طوال هذه الليلة سوى مرة
واحدة ، وكان عليه أن يرمي عليها غطاء ، وكان يديه لم تكونا
كافيتين لاختفائها حتى في الظلام .

الفصل الحادي عشر ليس ثمة مخزئ

كل ما يمكننا الحديث عنه الثورة الصناعية وشبه بلدة (كسوك
تاون) بالقصور الساحرة التي تعج بكل ماهو فظيع ، وبال دخان الكثيف
المتصاعد منها ، ففي هذه البلدة لا يسمع سوى أصوات الأحذية المسرعة
على الأرصفة وقرع أجراس سريخ . أما المصانع فتشبه الفيلة ويتصاعد
منها دخان يجلب الموت ، والناس يستنشقون هذا السم يوميا بمرأهم
مع هذه آلات الضخمة من أجل كسب العيش .

انحنى ستيفن على آلتة صامتا متأملا . وكانت المثات مسن

الأيدي تعمل في ذلك المصنع ومن المعروف مدى تأثير الآلة في العامل .

انتمف النهار والعمل مازال مستمرا في المصنع والأمطار تتساقط بينما شغل ستار كثيف من الدخان والفحم والرماد في الفضاء، واستمر العمل حتى جرس الغداء . فازدادت قرقرة الأرضة وخرج الجميع لاستراحة ساعة من الزمن . وخرج ستيفن من المصنع الحار الى الشارع البارد المبتل وهو شاحب اللون وواهن القوى ممسكا بيده قطعة من الخبز، وهو متجه نحو التلة حيث يسكن رئيسه في العمل السيد باوندر باي . وكان منزله ذا شبابيك بأبواب خشبية خضر اللون وباب أسود يحمل لوحة نحاسية كتب عليها باوندر باي وله قبضة نحاسية أيضا ، (النحاس يدل على شخصية باي التي كانت تشبه النحاس) وكان باي يتناول غداءه كما توقع ستيفن، وأخبرته الخادمة أن أحد العمال يطلب مقابلته، وذكرت له اسم ستيفن بلاك بول، ولم يكن هناك أي اشكال حول هذا العامل، فسمح له بالدخول، وقف ستيفن في غرفة الجلوس بينما كان باي يأكل وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلمح فيها ستيفن رئيسه، وكانت السيدة سبارست تحيك الصوف قرب المدفأة وكان أحد مبادئها ألا تتناول طعام الغداء إذ كانت تعد ذلك ضعفا . قال السيد باي:

الآن ما بك يا ستيفن ؟

انحنى ستيفن ولكن انحناءته لم تكن ذليلة، فالعمال لا ينحنون بذل ولو بقوا معك عشرين سنة لن تلاحظ عليهم شيئا كهذا، وتابع السيد باي بعد أن ارتشف قليلا من الويسكي :

أنت تعلم الآن أننا لم نلاق أية معوبة معك، ولم تكن قسط
غير منطقي، ولا شك فأنت لا تتوقع أن تجلس في عربة، وتطعم اللحم
بملعقة ذهبية، كما يأمل الكثر من العمال. إذ أن السيد بيساي
يتوقع دائما أن يكون هذا هو موضوع طلب أي عامل .

كلا ياسيدي أنني لم أحضر من أجل سبب كهذا .

بدا على السيد باي الدهشة فقال:

حسنا دعني أسمع طلبك، هيا يا ولد، قل .

في ذلك الوقت كان ستيفن ينظر إلى السيدة سبارست التي قالت :

أستطيع الذهاب ياسيد باي إذا أردت ذلك .

أوقفها السيد باي وقال لستيفن:

أنت تعرف أن هذه السيدة الممتازة ذات مستوى عال، ولا تظنن

أنها بسبب رعايتها لمنزلي ليست ذات مستوى عال، لذا إذا كان

ماستقوله لا يمكنك البوح به أمامها فعليك أن تغادر الغرفة . وإذا

كان ماستقوله يمكنك البوح به أمام سيدة محترمة فستبقى مكانها.

وعندما لم يبد ستيفن أي اعتراض بدأ يتحدث رافعا عينيه

عن الأرض وقال:

أنا أتيت من أجل أن أطلب نصيحتك التي أحتاجها، فلقبـد

تزوجت منذ تسع عشرة سنة من فتاة جميلة وعلى الرغم من أنني

لم أكن زوجا سيئا بالنسبة اليها فقد بدأت أمورها تسوء .

أجابه السيد باي:

لقد سمعت عن ذلك، فقد بدأت تشرب وتترك العمل، وتبيـسـع

المفروشات وترهن الثياب وتدمر كل شيء .

أجابه ستيفن:

كنت صبورا معها جدا وحاولت اصلاحها مرات وبطرق مختلفة ،
وما أكثر ما ذهبت الى البيت ورأيتها ممددة على الأرض العارية ،وقد
حدث ذلك مرات عدة .

كان كل خط في وجهه يكفر خلال حديثه هذا ،وكان ذلك دليلا
على عذابه .

كانت تنتقل من سيء الى أسوأ وكانت تحقر نفسها في كل
مكان تحقيرا قاسيا ،وكانت دائما تعود ،فماذا أستطيع أن أفعل
لوقفها ؟ كنت أتمشى عبر الشوارع ليالي طوالا ،وعجزت عن فعل أي
شيء .

كانت السيدة سبارست تنظر اليه وتهز برأسها قائلة : الكبير
يعرف المشكلات كالمغير تماما .

وتابع ستيفن قوله :

كنت أدفع لها حتى تبقى بعيدة. عني طوال السنوات الخمس
الآخيرة وعشت عيشة قاسية وحزينة ولكن لم أخجل من تفاصيل
حياتي، وفي الليلة الماضية ذهبت الى المنزل ووجدتها مستلقية .
كان ينظر الى السيد باي بتعابير مستفسرة تدل على ذكائه
وقلقه فقال له باي:

كان من الأفضل لك ألا تتزوج ،على كل من المتأخر جدا أن أقول
لك ذلك .

تساءلت السيدة سبارست :

هل كان زواجا غير متكافئ من حيث العمر ياسيدي ؟

قال السيد باي:

سمعت ما سألت السيدة هل كان زواجا غير متكافئ؟
كنت في الواحدة والعشرين بينما هي في التاسعة والعشرين .
قالت السيدة سبارست لباي بهدوء شديد هذا ما أستنتجه مسن
كونه زواجا تعسا . انه العمر غير المتكافئ .
نظر السيد باي الى السيدة سبارست نظرة جانبية قاسية جدا
وجرع رشفة أخرى من الويسكي وكان سبب نظرته القاسية تلك كونه
كان يريد الزواج من لويزا وهي أصغر منه كثيرا .
حسنا لماذا لا تتابع؟ قال باي ذلك وهو ينظر بنزق الى ستيفن
أتيت ياسيدي لسوءالك : كيف أستطيع التخلص من هذه السيدة ؟
كان ستيفن يتحدث بنبرة حزينة تنعكس على وجهه .
شهقت السيدة سبارست لدى سماعها ذلك وكأنها تلقت صدمة
أخلاقية .

قال السيد باي:

ماذا تعني؟ عم تتكلم؟ لقد تزوجتها بخيرها وشرها .
قال ستيفن يجب أن أتخلص منها لم أعد أتحمّل المزيد ولسوف
أجن بسببها .
عقبت السيدة: هو يريد أن يصبح حرا كي يتزوج من سيدة أخرى
ياسيدي .

قالت ذلك بنبرة مستاءة من عدم وفاء الناس .

قال ستيفن:

هذا صحيح السيدة تقول الحق أنا أنوي ذلك. فلقد قرأت بعض

الأوراق التي تسمح للأغنياء بالانفصال والزواج مرة ثانية وذلك عندما لا يكون ممكنا الوفاق بين طبائع الزوجين وبمقدورهم الانفصال وأن يعيش كل واحد منهما في غرفته في المنزل نفسه ولكن بالنسبة اليينا لانستطيع ذلك لأنه لا يوجد عندنا سوى غرفة واحدة، كما أنه يحق لهما الانفصال، على الرغم من أن أخطاءهما تكون غير كبيرة كأخطائنا، ولذا عليّ التخلص من هذه مرأة ولكن لا أعرف كيف أحقق ذلك .

سأل ستيفن السيد باوندر باي :

إذا أذيتها ياسيدي فهل هناك قانون يعاقبني؟

طبعاً هناك .

أجابه باي .

إذا هربت منها هل هناك قانون يعاقبني؟

طبعاً .

إذا تزوجت سواها هل هناك قانون يعاقبني؟

نعم يوجد .

إذا عشت معها من دون زواج هل يعاقبني القانون عن كل طفل

يقت اليّ بصلة ؟

بالطبع .

والآن باسم الله - قال ستيفن - أعطني قانونا يساعدني .

قال السيد باي: هناك نوع من القدسية في هذه العلاقة في الحياة

ويجب المحافظة عليها .

لا لاتقل ذلك ياسيدي. لابد من وجود طريقة ما، فمنذ كنست

طفلا وأنا أعمل في مصنع، ولكنني أقرأ وأسمع أنه لابد من وجود طريقة لفك الارتباط سواء بالحرب أو القتل أو الموت فأرجو مساعدتي لمعرفة القانون الذي ينقذني .

أجابه السيد باي وهو يضع يديه في جيوبه :

هناك قانون لمساعدتك ولكنه لا يناسبك لأنه يكلف الكثير من

المال .

سأله ستيفن بهدوء : كم؟

حسنا عليك الذهاب الى قاعة المحكمة ببزة، والى قاعة اللوردات ببزة أخرى، والى البرلمان الذي يسمح لك بالزواج مرة أخرى ببزة أخرى وسوف يكلفك ذلك كما أعتقد من ألف الى خمسة عشر ألفا وربما ضعف هذا المبلغ .

آلا يوجد قانون آخر؟

بالطبع لا .

اذن ياسيدي - قال ستيفن وهو ينظر اليه بشحوب - :

هذا تشويش ومن الأفضل أن أموت .

حزنت السيدة سبارست مرة ثانية من الحاد الناس .

وقال السيد باي: لا تتكلم، لا تقل سخافات كهذه حول أمسور

لاتفهمها، ولا تسمّ الموءسات في بلدتك بأنها مشوشة والّا فسوف

توقع نفسك في ارباك حقيقي في أحد الايام، فالموءسات في بلدتك

ليست من اختصاصك، وكل ما عليك عمله هو التفرّغ لعملك فقط. فأنت

لم تتزوج زواجا سريعا ومؤقتا ولكنك تزوجت مدى الحياة بحلوها

ومرّها، فاذا ماتحولت الى حياة سيئة فإن كل مايمكنك قوله

لعلني أتحول نحو الأفضل .

قال ستيفن، وهو يهز رأسه متجها نحو الباب :

إنها أرباكات .

قال السيد باي كلمة وداع له :

آراؤك المدنسة قد أصابت هذه السيدة بصدمة وهي كما قلت لك سيدة راقية، وما لم أقله لك أنها نكبت زوجها كلفة عشرة آلاف ليرة وأنت كنت دائما حتى الآن عاملا جيدا، ولكن بدأت تسير في الطريق الخاطئ، وبدأت تستمع الى بعض الآراء المؤذية، والأفضل لك أن تخرج من كل ذلك، فأنا أعرف أكثر منك كثيرا .

غادر ستيفن بعد أن شكر السيد باي وتمنى له يوما سعيدا، تاركا السيد باي والسيدة سبارست تجلس كشيبة بسبب خطايا المجتمع.

الفصل الثاني عشر المرأة العجوز

نزل ستيفن الدرجين الأبيضين التابعين لمنزل السيد باي، بعد أن أغلق الباب الأسود ذا القبضة النحاسية وعبر الشارع وعيناه مسمرتان في الأرض، كان يمشي حزينا عندما شعر بلمسة على كتفه. لم تكن هذه اللمسة هي التي يحتاج إليها في تلك اللحظة . اللمسة التي كانت ستهدىء روحه المتعبة . كما يمكن يد الحبيبة الجليلة أن تخفف من هيجان البحر (كان محتاجا الى لمسة يد حبيبته) وعلى الرغم من ذلك كانت يد امرأة أيضا . كانت امرأة عجوزا طويلة، ومنظرها مقبولا على الرغم من كبر سنها . كانت تلبس ثيابا أنيقة

ونظيفة جدا، وكان على حداثتها بعض الوحل كأنها كانت قادمة حديثا من رحلة . كان اضطراب تصرفها، والمنديل الذي تحمله حول يدها، والمظلة الثقيلة، وسلتها الصغيرة وقفازاتها كل تلك الأشياء كانت تتحدث عن امرأة أتت الى كوك تاون لأمر في غاية الأهمية . نظر اليها ستيفن بوجه يحمل نظرة عميقة، تنم على تعجب وارهاق . سألتها السيدة :

عفوا ياسيدي ألم أرك تخرج من منزل ذلك السيد؟
قالت ذلك وهي تشير الى منزل السيد باي. أنا واثقة أنه أنت،
إلا إذا كان حظي السيء قد أخطأ الشخص .
أجابها ستيفن:

بلى ياسيدي أنا هو ذلك الشخص .
هل أرجو أن تعذر فضول امرأة عجوز، هل رأيت السيد؟
نعم ياسيديتي.

وكيف كان يبدو ياسيدي؟ هل كان مهيبا قويا ومادقا؟
وبينما كانت تعدل من شكلها حتى يتطابق وكلامها خمرت في
فكر ستيفن أنه رأى هذه المرأة من قبل، وأنه لم يحبها كثيرا .
نعم - أجابها - انه كل ما قلت .

وهل هو في صحة جيدة؟
نعم كان يأكل ويشرب .
قالت المرأة وهي مسرورة جدا:
شكرا لك .

فكر ستيفن أنه حتما لم ير هذه المرأة من قبل، وعلى الرغم

من ذلك كان هناك ذاكرة غامضة في ذهنه، وكأنه قد حلم أكثر من مرة بامرأة عجوز مثلها، مشى الى جانبه، وبدأ يحدثها بلطف قائلًا:

كوك تاون مكان مزدحم أليس كذلك ؟

أجابته :

مزدحم جدا .

ثم سألها :

أرى أنك قد أتيت من المدينة ؟

أجابته بالإيجاب . أتيت من مسافة أربعين ميلا هذا الصباح وسأعود المسافة نفسها هذا المساء . مشيت الى المحطة هذا الصباح مسافة تسعة أميال وإذا لم أجد أحدا ينقلني على الطريق فسوف أمشي الأميال التسعة هذه الليلة، وهذا جيد بالنسبة الى عمري .

قالت العجوز الشريرة ذلك وعيناها تلمعان بفرح .

ولكنك لاتفعلين ذلك دائما ياسيديتي؟

كلا مرة في السنة . فأنا آتي بانتظام مرة كل سنة لأتجول في الشوارع، وأرى السادة .

هل لروءيتهم فقط ؟

انه سوء ال ستيفن لها، أجابته :

هذا كاف بالنسبة اليّ فأنا لاأطلب أكثر وقفت على هذا الجانب من الشارع لروئية ذلك السيد - وكانت تعني السيد باي - ولكنه تأخر هذه السنة وخرجت أنت عوضا منه، وإذا ما اضطررت الى أن أعود من دون أن ألمحه فكل ما أريده هو لمحة منك، حسنا لقد رأيتك،

وانت رأيته وهذا يكفي.

ونظرت الى ستيفن وهي تقول هذا وكأنها تريد أن تثبت
ملاحه في ذهنها، ولم تكن عيناها تلمعان كما كانتا من قبل .
هذه الأمور جعلته يشعر بقلق، وبينما كانا يعبران الكنيسة
نظر ستيفن الى الساعة وأسرع بخطاه. قالت المرأة وهي تسرع أيضا:
هل كان ذاهبا الى عمله؟

نعم، فالوقت قد حان وما ان ذكر لها مكان عمله حتى بسدا
عليها الكثير من الاستغراب، وسألته ألسنت سعيدا؟ فأجابها:
ليس من أحد لا يوجد لديه مشكلات ياسيدتي؟

المرأة كان يبدو عليها أنها تتوقع أنه سعيد جدا ولم يكن
يريد أن يخيب أملها فيه، فقد كان يعرف أنه يوجد مشكلات كافية
في العالم . سألته:

أنت تعني أنه لديك مشكلات في المنزل؟ أجابها اجابسة
مقتضبة:

من حين الى آخر. فأجابته:

ولكن العمل باشراف سيد كهذا لابد أنه يمنع أن تلحقك
المشكلات الى المصنع .

فرد ستيفن:

كلا لا تتبعني المشكلات الى هناك. كل شيء هناك يسير سيرا
صحيحا ودقيقا .

ولكنه لم يتابع قوله: ان هناك نوعا من الحق المقدس، هناك
في المصنع . اقتربا من المصنع، وكان العمال يتوافدون الى الداخل

والجرس يقرع، والدخان في بداية تصاعده، والمعمل بدأ يعمل وكانست هذه المرأة الغريبة مسرورة بهذا الجرس، وكأنه أجمل جرس سمعته في حياتها وصوته جهوري. وعندما توقف ستيقن للسلام عليها قبل دخوله سألته :

منذ متى تعمل هنا؟ أجابها:

منذ اثنتي عشرة سنة .

فقالت :

عليّ أن أقبل اليد التي تعمل في المصنع الجيد، منذ اثنتي عشرة سنة .

ورفعت يده وهو يحاول تجنب ذلك ووضعت شفتيها عليها .
ما هذا التناسق المحيط بها اضافة الى عمرها وبساطتها، انه لايعرف، ولكن حتى في هذا التصرف الغريب كان يوجد شيء ليس خارج الوقت والمكان، شيء ما وكأنه لاأحد سواها يمكنه أن يفعله بالجدية والطبيعية والجو الموءثر نفسيهما .

انكب على نوله مدة نصف ساعة وهو يفكر في هذه المرأة العجوز. وعندما أتاحت له فرصة ترك النول لحظات من أجل ضبطه نظر من النافذة فوجدها مازال تنظر الى البناء باعجاب من دون أن تفكر بالدخان والوحل والرطوبة، وبالرحلتين الطويلتين الشاقتين بالنسبة اليها، وكأنها كانت تسمع موسيقى ممتعة .

ذهبت المرأة، وانتهى النهار، وكان وقتا طويلا، قبل أن يعود بأفكاره الى غرفته التعسة، والى الشخص الثقيل المخزي المستلقي على فراشه، وهو يريزح بثقل على قلبه . هذات الآلات وتوقف العمل، صحيح

أنه قد تحدث الى راشيل الليلة الماضية فقط، وتمشى معها قليلا ، ولكنه يشعر بسوء حظه، وبأنه لا أحد سواها يستطيع اعطاءه لحظة راحة، ولأنه يعلم أنه محتاج الى من يخفف غضبه وأنه لاصوت سوى صوتها يوءثر فيه . لقد شعر أنه عليه انتظارها مرة ثانية .

لقد انتظر ولكنها تملصت منه وذهبت ، ولم يكن في أية ليلة محتاجا اليها مثلما هو محتاج اليها اليوم . ورأى أنه من الأفضل ألا يكون له منزل يأوي اليه اذا كان على شاكلة منزله التعسفي ظروف كهذه ، لقد كان مجهدا فأكل وشرب دون اهتمام بالمضمون ، وبدأ يتجول تحت المطر، وهو يفكر ويفكر .

لم يجر بينهما حديث حول زواج جديد ولكن راشيل كانت تتعاطف واياه منذ سنوات ولها وحدها فتح قلبه المغلق كل ذلك الوقت ، وكان يتحدث اليها حول تعاسته ، وكان يعرف تماما أنه لو كان حرا وطلبها للزواج لكانت ستوافق، وأخذ يفكر في المنزل الذي كان سيجمعه واياها بسعادة وفخر، وبأنه كان سيكون رجلا مختلفا ولاسيما بالسعادة التي كانت ستغمر صدره المثقل بالهموم .

فكر في ضياع أفضل مدة من حياته وفي التحول الذي يطرأ على شخصيته نحو الأسوأ كل يوم حول طبيعة وجوده التعسف بارتباطه بامرأة ميته وبالعذاب الذي يلاقيه من شكلها وتصرفاتها، ففكر في راشيل وفي شبابها عندما التقيا أول مرة في مثل هذه الظروف والام أصبحت الآن.. وفكر في العدد الكبير من الفتيات والنساء اللواتي تزوجن، وراشيل تراقبهن، كم من البيوت والأطفال في داخلها

شاهدتهم يكبرون حولها، وكيف تابعت بصمت مسيرتها الطويلة وحيدة
لأجله، وكيف كان يرى أحيانا مسحة من الحزن على وجهها المبارك .
وكان ذلك يملأه بالتعاسة واليأس .

وضع صورتها أمام الصورة المخزية التي رآها الليلة الماضية
وتساءل:

هل من المعقول أنّ شخصا جيدا لطيفا وناكرا لذاته يقهر
أمام شخص تعس ومحتقر .
عاد الى منزله وهو مليء بهذه الأفكار السوداء .

الفصل الثالث عشر راشيل

دخل ستيفن حزينا الى منزله بخطوات بطيئة، وكانت الغرفة
هادئة وساكنة وكانت راشيل هناك تجلس على السرير أدارت رأسها
وأضاء وجهها عتمة قلبه، وكانت تراقب زوجته وتعتني بها . فلقد
رأى شخصا ما يستلقي على السرير، وعلم أنه لابد أن تكون زوجته
ولكن يدي راشيل كانتا كالستارة . لذا لم يستطع رؤيتها . ثيابها
المقرفة كانت قد استبدلت بها ثياب أخرى تخص راشيل . كل شيء
كان في مكانه منظما، وكانت المدفأة الصغيرة مشتعلة، والأرض ممسوحة
منذ مدة قصيرة . بدا أنه رأى كل ذلك في وجه راشيل، ولم يكن
ينظر الى شيء سواها، كانت عيناه وعيناها مبللة بالدموع . نظرت
مرة أخرى الى السرير وتكلمت بصوت منخفض هادئ ومسرور:
أنا مسرورة يا ستيفن أنك أتيت أخيرا، فلقد تأخرت كثيرا .

كنت أتجول ذهابا وإيابا .

أجابها ستيفن .

اعتقدت ذلك ولكن الجو غير ملائم، فالأمطار تتساقط غزيرة

والهواء يصفر .

الهواء صحيح، كان يصفر بقوة ولكن لم أكن أشعر بشيء كهذا .

لقد حضرت الى هنا، ياستيفن، اليوم مرة قبل الآن، فصاحبة المنزل

حضرت الى عندي وقت الغداء وأخبرتني أنّ أحدا في هذه الغرفة

يحتاج الى رعاية وقد كانت محقة، فزوجتك كانت متعبة جدا وجريحة

أيضا أو مريضة .

تحرك ببطء وجلس على كرسي .

حضرت ياستيفن لأعمل ما يوسعي لأنني أولا كنت أنا وإياها

نعمل معا عندما كنا فتيات، ومن ثم تزوجتها أنت عندما كنت

أنا صديقتها .

وضع جبينه العابس بين يديه وصدره وأصدر تأوها خافتا . ثم

تابعت :

وثانيا لأنني أعرف قلبك، وأنا واثقة من أنك أرحم كثيرا

من أن تدعها تتعذب وهي محتاجة الى المساعدة . فأنت تعرف من

قال: (من منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر) . وأنت لست الرجل

الذي يرميها بآخر حجر ياستيفن، فهي في وضع تعس جدا .

آوه راشيل . راشيل . إذا كنت قد تعذبت بقسوة، فالسماء سوف

تكافئك .

قالت له راشيل بنبرة عاطفية :

وانا صديقتك بكل قلبي وعقلي.

انّ الجروح التي تحدثت عنها في عنق زوجة ستيفن اضطرتها الى
أن تصبّ بعض السائل من زجاجة برفق على الجرح. فقد كان يوجد
على الطاولة الموضوعة قرب السرير زجاجتان تلك كانت احدهما،
وبما أنّ ستيفن كان يتابع مات فعله يداها بعينه استطاع أن
يقرأ ما كتب على الزجاجة وشعر بخوف مفاجيء. قالت له راشيل :

سأبقى هنا يا ستيفن حتى الثالثة اذ يجب اعطاؤها من الزجاجة
نفسها الساعة الثالثة، ومن ثم يمكنني تركها حتى الصباح.

ولكن عليك يا عزيزتي أن تذهبي الى العمل صباحاً.

نمت جيداً البارحة وأستطيع الصحو لليال عدة أخرى، وأنت من
هو محتاج الى الراحة، فأنت شاحب ومتعب حاول النوم على ذلك
الكرسي بينما أراقبها أنا، فأنت كما أعتقد لم تنم البارحة وغدا
عملك أصعب من عملي .

سمع صوت البرق من الخارج وأحس بأن غضبه قد بدأ يتلاشى فقد
امتصت غضبه وهو واثق من أنها تستطيع حمايته من نفسه .

قالت له راشيل:

انها لم تعرفني يا ستيفن، كل مافي الأمر أنها حدثت بسبي
وتتمت بعض العبارات وتكلمت معها كثيراً، ولكنها لم تلاحظني،
وعندما تعود الى رشدها مرة أخرى فسوف أفعل ما بوسعي كي تبقى
على هذه الحال .

ياراشيلأ قال الطبيب : انها ربما تعود الى الوعي غداً.

صعدت عيناه الى الزجاجة ومرت رعشة بجسمه سببت رجفة في كل

أطرافه واعتقدت أنه يرتجف تحت وطأة البرد بسبب المطر .
وقال:

كلا لم يكن ذلك هو السبب .

فلقد كان خائفا .

نعم عندما كنت

أمشي وأفكر...

وقف وهو يمسك شعره بيده .

قالت له وهي تقترب منه :

ستيفن .

ولكنه مد يده لمنعها .

كلا أرجوك دعيني أرى قرب السرير دعيني أرى كم أنت جيدة
ومسامحة دعيني أرى وفق الوضع الذي رأيته فيك فيه عندما دخلت فلا
أستطيع أن أراك بوضع أفضل من ذلك أبدا .

ارتجف ارتجافا شديدا وغاص في كرسيه وبعد لحظة ضبط نفسه
وكوعه على ركبته، ويده على رأسه، واستطاع النظر الى راشيل ،
وكانت عيناه مبللتين، بينما بدت راشيل وكأنه شمة شعاع ممجد
حول رأسها، وكان يوء من أنها كذلك .

عندما تتحسن حالتها باستيفن يرجى أن تتركك وشأنك مسرة
ثانية، وآلا توء ذيك، هذا مانرجوه الآن. وسأصمت لأنني أريدك أن تنام
أغض عينيه وكان يود أن يرضيها أكثر من أن يريح رأسه
المتعب، ولكن وبعد أن كان يستمع الى صوت الريح كف من سماعه له
وبدأ. يتخيّل سماع صوت نوله، ويسمع أصواتا سمعها في الصباح، ومن

ثم استغرق في نوم عميق وحلم حلما طويلا مزعجا . حلم أنه وحده يحبها كثيرا، ولكنها ليست راشيل وهذا مافاجأه وهو واقف في الكنيسة يتزوج، وبينما كان الاحتفال قائما، وبينما تعرف بين الشهود على بعض من يعرفهم ممن لا يزالون على قيد الحياة وكثيرين غيرهم وهو على علم بأنهم متوفون ساد الظلام الكثيف وغطى على الضوء المبهر، ثم مالبت المشهد الذي أمامه أن تغير ولم يبق شيء سواه والكاهن، وقد وقفا في ضوء النهار أمام جمع ضخم فاذا ما تجتمع كل الناس في العالم معا فلن يكون عندهم أكثر من هذا الجمع وكانوا كلهم يكرهونه، ولم تكن هناك عين تنظر في وجهه بعطف وصدقة بين الملايين من المحترمين. وقف على منصة مرتفعة وكان نوله أمامه وهو ينظر الى الشكل الذي يأخذه النول، وكان يسمع لوازم الدفن وطقوسه تقرأ بهدوء، وكان يعلم أنهم يجرون طقوسا لدفنه وفجأة سقط ما كان يقف عليه واختفى تماما .

عاد الى حياته الطبيعية من حالة الغموض الى الأماكن التي يعرفها ويستطيع التركيز فيها، عاد الى تلك الأماكن التي عرفها سابقا متعجبا من غير أمل وهو يبحث عن شيء لا يعرف ماهو، وكان يمتلكه خوف كبير من نموذج معين، وكل ما كان ينظر اليه كان يرمز الى ذلك النموذج .

كانت الرياح تعصف ثانية، والمطر يهطل قويا، والمدفأة قد انطفأت، وبدأت راشيل وقد غفت على كرسي قرب السرير بهدوء تام، وكانت الطاولة مستقرة قرب السرير، خيل اليه أنه شاهد الشارة تتحرك

نطلع ثانية وتأكد من أنها تحركت وشاهد يدا تتقدم، والمرأة
لتي في السرير تجلس بعينيها القاسيتين والبشعيتين والواسعتين
تطلعت حول الغرفة ومرت من الزاوية التي ينام فيها على كرسي .
عاودت النظر تتطلع الى تلك الزاوية وتتأمل راشيل. انها زوجته
التي تزوجها منذ ثمانية عشر عاما، ولكنه لم يصدق قط أنها
المرأة نفسها .

كان وكأنه لعنة منصبة عليه كان من دون حركة ومن دون قوة
كان يراقبها فقط .

جلست بغباء ويدها على أذنيها وأول مرة تركزت عيناها
على الطاولة التي تحمل الزجاجتين أعادت النظر باتجاهه بالتحدي
نفسه الذي أبدته الليلة الماضية، وتحركت بحذر وهي تتساءل أية
واحدة من الزجاجتين تختار، وأخيرا وضعت قبضتها على الزجاجاة،
على الموت السريع، ومن الموءكد أن كل ذلك تم أمام ناظريه وقد
نزعت السدادة بأسنانها. أهذا حلم أم علم؟ لم يكن له قوة على
التركيز، فاذا كان هذا حقيقة فاستيقظي يا راشيل. نظرت الى
راشيل وبهدوء وحذر صبت من محتوى الزجاجاة، وكانت الجرعة على
شفتيها وفي اللحظة نفسها قفزت راشيل صارخة، قاومتها الزوجة،
فربتتها، وشدت شعرها، ولكن راشيل حصلت على الكأس . انتفض ستيفن
من كرسيه قائلا :

راشيل.. أنا مستيقظ أم أحلم .

في هذه الليلة المخيفة أجابته :

كل شيء على مايرام الآن. لقد نمت أنا أيضا ياستيفن ،

وقاربت الساعة الثالثة أنا أسمع الأجراس .

لقد أدى صوت الريح الى أن تسمع أصوات ساعة الكنيسة قسرب
النافذة .

نظر ستيفن اليها ورأى كم هي شاحبة، ولاحظ تبعثر شعرها
وعلامات الأصابع الحمر على جبينها، وتأكد تماما من أنه صاح فقد
كانت ماتزال تحمل الكأس في يدها حتى هذه اللحظة .

قالت وهي تسكب محتوى الكأس في حوض :

أعتقد أن الساعة الآن هي الثالثة . وأحمد الله أن بقيت حتى
الآن، وأفرغت محتوى الكأس كله ، انها تقول :

من الخطر ابقاء ولو القليل منه وكسرت الزجاجاة على الأرض ، لم
يعد هناك ماتفعله سوى أن تلف نفسها بشالها قبل خروجها فسي
الريح والمطر .

دعيني أمشي معك في مثل هذه الساعة ياراشيل .

كلا ياستيفن دقيقة واحدة وأكون في منزلي .

قال بصوت منخفض وهما يخرجان من الباب :

ألا تخافين أن تتركيني وحيدا . معها ؟ وبينما كانت تنظر

اليه قالت :

ستيفن ؟

ركع أمامها وقبل نهاية منديلها قائلا :

أنت ملاك الرب يباركك .

أنا كما قلت لك ياستيفن صديقتك المسكينة . فالملائكة ليسوا

مثلي . فبينهم وبين امرأة عاملة مثلي مليئة بالذنوب هنسأك

فجوة عميقة، ولعل أختي الصغيرة بينهم غير أنها تغيّرت . رفعت
عينها قليلا وهي تقول ذلك ثم أرختها وهي تنظر اليه بوداعة
وحنان.

فقال لها ستيفن:

أنت حولتني من سيء الى جيد، وجعلتني أشعر برغبة فسي أن
أصبح مثلك وأن أخاف أن أخسرك، فأنت ملاك لأنك أنقذت روحي، وهي
حيّة .

نظرت اليه وهو لا يزال راكعا ومنديلها في يده تابع قوله :
أتيت الى المنزل وأنا يائس من غير أمل، وكما قلت لك ،كنت
خائفا من زجاجة السم على الطاولة، فأنا لم أود أي مخلوق حي قط
ولكنها فكرة راودتني، كيف أعتبر عما كنت سأفعله لنفسي ولها .
وضعت يديها الاثنتين على فمه وكان وجهها خائفا، وكانت تريد
وقفه عن التكلم أكثر فأمسك بيديها قائلا :

ولكني رأيته ياراشيل جالسة عند السرير، وخلال نومي شعرت
أنك مازلت هناك، فلم أعد أفكر فيها إلا وأنت بقربها، ولم أعد
أفكر في أي شيء يغضبني.

قبل طرف منديلها مرة ثانية وتركها تذهب بعد أن قالت له
بصوت مكسور:

لتصبح على خير .

وخرجت الى الشارع . عصفت الريح وبدأ النهار يظهر بعد أن توقف
المطر . وقف برأس عار في الشارع، وهو يراقب اختفاءها السريع، وكما
النجوم المشعة كانت بالنسبة الى الشمعة في النافذة هكذا كانت

راشيل في مخيلة هذا الرجل وفي تجارب حياته .

الفصل الرابع عشر هارب من صنع العظم

على الرغم من مرور سنوات عدة إلا أنّ الوقت مايزال في بلدة
(كوك تاون) يسير رتيباً كالألة .

قال السيد غرند:

أصبحت لويزا امرأة صغيرة والوقت يمر، وأصبح توماس الصغير
أطول بنحو قدم عمّارأيته في المرة الأخيرة. إنّ توم أصبح رجلاً
صغيراً وقد حان الوقت لكي يعمل عند السيد باي .

بدأ العمل في بنك السيد باي وبعد أن اطمأن عليه السيد غرند
بدأ يفكر في موضوع سيسي فقال لها:

أخشى يا جوب ألا تكون ثمة جدوى من متابعتك في المدرسة أكثر
من ذلك .

أجابته سيسي، بانحناءة:

هذا ما أخشاه يا سيدي .

أجابها السيد غرند:

لا أستطيع أن أخفي عليك أنّ نتائج معدلك أصابتني بخيبة
أمل كبيرة، فأنت لم تستفيدي من أستاذ المدرسة، وزوجته المعرفة
الكافية التي تطلعت اليها، فأنت عاجزة عن الاستيعاب، بل لقد
عدت الى الوراء ونتائجك أقل من المعدل .

أجابته:

أنا آسفة ياسيدي ماتقوله صحيح، على الرغم من أنني حاولت بقوة .

فأجابها السيد غرند :

أنا أوأمّن أنك جربت بقوة ولاشك عندي في ذلك .

شكرا ياسيدي. ردت سيسي بهدوء .

وتابعت :

فكرت أحيانا في أنني ربما حاولت أن أتعلّم كثيرا ولكن لو حاولت بنسبة أقل ربما .

كلا كلا يا جواب - قال السيد غرند وهو يهز رأسه بأسلوب عميق ومدرّوس - لا أمل يرجى من ذلك أكثر، كل ما أستطيع افتراضه أنّ الظروف في حياتك المبكرة أدت الى هذا الأمر ويبدو أننا قد بدأنا متأخرين وكما سبق أن قلت لك فلقد أصبت بخيبة أمل .

كنت أود ياسيدي أن أبرهن على تقدم أفضل ولاسيما بمسند ما أبديت من لطف نحو فتاة مسكينة مثلي، وحمایتك لها .
لاتدرفي الدمع فأنا لا أتذمر منك فأنت امرأة صغيرة جدا، وعاطفية ويجب أن نستفيد من تلك الميّزات .

شكرا جزيلا ياسيدي .

وانحنت باحترام بالغ .

أنت مفيدة للسيدة غرند وللعائلة جميعها هذا مافهمته من لويزا وهذا ملاحظته بنفسي. ولذا أرجو أن تكوني سعيدة بعلاقاتك في هذا المنزل. لم أكن أتمنى شيئا ياسيدي لو ...

أنا أفهمك - قال السيد غرند - أنت مازلت تفكرين في والدك

وقد سمعت من لويزا أنك مازلت تحتفظين بالزجاجة .

حسنا لو نجحت بالوصول الى النتائج المحددة في العلوم لكنست أكثر فهما في هذه الأمور وأفضل، ولن أتكلم أكثر.

لقد كان يحب سيسي ويتعاطف وإياها، وقد ظهرت تغييرات على سيسي وتوم في سنة أو سنتين، بينما بدا السيد غرند ثابتا في موقعه من دون أي تغيير سوى أنه قد أصبح عضوا في البرلمان لبلدة (كوك تاون)، وكان أحد الأعضاء المحترمين. في كل هذه الأثناء كانت لويزا مازال هادئة في الموقع نفسه إلا أن والدها قال وهو مسرور:

لقد أصبحت امرأة شابة .

وبعد اكتشافه هذا بدا عليه طوال أيام عدة تفكير متواصل في موضوع واحد.

ففي إحدى الليالي وبينما كان خارجا، وكانت لويزا قد دخلت لتسلم عليه قبل مغادرته لأنه لن يعود الى البيت إلا متأخرا، ولن تراه ثانية حتى الصباح أمسك بها بين ذراعيه وتطلع اليها بلطف وقال :

عزيزتي لويزا، أنت امرأة .

أجابته وهي تنظر اليه النظرة القديمة السريعة الباحثة نفسها التي نظرت بها اليه عندما وجدها في السيرك ثم خفضت عينيها قائلة :

نعم يا والدي .

قال السيد غرند:

ياعزيزتي يجب أن أتكلم وإياك كلاما جادا ونحن منفردان
فتعالى غدا الى غرفتي بعد الافطار،أتستطيعين؟

نعم ياوالدي .

يداك باردتان يالويزا،ألست على مايرام؟

بل جيدة ياوالدي وفرحة .

نظرت مرة ثانية بطريققتها الغريبة وقالت :

أنا ياوالدي سعيدة شأني دوما بأن أكون كما كنت دائما .

قال السيد غرند:

هذا حسن .

قبلها وذهب ،وعادت الى ركنها المعهود قرب المدفأة .

هل أنت هناك يا لو؟

قال أخوها ذلك وهو ينظر عبر الباب ،انه شاب صغير الآن

ولكنه لم يكن خلابا . أجابته :

عزيزي توم .

ووقفت تقبله .

كم مرّ من الوقت منذ أن رأيتني آخر مرة .

أنت تعرفين يا لو أنني كنت مرتبطا في خلال الأمسيات ،وفي

النهار كنت منشغلا بالعمل مع باي،ولكن هل تحدّث والدي اليك فسي

موضوع معيّن اليوم أو البارحة يا لو؟

كلا بياتوم،ولكنه أخبرني الليلة أنه يود محادثتي غدا .

قال توم :

حسنا هو ماأعنيه .

هل تعلمين أين هو الليلة؟

كان توم يتكلم بتعبير عميق.

كلا .

اذن سوف أخبرك أنه مع باي العجوز فهما يتسامران معا في
المصرف الآن. هل تعلمين لماذا في المصرف؟ حسنا سوف أخبرك
ثانية لبقاء آذان السيدة سبارست بعيدة عن الموضوع قدر الامكان.
هذا ما أتوقعه .

كانت يداها على كتفي أخيها، وكانت لويزا ماتزال تنظر الى
المدفأة وكان أخوها يحدق في وجهها باهتمام أكبر من المعتاد،
ثم أحاط خصرها بذراعيه وقربها منه بتملق .
أنت تحبينني كثيرا يا لو أليس كذلك؟

بالطبع على الرغم من أنه يمضي وقت طويل من دون أن تأتي
لروء بيتي .

قال توم :

حسنا يا أختي، أنت قريبة من أفكاري ونستطيع أن نكون في
أكثر الأحيان معا أليس كذلك؟

وسوف يكون ذا فائدة كبيرة أن تتخذي قرارك حول موضوع
أعرفه جيدا وسيكون مهما جدا بالنسبة اليّ وذا قدرة كبيرة على
إسعادني .

لم يستطع ملاحظة شيء على وجهها، قبل وجنتيها فأعادت له
القبلة، وهي ماتزال تنظر الى المدفأة
لقد فكرت يا لو في أن آتي اليك وألمح لك بما يجري، وأعتقد

أنك حذرت ،فأنا لاأستطيع البقاء أكثر لأنني مرتبط ببعض

الأصدقاء الليلة ولكنك لن تنسي كم تحبينني .

كلا ياعزيزي توم لن أنسى .

الى اللقاء يا لويزا .

وودعته بحنان وخرجت معه الى الباب ووقفت تتطلع الى البلدة

وهي تستمع الى خطواته المغادرة .

الفصل الخامس عشر الأب وابنته

ان غرفة السيد غرند قاتمة وفيها ساعة متينة ساكنة تقيس

كل ثانية بخبطة وكأنك تضرب على غطاء كفن. حضرت لويزا فسي

الموعد المحدد صباحا وعندما جلست قرب طاولة والدها بقرب شباك

يطل على البلدة رأت المدافئ العالية يتصاعد منها الدخان الكثيف.

قال والدها:

عزيزتي لويزا أحضرتك البارحة من أجل اعطائي انتباهك

الجدي للمحادثة التي ستدور بيننا الآن. لقد تعلمت تعلما جيدا،

ويسعدني أن أقول انك لم تكوني مجحفة للمعرفة التي تلقيتها،

ولدي ثقة تامة بدوقك الجيد. فأنت لست رومنطقية أو انفعالية،

ولكنك معتادة على تقويم كل شيء استنادا الى المنطق والحساب .

وأنا أعلم أنك ستنظرين الى الموضوع الذي سأحدثك به من هذه

النقطة .

انتظر أن تقول شيئا ولكنها لم تتفوه بكلمة .

تابع السيد غرند

عزيزتي لويزا عرض علي موضوع يختص بزواجك ، وانتظر السيد مرة ثانية أن تجيب على كلامه لكنه لم يتلق أي رد منها وهذا ما أدهشه كثيرا، وأضطر الى أن يعيد برفق .

عرض زواج يا عزيزتي .

واستدارت من دون أن تبدي أية عاطفة مرثية .

أنا أسمع يا أبي وأؤكد لك أنني ممغية .

حسنا- قال السيد غرند- وهو يبتسم بعد أن كان منذ لحظة

تائها .

أنت لامبالية أكثر مما توقعت يا لويزا أو ربما أنك غير مهياة للاعلان الذي سأقوله . انني لا أستطيع أن أقول شيئا قبل أن أعرف أمستعدة أم غير مستعدة أنت لبحث ذلك .

أود سماع كل شيء منك يا والدي . من السمغرب أنّ السيد غرند لم يكن مستجمعا قواه في تلك اللحظة كما كانت ابنته ، فقد أخذ قطعة ورق بيده ، قلبها وضعها على الطاولة ، ثم أخذها ثانية وهو حائر كيف يكمل حديثه .

ماتقولينه يا عزيزتي لويزا منطقي جدا وسأقول لك مختصرا أنّ السيد باي أخبرني أنه منذ زمن بعيد كان يراقب تطـورك باهتمام خاص ، وسعادة ، وكان يأمل في أنّ الوقت المناسب يحييـن لطلب يدك للزواج . هذا الوقت الذي كان ينتظره منذ زمن ، انتظارا ثابتا قد حان وقد طلب اليّ أن أعرض الموضوع عليك وهو يرجو أن تأخذه بالحسبان والاهتمام .

ساد الصمت بينهما بينما كانت الساعة تدق بثبات وكانست

المسافة بينهما سوداء وثقيلة . قالت لويزا :

أبي هل تظن أنني أحب السيد باي؟

فوجئ السيد غرند بهذا سوء ال غير المتوقع .

حسنا ياطفلي أنا في الحقيقة لاأستطيع أن أقول .

تابعت لويزا باللهجة نفسها التي بدأت بها .

أبي هل تطلب إلي أن أحب السيد باي؟

عزيزتي لويزا كلا أنا لاأطلب شيئاً .

فردت لويزا قائلة :

أبي هل طلب السيد باي إلي أن أحبه؟

من المعوبة في الحقيقة ياعزيزتي الجواب عن سوء الك بنعم

أو لا .

أبي ...

بالطبع ياعزيزتي لأنه هنا يوجد شيء يجب توضيحه فالاجابة

تعتمد على الاحساس الذي نستخدمه في التعبير، فالسيد باي لميجحف

بحقك أو بحق نفسه بالتظاهر بأي شيء وهمي أو خيالي أو عاطفي،

فقد رآك تكبرين أمام عينيه، وهو لا يستطيع أن ينس منسباك

الطيب . ولذا فإن سوء الك الأخير أعتقد أنه في غير محله .

اذن يناوالدي بم تنصني بقوله عوضاً عن ذلك ؟

قال السيد غرند وقد استعاد هدوءه :

في هذا الوقت أنصحك (بما أنك سألتني) أن تعدي سوء الـ هذا

كما اعتدت أن تعدي أي سوء ال آخر احدى الحقائق المدروسة .

فالناس الجهلة يأخذون موضوعات كهذه بأوهام غير مقبولة ،
وبسخافات لا وجود لها، وأنا لأجاملك عندما أقول انك تعرفين
أكثر والآن ماحقائق هذه القضية ؟ أنت في العشرين من العمر والسيد
باي في الخمسين من عمره ،هناك بعض التفاوت بينكما ولكن
أسلوبيكما متشابهان ومركزيكما متقاربان، بل على العكس هناك
تناسب كبير بينكما وهنا يبرز سوء ال: هل يكفي تفاوت واحد
لوضع حاجز أمام زواج كهذا؟ وبأخذ هذا سوء ال بالحسبان أرى أنّ
أكثر حالات الزواج التي حدثت في العالم نجحت على الرغم من تفاوت
السن .

كل ما أريده منك هو أن تركزي على حقيقة هل السيد باي قد
طلبني للزواج؟ نعم لقد فعل وما تبقى هو سوء ال الآتي : هل
سأتزوجه؟ وأظن أنه لاشيء أسهل من ذلك .

أعادت لويزا برزانة عميقة :

هل أتزوجه؟

يسعدني ألا تفكري بالطريقة نفسها التي تفكر بها الكثير من

الشابات . أجابته :

لا يا أبي أنا لا أفعل ذلك .

والآن أتركك لتأخذي القرار بنفسك . لقد وضحت لك الموضوع
كما تمّ توضيح موضوع والدتك وموضوعي عندما كنّا شابين، أما ما
تبقى ياعزيزتي فيعود أمر اتخاذ قرار فيه اليك .

منذ البداية كانت تجلس وتتطلع اليه بثبات ،وعندما استقرّ
على كرسيه ناظرا اليها، كان يمكنه أن يرى مقدار قلقها،

ومدى رغبتها في أن ترمي بنفسها على صدره، وأن تكاشفـــــــــــــــــــــــــه
بمكنونات قلبها، ولكن حتى يرى ذلك كان عليه أن يزيل الحواجز
الصناعية التي وضعها طوال سنوات عدة بينه وبين أولاده، وبوجهه
غير المعبر أعادها الى الواقع، واللحظة أعادتها الى الماضي لكي
تختلط بكل الفرص الضائعة الخارقة هناك .

أزاحت عينيها عنه وجلست مدة طويلة صامتة، تنظر نحو
البلدة حتى قال لها:

هل تستشعرين بمدافئ المدينة يا لويزا؟

جاوبته بسرعة:

لا يوجد شيء هناك سوى الدخان ولكن عند حلول الظلام تبدأ النار
تشتعل يا أبي. أبي كنت أفكر كيف أنّ الحياة قصيرة جداً. أجابها:
إنها قصيرة من دون شك يا عزيزتي ولكن المعدل العمري لحياة
الإنسان أثبت ازدياداً في السنوات الماضية .

ردت عليه بقولها:

ولكني أتكلم على حياتي أنا يا والدي.

أوه بالتأكيد؟

قال السيد غرند:

مهما يكن من أمر فأنا لأرى حاجة الى اخبارك بأنّ هناك
قوانين تحكم الحياة اجمالاً. أجابته:

مادامت أنها تنتهي أخيراً فأنا أفعل ما أستطيع وما يناسبني.
ماذا يهم.

بدأ على السيد غرند وكأنه لم يفهم الكلمات الأخيرة فقال:

ماذا يهم كيف ياعزيزتي؟

تابعت بطريقة ثابتة السيد باي طلبني للزواج والسوء ال الذي
يجب أن أسأل نفسي اياه . هل أتزوجه ؟ أليس كذلك ياواليدي؟ فأنت
من قلت لي ذلك. ألم تقل لي بالطبع ياعزيزتي اذن أنا موافقة
على طلبه فقل له متى أحببت أن هذا جوابي، وأعد عليه قرار
كلمة كلمة اذا استطعت لأنني أتمنى أن يعرف ماقلته .

أجابها والدها:

انّ نقطة الصواب ياعزيزتي دقيقة وسوف أجيبك على طلبك
هذا . هل لديك أي طلب بالنسبة الى موعد الزواج يا طفليتي؟
كلا ياواليدي فليس ثمة شيء يهم .

أخذ والدها بعد أن اقترب بكرسيه منها ولكن اعادتها هذه
الكلمات بدت وكأنها على نزاع مع أذنه ونظر اليها وقال:
من اللائق أن أسألك سوءا لا معينا، ولعله يجب عليّ فعل ذلك
ألم تتلقي بالسر عرضا آخر للزواج؟ أجابته باحتقار:
أبي أي عرض آخر كان بالامكان تقديمه لي؟ فمن الذي أراه ؟
وأين كنت أذهب ؟ وما التحارب التي مرّ بها قلبي؟
أجابها والدها وهو مسرور:

عزيزتي لويزا لقد طمأننتني فقد كنت أتمنى أن أكمل واجبي .
ماذا أعرف ياواليدي؟ .

— قالت لويزا بهدوء — عن الذوق والخيال عن الوحي والعاطفة ،
أو ماذا أعرف عن ذلك الجزء من طبيعتي التي كان يمكنها أن تغذي
بها تلك الأشياء المغيرة؟ ما الملجأ الذي ذهبت اليه من المشكلات

والحقائق ؟

وبينما كانت تقول ذلك أغلقت يدها من دون وعي، وكأنها
تمسك بشيء صلب ومن ثم فتحتها وكأنها تلقي ببعض الغبار.

أجابها والدها:

هذا صحيح، صحيح يا عزيزتي.

تابعت :

ويا للغرابة في آن تسألني. إن مرحلة الطفولة نفسها لم يكن
لها المكان البريء والمريح في صدري فقد اهتممت بي كثيرا حتى
أنني لم أكن أحمل قلب طفلة . علمتني جيدا حتى أنني لم أكن
أحلم حلم طفل . عاملتني بعوي كلي يا والدي منذ ولادتي، حتى
ساعتنا هذه حتى أنني أيضا لم أحس بخوف في طفولتي . قال
السيد غرند وهو سعيد جدا بنجاحه وبهذه الشهادة:

عزيزتي لويزالقد كافأت عنايتي فقبليني يا عزيزتي. قبلته
ابنته وقال لها:

أوكد لك الآن ياطفتي أنني مسرور بالقرار الصائب الذي
توصلت إليه، فالسيد باي مميّز والتفاوت البسيط الموجود بينكما إذا
كان يوجد تفاوت أصلا فلن يشغل عائقا أمام عقلك الذكي، لقد كان
هدفنا دائما أن أعلمك أن تكوني على الرغم من صغر سنك قسادة
على التكيف مع أي عمر، قبليني مرة أخرى يا لويزا، ودعينا نذهب
لروية والدتك .

ذهبا إلى غرفة الجلوس حيث كانت السيدة مستلقية كعادتها
وسيسي تعمل بجانبها، انتعشت قليلا عند دخولهما وجلست قليلا .

قال زوجها:

السيدة غرند دعيني أقدم لك السيدة باي .

قالت السيدة :

اذن سويسست الأمر حسنا أتمنى أن تكون صحتك جيدة .
فإذا بدا رأسك ينشق عندما تتزوجين كما حصل معي فلن أستطيع
الاعتقاد بأنك ستكونين محسودة.. ومهما يكن من أمر فأنا أتمنى
لك السعادة وأتمنى أن تطبقي الدروس التي تعلمتها، يجب أن أقبلك
قبلة التهئة يالويزا، ولكن لاتلمسي كتفي في الطرف الأيمن لأنه
يوءلمني. والآن سوف أفكر صباحا وظهرا ومساءً لأقرر مايمكنني
أن أناديك به ؟

قال لها زوجها بوقار:

ماذا تعنين ياسيدة غرند؟

أعني ماذا سأنادي السيد باي عندما يتزوج ابنتي، فلن
أستطيع تسميته باسمه المجرد، لأن ذلك لايطاق بالنسبة اليّ ولن
أستطيع أن أناديه صهري اذن بماذا سأناديه ؟ انّ العلاقة بين
لويزا ووالدتها لم تكن متقاربة والثقة لم تكن متبادلة
عندما قدم السيد غرند السيدة باي أدارت سيسي وجهها فجأة
وتطلعت بتعجب وبشفقة وحزن وبشك وبحشد من العواطف نحو لويزا،
وقد شاهدت لويزا ذلك وأحست به من دون أن تنظر الى سيسي ومنذ
تلك اللحظة أصبحت متكبرة لاحساس لديها، وباردة دائما، تبقي
مسافة بينها وبين سيسي، وتغيّرت من ثم ازاءها كثيرا .

الفصل العشرون زوج وزوجته

اضطرب السيد لدى سماعه الموافقة، وكان لابد له أن يعتبر عن سعادته للسيدة سبارست، ولكنه لم يقرر الخطوات التي يجب اتباعها، وماذا سيكون رد فعلها أتراها ستفادر راحلة الى عمتها، أم سترفض مغادرة المنزل؟ هل ستكون حزينة أو تنصرف انصرافا سيئا؟ هل ستبكي أو ستمزق ثيابها؟ هل ستكسر قلبها أو تكسر نظاراتها؟ لم يستطع السيد باي أن يخمن أي شيء ولكنه لم يكن له خيار في اخبارها أي شيء، لذا وبعد أن كتب رسائل عدة وأخفق في إيصال ما يريد قرّر اخبارها وهو يواجهها .

في طريق عودته الى المنزل مساء دخل الى صيدلية واشترى زجاجة للعطس، قوية التأثير وقال السيد باي: اذا علمت الخبر وأغمي عليها فسوف أضع هذا الدواء على أنفها ثم دخل الى منزله وبدا كأنه كلب قادم توا من مخزن المؤن .

مساء الخير ياسيد باي، مساء الخير ياسيدتي.

واقترب بكرسيه من المدفأة فأرجعت السيدة سبارست كرسيها وكأنها تقول : اقترب الى مدفآتك ياسيدي. فأنا أعترف أنك أحق باستعمالها .

قال لها السيد باي:

لاتذهبي الى القطب الشمالي ياسيدتي (أي لاتبتعدي كثيرا) .

أجابت السيدة سبارست :

شكرا لك ياسيدي .

وعادت الى وضعها السابق. نظر اليها السيد باي وهي تشتغل بالحياكة، وكانت مشغولة جدا اذ مرت بفع دقائق قبل أن تتسرك عملها، وعندما فعلت ذلك لفت السيد باي انتباهها بهزة من رأسه . قال السيد باي وهو يضع يديه في جيبه وهو يؤكد لنفسه أن الزجاجة التي يحملها أصبحت جاهزة للاستعمال. السيدة سبارست لم تتح لي الفرصة بأن أقول لك: انك سيدة ذات منشأ راق ولكنك أيضا امرأة عاقلة. أجابته السيدة: سيدي هذه ليست المرة الأولى التي تشرفني فيها بتعبيرات مشابهة رأيك الصائب ...

سيدتي سوف أفاجئك .

أجابته متسائلة: نعم ياسيدي ؟

قال: سوف أتزوج ابنة السيد غرند.

أتمنى أن تكون سعيدا ياسيد باي .

قالت ذلك بلطف كبير وبعاطفة قوية تجاهه مما أربكه أكثر مما لو أنها رمت صندوق الخياطة على المرأة، فمن كان يتصور أنها ستتلقى الأمر بهذه الطريقة .

أضافت السيدة سبارست بروح عالية:

أتمنى لك السعادة من كل قلبي على جميع المهد .

حسنا ياسيدتي.

أجابها باي وبلهجة مستاءة قليلا:

أنا محتاج اليك .

صحيح ياسيدي ، قالت ذلك بلطف كبير .

ولكن من الطبيعي أن تحتاج إليّ. قالت ذلك وهي تتابع عملها .
تابع باي يقول:

حسنًا ياسيدي وبسبب هذه الظروف أتصوّر أنه ليس من اللائق
لشخص مثلك أن يبقى هنا رغم أنك على الرحب والسعة هنا .
أوه كلا ياسيدي أنا لم أفكر في ذلك .

قالت ذلك بالروح العالية بنفسها، مهما يكن من أمر ياسيدي...
ثم عرض السيد باي عليها أن تسكن في شقة فوق المصرف الذي يملكه
وتكون مشرفة على المصرف، وأيقنت السيدة سبارست أنه يفعل ذلك
فقط بسبب عملها السابق معه، وعلى الرغم من أنها استاءت من الأمر
ولكنها وافقت بعد أن وعدها بأن يوفّر لها خادمة تعنى بها
ويوفّر لها متطلباتها .

حدّد الزواج بعد ثمانية أسابيع وكان السيد باي يذهب كل
يوم إلى (ستون لودج) وبدأ يقدم الأساور، وفعلت الثياب وجهزت
لوازم العرس .

كانت عملية الزواج تلك حقيقة من البداية حتى النهاية، لم
تمر الساعات مروراً دورياً كما كان الشعراء الأغبياء يصورون تلك
الساعات، ولم تمر أسرع من الفصول الباقية أو أبطأ وأتى اليوم
المحدد. كالأيام الأخرى الملتصقة بالواقع، وتمّ زواج السيد باي من
الآنسة لويزا الابنة الكبرى للسيد غرند وأقيمت حفلة الزفاف، وبعد
الافطار الذي تناوله العروسان في بيت العروس قام العريس والقيس
الكلمة الآتية :

أيها السيدات والسادة :

أنا جوزيه باوندر باي من كوك تاون، بما أنكم شرفتموني
وزوجتي بشرف شرب نخب صحتنا وسعادتنا، عليّ أن أعترف بأنكم
مادمتم تعرفونني وتعرفون من أنا وما أصلي، فإن صديقي وحمائي
السيد غرند هو عضو في البرلمان، ووجودي الآن يعكس أنني لم أكن
أتموّر أن أتزوج ابنة السيد غرند عندما كنت صبي شوارع، لم يكن
يفصل وجهه سوى مرة واحدة، وأنا سعيد جدا الآن لحدوث هذا الزواج
فقد كان أمنيتي منذ زمن طويل . لقد راقبتها وهي تكبر، فهي
تستحقني وفي الوقت نفسه أنا أستحقها، لذا أشكر لكم نيابة عنا
على النية السيئة التي أظهرتموها لنا وأتمنى أن يجد كل عـزب
امرأة جيدة، كما وجدت، وأتمنى لكل عـزبة أن تجد زوجا جيدا كما
وجدت لويزا .

وبينما كانت العروس تستعد للسفر وجدت أخاها ينتظرها خجلا
من شعوره، فعانقته وكانت قلقة أول مرة في تلك الليلة، فقال
لها باي العجوز: جاهز والوقت قد حان فالى اللقاء وسأكون بانتظارك
عند عودتك ، أليس كل شيء سعيدا الآن؟.

الحصيلة

لقد زرع السيد باي عدم انسانيته وجفافه، وحصد زواجا غير سعيد، وخسر زوجته . انّ زراعة السيد غرند للمنطق والحقيقة أدت الى وهم كبير ودمار . وحصدت لويزا ببذور الحقيقة والواقع التعاسة أما توم فقد كانت بذور الأثرة بالنسبة اليه قادرة على انتاج محصول الوحدة والدمار وأما ستيفن فقد زرع بذور عدم الرضى ، وكان أن نبذه رفاقه العمال . الجميع حصدوا محصول أعمالهم الخاصة .

الفصل الأول تأثيرات في المصرف

كان يوما من أيام الصيف الحارة، وكانت بلدة (كوك تاون) تبدو في يوم كهذا مغطاة بضباب كثيف، لا يتأثر بأشعة الشمس، وكان الدخان يتصاعد باتجاه السماء وكانت ليلة حارة جدا، فالشوارع ساخنة ومليئة بالغبار .

جلست السيدة سبارست في شقتها فوق المصرف، على الجانب المطل على الشارع الحار، كانت ساعات العمل قد انتهت، وفي تلك اللحظة من النهار، وعندما يكون الطقس دافئا، كانت تجلس في غرفة الجلوس قرب النافذة، وفي هذا المكان كانت تحيي السيد باي عندما يعبر الشارع تحية تنم على شفقة، اذ كانت تعده ضحية . كان قد مضى على

زواجه حوالي السنة، ولم تكف السيدة سبارست ولو للحظة عن الشفقة عليه . وكان شكل المصرف يشبه شكل منزل السيد باي الموصوف سابقا، ولكنه أكبر قليلا، وكانت السيدة سبارست تقوم بجولة مساءً، على محتويات المصرف فقد كانت تعد نفسها حارسة المصرف، وكان السكان يعدونها العين الحارسة على الكنوز الموجودة . فما هذه الكنسوز ؟ كانت معرفتها تتعدى معرفتهم البسيطة، فقد كان يوجد سبائك فضية وذهبية وأوراق قيّمة وأسرار اذا ما أفشاها أحد فسوف تقود الى دمار مبهم يمس أشخاصا مبهمين . فضلا عن ذلك فقد كانت تعلم أنها، وبعد ساعات العمل، هي التي تسيطر على مفروشات المصرف وعلى خزائنه المغلقة بقفل حديدي، حيث ينام البواب كل يوم وكانت تشرف أيضا على سراديب عدة في الباحة تضم كثيرا من الأشياء المرتبطة بعمل المصرف . كان يتم سلطنتها خادمة طرشاء، وبواب خفيف الظل وكان يشاع أنّ هذه الخادمة كانت تملك ثروة لا بأس بها، وأنها في يوم ما سوف تقتل عند اغلاق المصرف بسبب مالها .

أحضر البواب صينية الشاي للسيدة سبارست فقالت له :

شكرا لك يا بيتزر .

أجابها البواب :

أشكرك يا سيدتي .

وكان بوابا خفيف الظل كما بدا عندما عرف الحصان بدلا من

الفتاة رقم ٢٠ . سألته السيدة :

هل كل شيء مغلق يا بيتزر؟

نعم كل شيء يا سيدتي .

ومسما الأخبار اليوم؟

حسننا ياسيدتي لم أسمع شيئا معينا. فالجماعة عندنا سيئون
ولكن مايوسف له أن هذه ليست أخبارا جديدة .

سألته السيدة سبارست :

وماذا يفعل العمال البائسون والمتوترون الآن؟
انهم ياسيدتي يتحدثون ويتحالفون ويتعهدون بأن يقفوا في
صف واحد.

ردت السيدة سبارست بقسوة :

ان مايو لم أن يسكت السادة. عن تحالفات كهذه .
نعم ياسيدتي .
قالت السيدة :

على السادة أن يتحالفوا ضد أي رجل يتحد مع رجل آخر .
أجابها بيتزر :

لقد فعلوا ذلك ياسيدتي ولكن من دون فائدة .
هنا قالت السيدة سبارست بكبرياء :

أنا لا أظهار بأنني أفهم في هذه الأشياء، فأجوابي كانت
مختلفة، أما السيد سبارست فلأنه من عائلة (باولر) فهو بعيد عن
هذه النزاعات، وكل ما أعرفه هو وجوب القضاء الى الأبد على هذه
الجماعة الآن .

نعم ياسيدتي .

أجابها بيتزر باحترام بالغ .

وكان بيتزر معتادا كل يوم أن يتحدث الى السيدة سبارست في

مثل هذا الوقت وقد لاحظ أنها تريد أن تسأله شيئاً، فتظاهر أنه
يرقب الطاولة التي أمامه بينما تابعت السيدة شرب الشاي، وهي
تنظر عبر النافذة الى الشارع. سألتها السيدة:

هل كان يوماً شاقاً يا بيتزر؟

كلا ياسيديتي ليس كثيراً.

وكان بيتزر بين الفينة والأخرى يناديها " سيدتي " عوضاً
عن " أيتها السيدة تأكيداً منه على كبريائها وتقديره لها.
سألتها وهي تقضم قطعة من الخبز مغطاة بالزبدة:

وماذا عن المحاسبين هل يعملون باستقامة ودقة؟

نعم أيتها السيدة، انهم ملتزمون تماماً.

كان بيتزر يعمل جاسوساً ومخبراً في المصرف، وكان يتلقى
نتيجة خدماته تلك هدية في عيد الميلاد تفوق راتبه الأسبوعي
وقد أصبح ذهنه متوقداً وأصبح شاباً حذراً وكتوماً. كان عقله
منظماً بدقة ولا مكان فيه للعواطف والأحاسيس، وكل إرادته كانت
نتيجة حساباته الباردة والمدروسة ولم يكن رأي السيدة سبارسبت
يقرّ بأنه شاب ذو مبادئ ثابتة من دون مسوغ لذلك .

تابع بيتزر حديثه بقوله:

السيد توم أيتها السيدة لأحب طريقتك أبداً.

هنا قالت السيدة بلهجة مؤثرة:

أنا لم أذكر أسماء خلال حديثي معك، أليس كذلك؟

أنا أعتذر أيتها السيدة، فالحقيقة أنك أعرضت عن ذكر أي اسم

وتجنبت ذلك تماماً .

فردت السيدة :

أرجو أن تتذكر أنني محل ثقة هنا يابيتزر لدى السيد باي،
وأنا أكنّ له كل احترام لأنه مسؤول عني، ويقدم لي راتباً
سنوياً، وهو يكنّ كل تقدير لي ولعائلتي المنحدرة من أصل محترم،
وأنا لأستطيع أن أسمح بذكر أسماء تكون ذات صلة بالسيد بساي
تحت سقفنا . اعتذر يابيتزر للمرة الثانية .

وتابعت السيدة تقول :

عندما نريد التحدث عن شخص ما فسوف أسمعك ، أما أن تذكر
السيد توم فأرجو المعذرة .

تابع الحديث فقال بيتزر:

شخص ما أيتها السيدة لم يعد كما كان عندما أتى في المرة
الأولى الى المكان، فقد انغمس في الملذات وأصبح كسولاً ومسرّفاً وهو
لا يستحق ما يأخذه، ولم يكن ليحمل عليه لو لم يكن له صديق
وقريب يعينه .

تأوهت السيدة. وهزت رأسها بحزن .

وتابع بيتزر القول :

كل ما أتمناه أيتها السيدة ألا يزوده قريبه هذا بالوسائل
التي تشجعه على المتابعة فنحن نعلم من أي جيب تخرج هذه النقود،
انه يدعو الى الشفقة ياسيدتي، أجل فأنا دائماً أشفق على هذه
النوعية المفرورة .

تابع بيتزر وهو يقترب منها ويخفض صوته :

أما بالنسبة الى الفرد فهو مغامر كغيره من المغامرين فسي

هذه البلدة، وأنت تعرفين نوع مغامراتهم أيتها السيدة .

سوف يتحسنون يابيتزر اذا اتخذوا منك مثالا .

شكرا ياسيديتي، وبما أنك أشرت إليّ فأرجو أن تنظري نحوي،
فإن الهبة التي أحصل عليها في عيد الميلاد لا أتصرف بها أبدا،
ولكنني أضيفها الى رصيدي فلماذا لا يفعلون مثلي، فما يستطيعه
شخص يستطيع شخص آخر فعله . قصة أخرى أيضا كانت من ضمن قصص
بلدة (كوك تاون) فكل رأسمالي عنده ستون ألف ليرة حصل عليها من
رأسمال بسيط لا يتعدى القروش الستة دائما يعجب لما لا يستطيع أي
عامل الوصول الى ما وصل اليه، فما أستطيع فعله لماذا لا تذهب أنت
وتفعله .

قال بيتزر :

انهم يريدون اللهو غير المجدي وأنا لا أريد ذلك، وأنا لا أحبهم
على الرغم من أنهم مجموعة كبيرة، ويستطيعون تحسين وضعهم لو
أرادوا ذلك، فهذا هو الاهتمام الأول لكي يصبحوا مخلوقات منطقية
وهذا ما يتظاهرون أنهم يريدونه .

أجابت السيدة :

انهم يتظاهرون بالفعل .

قال بيتزر:

وهذا الأمر يتضمن عائلاتهم وزوجاتهم، بينما أنا لا أريد زوجة

أو عائلة فلماذا هم خلاف ذلك ؟

الأنهم مغامرون ؟

أجابته السيدة :

نعم ياسيدي، فإذا كانوا أكثر تعقلاً وأقل عناداً، فسوف يقولون مادامت قبعتي تغطي عائلتي، حقاً لديّ شخص فقط لاطعامه وهو الذي أحبه أكثر من غيره .

وافقته السيدة على قوله هذا .

أشكرك ياسيدي وهل تودين أن أحضر لك أي شيء الآن؟

كلا يابيتزر .

فأجابها بيتزر:

لم أكن أحب أن أزعجك أيتها السيدة وأنت تأخذين الشاي .

قال ذلك وهو يمد رأسه لينظر إلى الشارع .

ولكن هناك سيدا ينظر إلى ناحيتنا منذ برهة أيتها السيدة

وتقدم منا وكأنه سيقرع الباب، هاهو ذا الباب يقرع هل تودين

ادخاله أيتها السيدة؟

قالت السيدة وهي تجفف فمها:

أنا لا أعرف من يكون .

من المؤكد ياسيدي أنه غريب .

أجابته :

وماذا يريد شخص غريب من المصرف مساءً إلا إذا كان لديه

عمل مهم، ولكنني أحمل أمانة في هذه المؤسسة، ولن أحيد عنها،

وإذا كان ما يريد من ضمن عملي فسوف أراه، لك حرية التصرف

يابيتزر .

أعيد القرع على الباب بصوت مرتفع فأسرع بيتزر يفتح الباب،

بينما رتبت السيدة الطاولة، ومهدت إلى الطابق العلوي حتى إذا

مانزلت كانت بكبريائها كاملة .

قال لها بيتزر:

السيد بيود مقابلتك ياسيدتي.

فنزلت مرة ثانية، ودخلت وكأنها رئيسة ممرضات ترافق قائد جيوش منتصرا . لم يتأثر السيد الذي كان واقفا قرب النافذة بهذا الدخول .

بقي واقفا ببرود وقبعته على رأسه، والارهاق باد عليه من الطقس الحار، لقد كان سيدا بكل معنى الكلمة .

قالت السيدة :

أعتقد أنك تريد رؤيتي أيها السيد .

نعم أيتها السيدة أرجو المعذرة . دار في خلد السيدة وهي تنحني قليلا، خمس وثلاثون سنة، حسن المظهر، شكله جميل، أسنانه منتظمة وكذلك صوته، ولباسه جيد، وشعره غامق وعيناه شجاعتان ، كل ذلك لاحظته السيدة من حيث هي امرأة .

أرجو أن تجلس أيها السيد .

أشكرك ولكن اسمحي لي.

قال هذا وهو يقرب لها الكرسي، وبقي متكئا على الطاولة .
لقد تركت خادمي في المحطة يحضر الحقائق، فالقطار كان قديما والمكان غريبا، هل تسمحين لي بأن أسألك اذا ما كان دائما أسود هكذا؟

انه في العادة أكثر سوادا .

أجابت السيدة بصلابتها المعهودة، أعتقد ياسيدي أنك لست من

هذه البلدة؟

كلا من حسن حظي أو سوءه .

قبل أن أصبح أرملة انتقلت الى مكان مختلف تماما . فزوجي

كان من (باولر) .

صحيح؟

قال السيد .

نعم من عائلة باولر .

هنا بدا على السيد الغريب التعب .

من المؤكد أنك تشعرين بالملل هنا؟

أجابته :

أنا خادمة الظروف أيها السيد وقد عودت نفسي على الظروف

التي تحكم حياتي .

أجابها :

كلام فيه الكثير من الفلسفة، وهو كلام مثالي وصحي .

وكان يتكلم وهو يعبث بسلسال ساعته .

سألت السيدة :

بماذا أستطيع أن أخدمك؟

أجابها :

أنا أحمل رسالة للسيد باي . وبينما كان العمال يحضرون

العشاء في الفندق سألت أحدهم عن مقر السيد باي، فدلني على هذا

المكان ولا أظن أنّ السيد يقيم في هذا البناء الفخم .

كلا ياسيدي .

أجابها :

أشكرك فأنا لا أنوي تسليم الرسالة الآن، ولكنني مررت لقتسل الوقت ، ويسعدني أنني تعرّفت بسيدة ذات مستوى راق .
كان يتصرّف ببلادة وعدم اكتراث ، وكان يحدثها وهو منحمن نحوها قليلا، وكأنه منجذب بسحر اليها وهو يقول :
الكتاب الذي أحمله هو توصية من السيد غرند الذي تشرفت بمعرفته في لندن.

وأعطته السيدة سبارست العنوان فرد عليها شاكرًا وقال:
بالطبع أنت تعرفين صاحب المصرف جيدا .
نعم عرفته منذ عشر سنوات .
أعتقد أنه تزوج ابنة السيد غرند؟
نعم .

أجابته وهي تزم شفتيها . كان له شرف ذلك .
سألها : قيل لي انها فليسوفة ؟
أجابته السيدة سبارست :
هل هي كذلك ؟

تابع الغريب اعذري تطفلي، ولكنك تعرفين هذه العائلة ،
وتعرفين كيف تمر الحياة وسوف أتعرّف على هذه العائلة ، ولربما
كان لي معها شأن . هل السيدة باي كثيرة التعجرف ؟ فلقد أعطاهما
والدها سمعة أنها ذات عناد في رأيها، ولي رغبة حارة فسي
معرفتها .

هي هي بالفعل ذكية ؟

ولكنني أرى من خلال ابتسامتك أنك لاتعتقدين ذلك ،ولقد
صبت بلسما على روعي القلقة . أما بالنسبة الى عمرها الآن فهل
هي في الأربعين أم في الخامسة والثلاثين؟

ضحكت السيدة سبارست وهي تقول:

لم تتجاوز العشرين عندما تزوجت .

أجابها الغريب وهو يقفز:

انني لم أفاجأ في حياتي كما أفاجأ الآن وأقسم لك ياسيدة
باولر على ذلك . وبدا عليه بالفعل الانفعال، وأكد للسيدة أنّ
السيد غرند قد هيا لمقابلة انسانة جامدة، وناضجة نضج غابة وأنا
أشكرك لأنك وضحت لي غلطة كهذه شكرا كثيرا، وأرجو المعذرة على
تفلي، والى اللقاء .

وبعد خروجه سألت السيدة سبارست بيتزر:

مارأيك بالسيد الغريب ؟

انه من النوع الذي ينفق الكثير على ملابسه ياسيدتي.

فردت السيدة :

ولكن علينا الآن الاعتراف بأنه ذو ذوق رفيع .

أجابها :

نعم مادام الموضوع مرتبطا بالمال،ولكن يبدو لي أنه من

النوع المقامر .

أجابته السيدة :

من غير الأخلاق المقامرة .

الفرص تكون دائما ضد المقامر . اذا ما كان الطقس حارا أو كان
التهب مرهقا .

لم تستطع السيدة سبارست العمل تلك الأمسية ، وجلست قسرب
النافذة عندما بدأت الشمس تغرب خلف الدخان ، من دون اشعال أية
شمعة في الغرفة ، ولم تكن تفكر كثيرا في أصوات المساء ، ونبساح
الكلاب ، وأصوات العجلات ، وخطوات المارة ، وصياح الأطفال ، واغلاق أبواب
المحلات ، ولم تفق من حالتها هذه إلا على صوت بيتزر يعلن لها أن
موعد تناول الحلوى قد حان ، وعندما جلست وحدها قالت :

أيها الغبي من كنت تعني؟

لم تقل ذلك ولكن من المؤكد أنها لم تكن تعني الحلويات
التي ستتناولها .

الفصل الثاني السيد جيمس هارت هوس

هذا السيد هو الشخص الغريب الذي قدم الى البلدة محملا برسالة
توصية من السيد غرند ، وهو ذو مظهر جيد ، وعمل في مجالات متعددة ،
فجر منها جميعا ، وهجرها ، ومن ثم أرسل الى كوك تاون حيث أصبح
معروفا . ولما أوصل الرسالة الى السيد باي حضر باي اليه في الفندق
ووجده واقفا قرب النافذة وهو حزين ، قال الزائر :

اسمي ياسيدي جوزيه باي من بلدة كوك تاون .

كان السيد جيمس سعيدا جدا لحصوله على هذه المتعة التسيي
توقعها طويلا . تابع باي قوله :

بلدة كوك تاون ياسيدي ليست من النوع الذي أنت معتاد عليه
لذا أرجو أن تسمح لي - وحتى لو لم تسمح لي - بأن أقول
لك شيئا بخصوصها إذ اني رجل صريح. بدا على السيد جيمس
السرور. قال السيد باي :

لاتفرح كثيرا فأولا أنت ترى الدخان المنتشر في كل مكان
وهذا يمثل الطعام والشراب وهذا الطعام والشراب المتمثل بدخان
المصانع هو موت ودمار للعمال وهو مضر للصحة ولاسيما للرئتين.
أجابه السيد جيمس :

أؤكد لك ياسيدي أنني مقتنع تماما بطريقة تفكيرك .
رد عليه السيد باي:

أنا سعيد لسماع ذلك الآن، فلاشك في أنك سمعت الكثير من
العمل في مصانعنا أليس كذلك ؟ حسنا سوف أقص عليك الحقيقة . انه
العمل الأكثر فرحا والأكثر ربحا وسرعة، وأكثر من ذلك لانستطيع
اصلاح المصانع إلا اذا وضعنا سجادا على أرضها ولن نقوم بذلك .
أجابه السيد جيمس :

أنت محق تماما .

قال السيد باي:

فأما أخيرا بالنسبة الى العمال فلاتوجد لدينا أيد عاملة في
هذه البلدة سواء كانت لامرأة أو لرجل أو لطفل إلا ولها هدف
محدد في هذه الحياة، وهذا الهدف هو تناول حساء بحري ولحوم
بملعة ذهبية، ولكن الجميع لن يحققوا هذا الهدف، وأعتقد أنني
أعطيتك فكرة كافية عن هذا المكان .

انتعش السيد جيمس انتعاشا كبيرا بهذا الاختصار المكثف عن
البلدة .

وتابع السيد باي:

هناك شيء وحيد أريد أن أضيفه قبل أن أوكد لك سروري
البالغ بالرسالة التي تلقيتها بشأنك . فأنت رجل من عائلة محترمة
لا تغش نفسك وتعتقد ،ولو للحظة ، أني رجل من عائلة محترمة ، ولكنني
من أصل قذر ومنحط .

أجابه جيمس :

إن ذلك قد يثير اهتمامي كثيرا . تابع السيد باي قوله :
لنتصافح ونحن على قدر واحد من المساواة . أقول قدر واحد ،
بالرغم من أنني أعلم ما أنا عليه ، وأعلم مدى القاع الذي انتشلت
نفسي منه ، وأني أفضل من أي انسان آخر ، ولكنني فخور بنفسسي
مثلك تماما حيث اني عززت استقلالي بطريقة جيدة ووصلت الى
المستوى نفسه الذي ترى نفسك الآن في خلاله . ولعلك تعرف أولا أنني
متزوج من ابنة السيد غرند ويسعدني أن أقدمك اليها اذا لم يكن
لديك عمل ما .

رد السيد جيمس :

أنت تقدم لي أعز آمنياتني أيها السيد باي .

ثم ذهبوا معا الى المنزل ودخلا قاعة الجلوس حيث دخلت الفتاة
الأكثر شهرة بالنسبة الى السيد جيمس . كانت صارمة جدا وفي الوقت
نفسه غير مبالية ، وكثيرة التحفظ والمراقبة وكثيرة البرود والاعتزاز
وكانت تخجل وتشعر بنوع من الحساسية من ذل زوجها المتبجح .

وكانت تشمئز من كل ملاحظة يبديها، وكأنها تتقطع ضمنيا. كانت ملامحها أنيقة ولكن طبيعتها مغلقة، ويصعب تخمين تعبيرات وجهها، فهي لم تكن تعرف معنى الشroud بل كانت في حالة تحفـسز دائم. وبعد نظرة الى صاحبة البيت ألقى الزائر نظرة على المنزل نفسه، ولم يكن يبدو عليه أي لمسة تدل على وجود امرأة فسيـة الغرفة. فلم تكن هناك ولو زخرفة بسيطة، أو أي تصميم جميل يدل على ذوقها وتأثيرها في المنزل، وكانت الغرفة باردة غير مريحة وكان لأثر لوجود امرأة فيها.

قال السيد باي:

هذه هي زوجتي ياسيدي، وهذا هو السيد جيمس بالويزا. وهو يعمل مع والدك. أنت تعلم ياسيدي أن زوجتي أصغر مني سنا ولا أعرف مارأت في حتى تزوجتني، ولكني أعتقد أنها، لابد، قد رأت شيئا فهي ذات معرفة كبيرة من الناحية السياسية والنواحي الأخرى، وإذا أردت أن تستفسر عن شيء ما فلن تجد مرشدا أفضل من زوجتي.

جعل هذا الكلام السيد جيمس يسر ضمنيا. تابع السيد باي:

تعال اذا أردت أن تجامل فلن تجد منافسة لك هنا، فأنا لم أتعلم المجاملة ولا أعرف كيف أقدمها ولكنك تختلف عني فأنت سيد محترم وأنا لا أظهار بأنني كذلك. فأنا جوزيه باي من بلدة كوك تاون، وهذا كاف بالنسبة اليّ، وأنا لا تأثر بالأخلاق والمواقف ولكن ربما زوجتي كانت تتأثر بها فهي لا تملك ميّزاتي، ولعلّه يمكنني القول انها عيوبي، ولكنني أعدها ميّزاتي.

قال جيمس وهو يبتسم وينظر الى لويزا:

السيد باي حيوان نبيل وهو بالمقارنة والظروف الطبيعية حر
تماما من أي سد أو عائق يعترض طريقه ، كما حدث لي في أعالي .

أجابته لويزا :

أنت تحترم السيد باي كثيرا ، وهذا شيء طبيعي .

أجابها :

لقد تعذب كثيرا ، على الرغم من أنه سيد فاضل رأى الكثير في
هذه الدنيا . فماذا عليّ أن أفعل الآن ؟

عليك أن توفر نفسك - كما قال السيد باي - من أجل خدمة
بلدتك ، وعليك أن تختص الأمة من كل المعويات التي تعترض طريقها .
فأجاب ضاحكا : انني أقسم بشرفي ياسيدة باي ألا أتظاهر
بذلك ، فلقد رأيت الكثير هنا وهناك من فوق ومن تحت . ورأيت أنّ
كل ذلك عديم الفائدة اعتمادا على رأي والدك المحترم وما دامت
لا أملك الخيار في الرأي .

سألت لويزا : أليس لك رأي خاص بك ؟

أجابها :

أنا لا أكثر بالآراء وذلك بسبب الضر الذي أعانيه . إذ إنّ كل
مجموعة لن تكون أفضل من المجموعة الأخرى أو أسوأ منها .

قالت له لويزا :

أنت سياسي نادر .

عذرك فحتى هذه النعمة لا أملكها ، فنحن أكبر تجمع وأضخم حزب
في هذه المنطقة ، وأكد لك ذلك ياسيدة باي .

هنا تدخل السيد باي يقترح تأجيل موعد العشاء حتى السادسة

والنصف لأخذ السيد جيمس بجولة الى الأماكن المعروفة في البلدة .

في المساء وجد طاولة الطعام مهيأة لأربعة أشخاص ، ولكن جلس عليها ثلاثة فقط ووجد السيد باي الفرصة سانحة من أجل التحدث عن ذكريات طفولته ، وكان السيد جيمس يعلق على حديث السيد باي بين الفينة والأخرى بالكلمة الآتية : هذا مدهش . وكان جيمس يستسرق النظر الى لويزا وهي جالسة على رأس الطاولة ، وهو يفكر في أنه لا يوجد شيء يحرك هذا الوجه الجميل . نعم كان هناك شيء ما بحق الله وهو وصول شقيقها توم ، فقد تغيرت تعبيرات وجهها عندما دخل من الباب ، وأشرق وجهها بابتسامة مشعة ابتسامة جميلة ، وكان يمكنها ألا يلمحها السيد جيمس لو أنه لم يبحث عنها طويلا على وجهها غير المعتبر .

رفعت يدها الناعمة الجميلة وأطبقت بأصابعها على يد أخيها . دار في خلد الزائر أنّ هذا الجرو هو المخلوق الوحيد الذي تهتم به . حضر الجرو وجلس . كان التعريف خاليا من المديح ولكنه لم يكن خاليا من التقدير .

قال باي :

عندما كنت في سنك ياتوم ، كنت دقيقا في مواعيدي ولم أكن

أحصل على طعام .

أجابه توم :

عندما كنت في سني لم يكن عندك ميزان خاطيء ، عليك اصلاحه

ومن ثم أن ترتدي ثيابك .

قال باي :

لايهم ذلك الآن .

تمتم توم:

حسنا لا تبدأ معي الآن .

قال جيمس وهو يسمع تماما هذا اللفظ :

ان وجه أخيك آيتها السيدة. باي مألوف بالنسبة الي،ولربما

التقيت به في الخارج،أو في احدى المدارس الخاصة .

أجابته باهتمام:

كلا فهو لم يسافر من قبل،وقد تلقى تعليمه هنا. توم ياحبي

أنا أخبر السيد جيمس أنه لم يرك في الخارج .

فأجاب توم:

لم يسعفني الحظ ياسيدي.

لم يكن فيه شيء يبهجها وينير وجهها،فقد كان فتى نحيفا

شاحبا وغير لبق في تصرفاته حتى معها،وعلى الرغم من ذلك كان

المخلوق الوحيد الذي تأبه له . تقلبت هذه الفكرة في رأس السيد

جيمس كثيرا، ان توم هو الشخص الوحيد الذي تأبه له أكثر. تأبه

له أكثر.

في خلال وجود شقيقته في الغرفة وبعد خروجها،لم يجد الجرو

أي داع لاختفاء احتقاره للسيد باي واستخفافه به،وكان يقوم

بحركات ملتوية تظهر على وجهه أو يغمض عينا من عينيه .

كان السيد جيمس يشجعه في خلال الأمسية،وذلك من دون تجاوب

مباشر منه،وقد أظهر له محبة غير عادية . وفي النهاية عندما

وقف من أجل العودة الى الفندق وأبدى بعض الشك في عدم قدرته على

معرفة الطريق في خلال الليل أبدى الجرو استعداداً لمساعدته وتقديم خدماته مباشرة، دليلاً على ذلك، وخرج معه ليدله على الطريق .

الفصل الثالث الحبرق

من المؤكد أنّ شاباً نشأ تحت نمط واحد من القمع والكبت غير الطبيعي أن سيصبح منافقاً، وهذا كان حال توم، ولعله من المستغرب ألا يكون شاب لم يترك مدة خمس دقائق للتفكير وحده قادراً على التحكم بنفسه، وهكذا كان حال توم، ولعله من المستغرب أيضاً أنّ شاباً كان في طفولته ذا خيال غريب، لا يزال محاصراً بشبح ذلك الماضي حتى الآن، ومن دون أي شك، كانت هذه حال توم .

سأله السيد جيمس :

هل تدخن؟

وقد تمّ هذا السؤال عندما حضر الى الفندق أجابه توم :
أعتقد أنك تدخن. وقدم له السيد جيمس شراباً بارداً إضافة الى التبغ مما جعل توم يسترخي بسعادة تامة على أريكة، وأصبح أكثر اعجاباً بصديقه الجديد. نفخ توم من سيجارته، وهو يلاحظ أنّ صديقه لم يهتم بلباسه، بينما هو في غاية الأناقة. وملاً السيد جيمس كأساً لتوم فشكره توم وقال له :
أتمنى يا سيد جيمس أن تكون قد أخذت فكرة عن السيد باي هذه الليلة؟

أجابه السيد جيمس :

انه رجل طيب جدا .

قال له توم وهو يغمز بعينيه :

أنت تعتقد ذلك أليس كذلك ؟

ضحك السيد جيمس وهو ينهض عن الأريكة، ووقف أمام توم ونظر

اليه قائلا:

أنت أخو زوجه ؟

وضحك . أجابه توم:

أنا أظن أنك تعني أنّ صهري شخص .

وضحك .

أجابه السيد جيمس :

أنت قطعة كاوية ومحرقة ياتوم . أجابه توم:

أنا لا أكرث بالعجوز باي فأنا دائما أطلق عليه الاسم نفسه

عندما أتكلم عليه . ودائما أفكر فيه بالطريقة نفسها ولن أبدأ

أتظاهر باللفظ الآن بالنسبة الى السيد باي، فالوقت أصبح متأخرا .

رد عليه جيمس :

لا تكترث بي ولكن اهتم بي عندما تكون زوجته موجودة، فأنت

تعرف . أجابه توم:

زوجته ؟ أختي لويزا ؟

نعم .

قال ذلك وهو يضحك ويشرب من المشروب البارد .

تابع السيد جيمس المناورة حول الهدف نفسه وهو يدخن سيجارته

وينظر بسرور الى الجرو وكأنه مارد يحمي الجرو وسوف يأخذ منه كل

مايريده، ومن الواضح أنّ هذا الجرو كان متأثرا بالسيد جيمس
كثيرا، وكان ينظر اليه باعجاب وبجراحة .

قال توم:

أما بالنسبة الى أختي فهي لاتهتم أبدا بالسيد باي.
أجابه السيد جيمس:

كان ذلك في الماضي ولكننا الآن في الزمن الحاضر.
أجابه توم:

انها لاتهتم به سواء في الماضي أو في الحاضر.
أجابه جيمس:

جيد، هذا ظريف على الرغم من أنني أعتقد أنك لاتعني ذلك .
أجابه توم:

ولكنني أقسم بشرفي أنني أعني ذلك، ولا أعتقد ياسيد جيمس
أنك تظن أنّ شقيقتي لويزا تهتم بالسيد باي.
أجابه السيد جيمس:

ماذا يمكنني أن أفكر فيه عن اثنين يعيشان بسعادة واتحاد.
وفي هذه الأثناء كان توم يفع قدميه الاثنتين على الأريكة
وهو يدخن وينظر الى الوجه الذي أمامه، وقال:

أنت تعرف ياسيد جيمس والدنا، ولذلك لاتستغربن أن تكون
لويزا قد تزوجت من باي العجوز، فهي لم تحب قط، ووالدنا عرض
عليها باي العجوز ووافقت عليه .

أجابه السيد جيمس:

يبدو أنّ أختك مطيعة جدا. أجابه توم:

نعم ولكنها لم تأخذ الأمر بهذه السهولة، ولم تكن مطيعة لو لم تكن تحبني. وتابع الجرو :

أنا أقنعتها فأنا أعمل في مصرف باي العجوز وهو المكان الذي لم أكن أحب أن أكون فيه، وكنت أعلم أنني سأقع في مأزق هناك، لو لم توافق عليه، لذا أخبرتها بأمنيّاتي، وقد نفذتها، فهي على استعداد لفعل أي شيء فيه مصلحتي، وكان ذلك مغامرة منها أليس كذلك؟ أجابه السيد جيمس :

إنّ هذا ساحر ياتوم.

وتابع توم ببرود:

لم يكن الأمر يشغل أهمية بالنسبة اليها كما هو بالنسبة اليّ، لأنّ حريتي وراحتي ومستقبلي أمور اعتمد فيها عليها، ولم يكن لها من أحد تحبه سواي، أما بقاؤها في المنزل فكان بمنزلة السجن ولاسيما عندما أذهب، على أنها لم تعط باي العجوز أي حب. رد عليه جيمس :

هذا مبهم. أجابه توم تعلم أنها فتاة منتظمة، تستطيع الخوض في أي مضمار، وعلى الرغم من أنها فتاة إلا أنها ليست ذات نمط عادي، فهي تستطيع الانغلاق على نفسها لتفكر وتستغرق في التفكير وما أكثر ما كانت تجلس في غرفتها وهي ترائب المدفأة مدة ساعة .

قال جيمس وهو يدخن بهدوء:

وهل لها مصادر خاصة بها؟

أجابه توم :

ليس بمقدار ماتظن لأن والدنا قد قيدها بكل ما هو جاساف
ورمادي، وهذا هو أسلوبه .

وهنا سألته جيمس :

وهل كان والدك يريد تشكيل ابنته على وفق نمطه نفسه ؟
ابنته ؟ نعم وكل شخص آخر بل انه قد شكلني وفق الطريقة
نفسها .

أجابه توم .

فرد جيمس مستغربا :

مستحيل .

نعم فعل ذلك - قالها توم، وهو يهز برأسه - وأنا أعنسي
بقولي هذا أنني عندما تركت المنزل، وذهبت الى باي العجوز لم أكن
أعرف الكثير عن الحياة .

هيا ياتوم لا أكاد أصدق ماتقوله فلاشك في أنك تمزح .

أجابه الجرو:

أقسم بروحي أنني جاد .

قال ذلك وهو يدخن بشراهة كبيرة، ومن ثم أضاف بلهجة لطيفة
وفرحة :

ولكنني في خلال ذلك تعلمت أشياء قليلة وأنا لا أنكر ذلك ،
ولكنني فعلت ذلك بنفسني فلا شكر يمكن توجيهه الى والدي .

سأله جيمس :

وماذا عن أختك الذكية ؟

أختي الذكية مازالت تراوح مكانها، كانت تشكو لي أنها لاتجد

من تعتمد عليه، ولكنها تجاوزت ذلك، فالفتيات يستطعن دائماً
الاستمرار بطريقة ما.

سأله جيمس :

البارحة عندما حضرت الى المصرف للسؤال عن عنوان السيد باي،
وجدت سيدة عجوزا هناك ويبدو أنها معجبة كثيراً بشقيقتك .
فأجابه توم: الأم سبارست ؟ اذا فلقد رأيتهما؟ أوما صديقه
برأسه . أخذ توم السيجارة من فمه وقال :

ان شعور الأم سبارست نحو لويزا هو أكثر من اعجاب فقط .
أعتقد ذلك يمكنك القول انه عاطفة وولاء . والأم سبارست لم ترمي
شباكها حول باي عندما كان عزبا .

كانت هذه آخر كلمات تفوه بها الجرو قبل أن يغفو ويسهر
تماما . واستيقظ بعد أن حلم حلمًا مزعجا رأى فيه أن أحدا ما
رفسه بحذاء، وسمع صوتا يقول له :

الوقت متأخر استيقظ .

هنا انتفض من فوق الأريكة وقال:

يجب أن أذهب الآن .

وقال لجيمس :

التبغ الذي قدمته لي جيد جدا . ولكنه تبغ بارد جدا .

أجابه جيمس : نعم انه بارد جدا .

سأله توم:

أين الباب ؟ تصبح على خير . وحلم حلمًا آخر رأى فيه خادما
أخذه عبر الضباب ، وبعد أن عذبه أعاده الى الطريق الرئيس حيث

بقي وحيدا، ومن ثم مشى الى البيت بسهولة من دون أن يتحرّر من تأشير صديقه الجديد وحضوره . ذهب الجرو الى الفراش في المنزل ولم يكن لديه أقل احساس بما فعله تلك الليلة، فقد كان أخا أكثر مما هو جرو، ذهب الى النهر ذي الرائحة الكريهة المصبوغ بالسواد ونام فيه وغطى رأسه الى الأبد بمياهه القذرة .

الفصل الرابع الرّجال والأجنّة

كان العمال وهم يفتشون عن وسيلة لتقليص الحواجز التي تعيق حيواتهم . فقد كانوا متمردين على الوضع الذي يعيشون فيه، وكان سلاكير بوج هو من يمثلهم وكان من المفترض أن يكون المنقذ بالنسبة اليهم وكلما مثلهم كان خائفا .

لقد كان قادة العمال من حيث الأفكار يغلب أن يكونوا سيئين مثلهم مثل أصحاب العمل. لكن الشخص الوحيد الذي فهم نيات سلاكير بوج ولم يؤيّد أفكاره ، كان ستيفن بلاكبول ولذا أخذ سلاكير بوج يحرض العمال على ستيفن، ويصوّره لهم على أنه مخرب . وعندما علم ستيفن أنه لن ينضم الى اتحاد العمال ظنّ العمال أنه ضدهم وأنه مخرب ، ولكن ستيفن في الواقع كان مخلصا جدا لطبقتهم وقضيتهم ولكنه كان يكره الأساليب الملتوية .

الفصل الخامس الرجال والنساء

قال باي بأسلوبه العاصف :

حسنا ياستيفن ماهذا الذي سمعته ؟ ماذا فعلت يا أفاق بك
ادخل وتكلم ورد عليّ .

ودخل الى غرفة الجلوس حيث كانت طاولة الشاي ممدودة وزوجة
السيد باي الشابة وشقيقها والسيد القادم من لندن جميعهم كانوا
حاضرين. حياهم ستيفن وأغلق الباب ووقف بقربه وقبعتة بيده .
قال السيد باي:

هذا هو الرجل الذي أخبرتك عنه يا جيمس .
وكان السيد الذي تكلم معه باي جالسا على الأريكة وهو يتحدث
مع السيدة باي، فوقف وهو يقول بطريقة مسترخية :
حقا؟

وتقدم من السيد باي. قال السيد: والآن رد عليّ. هذه الطريقة
في الكلام بعد أربعة أيام من معاناته وقعت بقسوة وبطريقة
مخالفة على اذن ستيفن، والطريقة التي تناول بها موضوعه بسدت
وكانها تعده انسانا مخالفا لما سمّوه به .

قال ستيفن :

ماذا تريد مني ياسيدي؟

أجابه السيد باي: رد عليّ مادمتم رجلا وأخبرنا عن نفسك وعن
هذا الاتحاد .

أجابه ستيفن بلاك بول :

عــذرا ياسيدي لا يوجد عندي ما أتكلّم عليه هنا .
بدأ السيد باي بتوجيه ملاحظاته نحو ستيفن، وتحدّث موجهـا
كلامه الى السيد جيمس هارث هوس هذا نموذج منهم . عندما حضر هذا
الشخص الى هنا من قبل، حذرتـه من الغرباء المؤذنين والموجوديين
دائما ومن سوف يشنقون في حال العثور عليهم . وأخذت هذا الرجل
على أنه يسير في الاتجاه الخاطيء، والآن هل تصدّق أنهم بالرغم من
الصاق هذا الاتهام به لم يزل عبدا لهم، فهو خائف من أن يفتح
شفتيه ويتكلّم عليهم .

أجابه ستيفن:

لقد قلت انه لا يوجد لديّ ما أقوله، ولم أقل انني خائف من
أن أفتح شفتي وأتكلّم .

أجابه باي:

أنا أعرف ماتعني، ويفضّل أن تخبرنا حالا أنّ المدعو (سلاكير
بوج) ليس في البلدة، وأنه يحرض الناس على العصيان، وأنه ليس
قائدا مؤهلا لتنظيم الناس وأنه غد وحقير . يفضّل أن تخبرنا
بذلك حالا، فأنت لاتستطيع خداعي، أنت تريد أن تقول لنا، فلماذا
لاتقول ؟

أجابه ستيفن وهو يهز برأسه :

أنا آسف مثلك تماما، عندما يكون زعيم الناس سيئا، ومن سوء
حظهم أنهم لا يستطيعون الحصول على الأفضل .

بدأ الجو يصبح عاصفا ومتوترا وقد قال باي لجيمس :

سوف تسمعني أسأل هذا الرجل سوءاً يا سيد بلاك بول الرياح
تعصف بسرعة، فهل أستطيع أن أسألك كيف حدث أن رفضت أن تكون
في هذا الاتحاد؟

أجابه ستيفن:

كيف حدث؟

قال السيد باي وهو يضع ابهاميه في عرقي معطفه ويفلسق
عينيه بثقة:

كيف حدث ذلك؟

أجابه ستيفن:

بما أنك طرحت سوءاً ولا أريد أن أكون قليل الذوق لهذا
سأجيب عن سوءالك، لقد أعطيت وعداً.

أجابه باي:

ليس لي طبعاً .

كلا ياسيدي ليس لك .

أجابه باي:

لو كان الأمر متوقفاً عليّ لما كان يهم أن تعيرنسي أي
اهتمام، ولم يكن للأمر أي أهمية .

أجابه ستيفن:

هذا صحيح .

قال السيد باي وهو يصفر بغضب:

بالرغم من أنه يعرف أنهم مجموعة من الحقيرين المتمردين
الواجب نقلهم، والآن ياسيد جيمس لقد تمرّست بهذه الحياة فهل

قابلت رجلا كهذا؟

قال السيد باي ذلك وهو يشير الى ستيفن باصبع غاضب :

قال ستيفن معترضا على الكلمات التي قيلت موجهها كلامه الى

لويزا بعد أن نظر الى وجهها :

انهم ليسوا حقيرين أو شائرين، فهم ليسوا من هذا النوع ،
ولم يتصرفوا معي بجفاء، هذا ما أحسه وأعرفه، فلقد جلست اليهم،
وشربت معهم، وأحببتهم، فدعهم يفعلون بي ما يشاؤون.

كان يفكر بحماسة وبفخر، وكان موءمنا بطبقته على الرغم من
تمرفهم السيء تجاهه، ولكنه تذكر أين هو الآن فلم يرفع صوته .
كلا ياسيديتي جماعتي مخلصون لبعضهم، صادقون، محبوبون بعضهم
بعضا حتى الموت وإذا ما كان بينهم فقير أو مريض أو حزين فسوف
يعاملونه بلطف وحنان .

كوني واثقة من ذلك ياسيديتي .

قال السيد باي بايجاز : لأنهم مفعمون بالفضائل اننا دائما
نحاول اصلاح الخطأ الذي وقع فيه فأنا متأكد من ذلك، كما أنني
متأكد أنّ السماء فوقني، ونحن صبورون أيضا ونريد بشكل عام أن
نفعل ما هو صحيح عموما . الآن يا صديقي - قال باي وهو لم يعد
يستطيع التحمل أكثر - أعرنى انتباهك مدة نصف دقيقة، فأنا أود
أن أتكلم اليك كلمة أو اثنتين .

لقد قلت توا انه لا يوجد شيء تخبرنا به حول هذه القضية، هل

أنت متأكد من ذلك ؟

نعم ياسيدي .

هنا قال السيد باي وهو يشير بابهامه الى السيد جيمس :
يوجد هنا سيد من لندن، وهو سيد من البرلمان وأنا أحب له
أن يسمع الحديث الذي سيجري بيني وبينك. فهو أفضل من يلاحظ
مغزى ماسنقوله .

أحنى ستيفن رأسه للسيد القادم من لندن وبدأ عليه الاضطراب
أكثر من المعتاد وأدار عينيه نحو لويزا التي كان يعدها ملجأه
العريح، ومن ثم استقرت عيناه على وجه باي. سأله باي:
والآن ممّ تشكو .

ذكره ستيفن قائلًا: أنا لم آت الى هنا ياسيدي من أجل
الشكوى بل أتيت لأنك أرسلت تطلبني .

قال السيد باي: هل أنتم تشتكون عموماً؟
نظر اليه ستيفن بحيرة لحظة ومن ثم بدا عليه أنه قرّرشياً
ما .

ياسيدي أنا لست بارعاً في إبراز ما أريد قوله مع أنني أحس
به تماماً، نحن في تشويش كامل، انظر الى البلدة ما أكثر غناها
وانظر الى عدد الناس . انظر كيف نعيش؟ وأين نعيش؟ وبأيّة
ظروف، انظر كيف تنظرون إلينا، أو تكتبون عنا، أو تتكلمون علينا،
وكيف أنكم مصيبون ونحن دائماً على خطأ، انظر كيف أنّ هذه الأمور
قد كبرت وكبرت ياسيدي، وتوسعت أكثر وأصبحت أكثر قساوة، من
سنة الى أخرى، ومن جيل الى آخر، ومن يستطيع النظر الى ذلك ولا يقول
إنّ هذا التشويش؟

قال السيد باي:

بالطبع، والآن ربما تدع السيد يعلم كيف ينسون هذا التشويش
كما تحب أن تسميه وتحوله الى صواب .

لا أعرف كيف ياسيدي ولكن كل ما أعرفه هو أنني متعاطف مع
العمال.

وهنا جرى نقاش حاد بين ستيفن والسيد بتاي فقد عبّر ستيفن
أن العمال ليسوا آلات بل أرواحا يملكون مشاعرهم وأحاسيسهم .
وهذا الكلام لم يرق لباي الذي قال لستيفن وهو يفتح الباب
ويهم بالذهاب :

توقف لحظة .

قال باي ذلك ووجهه محمر من الغضب .
قلت لك في المرة الأخيرة التي حضرت بها الى هنا : انه عليك
تغيير مسار طريقك وألا تتطلع الى الملعقة الذهبية .
فأجابه ستيفن:

أوكد لك ياسيدي أنني لا أهدف الى ذلك .

فقال باي:

من الواضح الآن أنك أحد هؤلاء الشبان الذين يسيطر عليهم
الظلم، وهذا هو نمط حياتك يا صديقي.

هزّ ستيفن رأسه محتجا بأنه لا أعمال أخرى ينجزها: اذا لم
أستطع العمل لديك فلن أستطيع الحصول على عمل في مكان آخر.
فأجابه باي:

لا يوجد لدي ما أضيفه .

نظر ستيفن الى لويزا مرة ثانية، ولكنها لم ترفع نظرها

نحوه، ولذا قال وهو يفادر: ليساعدنا ربنا في هذا العالم .

الفصل الثامن الذبوت

كان الظلام قد حلّ عندما خرج ستيفن من منزل السيد باي، ومشى عبر الشارع حتى وجد أمامه المرأة العجوز التي سبق أن قابلها خلال زيارته السابقة لهذا المنزل، وشاهد برفقتها من يعرفها جيداً، راشيل، فقال: حبيبتي راشيل أنت معها .

ولكن العجوز أجابت :

أنا هنا مرة أخرى كماترى .

فقال ستيفن وهو يمشي بينهما وينظر من واحدة الى أخرى:

ولكن كيف أراك مع راشيل؟

وهنا أجابت العجوز مرة أخرى بفرحة :

تأخرت في توقيت الزيارة هذه السنة أكثر من المعتاد لأنني كنت مريضة، فانتظرت حتى أصبح الطقس دافئاً، والسبب نفسه لم أجعل رحلتي في يوم واحد بل جزأتها الى يومين، وحجزت في بيست المسافرين، وسوف أعود غداً صباحاً الساعة السادسة . لقد سمعت أن السيد باي قد تزوج، وهذا يبدو جيداً .

وقالت العجوز بحماسة غريبة :

وأريد أن أرى زوجته التي لم أرها من قبل، وهي لم تخرج ،

وبما أن وجهها يوحى بالصدق فقد تمنيت لو تكلمت معها وتكلمت معي .

مرة أخرى شعر ستيفن بعدم الحب لهذه العجوز لأن أخلاقها
كانت توحى بالبساطة والوداعة .

فقال لها بلطف :

حسنًا ياسيدتي لقد رأيت زوجته، وهي شابة وأنيقة ولها عينا
سوداوان ذكيتان ومتزنتان.

وهنا صاحت العجوز مبتهجة :

مغيرة وأنيقة، يا للزوجة السعيدة .

أجابها ستيفن:

أعتقد أنها كذلك .

ولكنه نظر نظرة شك الى راشيل .

أجابته العجوز:

تعتقد ذلك؟ يجب أن تكون زوجة سيدك سعيدة .

أوما ستيفن بالموافقة بقوله ناظرا الى راشيل .

بالنسبة الى كونه رئيسي فهو لم يعد كذلك، فالنهاية وقعت

بينني وبينه .

هنا سألته راشيل بقلق وبسرعة :

هل تركت العمل معه ياستيفن؟

فأجابها :

سواء تركت أنا العمل أو أنّ العمل تركني، فالنتيجة واحدة،

ولو بقيت هناك لكنت المتاعب قد تكاثرت ،لذا يفضل أن أذهب ،

وسوف أغادر البلدة ياعزيزتي، وأبدأ في مكان جديد.

أين ستذهب ياستيفن؟

أجابها :

لا أدري، ولكنني لن أذهب اليوم أو غدا .

وكان ستيفن يفكر في أنه بمغادرته البلدة سوف يقدم خدمة لراشيل لأن ذلك سوف يحميها من سوء ال الناس عن تعلقها به . على الرغم من أنه سيعاني كثيرا من فقدانها .

قال ستيفن متحدثا الى العجوز:

تعالى الى غرفتي البسيطة آيتها السيدة ، وتناولى فنجانا من الشاي ، وسوف تحضر راشيل معنا ، ومن ثم سأوصلك الى الفندق السدي تنزليين فيه . ولربما سيمضي وقت طويل ياراشيل قبل أن نلتقي ثانية .

اتجه الثلاثة نحو غرفته وعندما وصلوا الى شارع ضيق ، نظرو ستيفن الى نافذة غرفته نظرة خوف ، ولكن نافذته كانت مغلقة مثلما تركها ، ولم يكن أحد هناك . فالروح الشريرة في حياته أي زوجته السكيره ذهبت منذ شهور عدة ولم يعد يسمع عنها شيئا ، أشعل شمعة وأحضر ماء ساخنا من الأسفل ، من أجل صنع الشاي وأحضر خبزا وبعض الزبدة من دكان قريب . وكان الخبز والزبدة طازجين . صنعت راشيل الشاي ، واستمتعت الزائرة بهذا كثيرا ، واستمتع ستيفن أيضا بهذه الوجبة . سأل ستيفن العجوز عن اسمها فأجابته :

السيدة بفلر .

سألها ستيفن أعتقد أنك أرملة ؟ أجابته :

نعم ومنذ سنين طويلة .

ووفق حساب السيدة بفلر فقد مات زوجها عندما ولد ستيفن .

قال ستيفن:

من المؤسف أن تخسري رجلا جيدا . هل لديك أولاد؟

أجابت :

كلا ليس الآن ليس الآن .

قالت ذلك بعصبية وهي تمسك كأس الشاي وتلمح راشيل بنعومة :

توفي ياستيفن .

فقال ستيفن:

أنا آسف لأنني تكلمت في هذا الموضوع، وأنا ألوم نفسي لأنني سببت لك آلاما .

هنا قالت العجوز:

لدي ولد وهو في وضع جيد ورائع . ولكن أرجو ألا تنتظر مني الكلام عليه . قالت ذلك وهي تفع كأس الشاي:

لقد فقدته . مازال ستيفن يتأسف للسيدة العجوز لم تكن طرشاء، فلقد سمعت كلمة في خلال الحديث فصرخت قائلة: باوندرباي بصوت منفعل وهي تنهض عن الكرسي، ثم تابعت :

خبثوني لاتدعوه يشاهدني، لاتدعوه يدخل حتى أذهب .

ارتجفت وكانت مضطربة، وحاولت الاختباء وراء راشيل التي كانت تهدئها وهي حائرة من طريقة تصرفها .

هنا قال ستيفن بدهشة:

اهدئي ياسيديتي ليس السيد باي هو القادم بل زوجته . وأنست لاتخافين منها فقد كنت منذ ساعة فقط متحمسة لها جدا .

فسألت العجوز وهي مازالت ترتجف :

ولكن هل أنت متأكد من أنها السيدة. وليس زوجها؟

بالطبع متأكد .

فقالت العجوز: فاذا أرجوك لاتتحدث معي ولا تبد أي اهتمام بي،

دعني فقط أجلس وحدي في هذه الزاوية .

أوما ستيفن برأسه موافقا وهو ينظر الى راشيل بهدف الحصول

على توضيح ، راشيل التي لم يكن بمقدورها اعطاؤه أي توضيح،

أخذ الشمعة ونزل الدرج، حيث عاد بعد دقائق وهو ينير الطريق

للويزا وكان يتبعها أخوها الجرو توم وقفت راشيل جانبا، وهي

ممسكة بشالها وقبعتها عندما وضع ستيفن الشمعة على الطاولة وهو

حائر من هذه الزيارة، وانتظر معرفة سببها. أول مرة في حياتها

تدخل لويزا أحد بيوت العمال في بلدة كوك تاون، أول مرة في

حياتها تقف مواجهة أمام أحد أفرادهم، انها تعلم منهم أنهم

موجودون بالمشات والآلاف أجل هي تعلم مقدار نتاج عطايتهم اذا

ماتجمع عدد منهم خلال مدة زمنية محددة.. هي تعرفهم جماعات

يخرجون ويدخلون الى أعشاشهم مثل النحل، ولكن في خلال قراءتها

عن عمل الحشرات أكثر مماقرأته عن عمل هؤلاء الرجال والنسوة .

وقفت لويزا بضع دقائق تنظر في الغرفة، وأجالت بصرها من

الكراسي القليلة الموجودة الى الكتب القليلة فالى المطبوعات العامة،

فالسريسر ثم نظرت الى المرأتين وستيفن، ثم قالت له :

حضرت الى هنا للتحدث معك بخصوص ماحدث منذ وقت قليل . وأود

أن أقدم لك خدمة اذا ماسمحت لي بذلك .

هل هذه هي زوجك ؟

رفعت راشيل عينيها دلالة على النفي. احمرت لويزا خجلاً
وقالت :

انها لم تكن تريد أن تسأل سوءاً لا يستبب أذى لأي شخص هنا،
ساعتذر عن عدم معرفتي كيفية التحدث معكم كما يجب .
وبما أنّ ستيفن منذ وقت قليل عرفها بنفسه فقد قامت
لويزا بتعريف نفسها الى راشيل بطريقة قصيرة ومقتضبة ولكنها
لطيفة ومتوددة. وقالت لويزا موجهة الحديث الى راشيل :
لابد أنه قد أخبرك بما حدث بينه وبين زوجي. لاشك في أنك
ملاده الأول كما أعتقد؟

أجابتها راشيل :

سمعت نهاية ما حدث ياسيدتي.

قالت لويزا :

هل أفهم من ذلك أنه إذا ما طرد عامل على يد رب العمل
احتمل أن يتم طرده لدى كل أرباب العمل ؟
فردت عليها راشيل :

إن فرصة الرجل الذي له سمعة سيئة بينهم تكون محدودة. جداً
ياسيدتي .

فسألتها لويزا :

ماذا تقصدين بالسمعة السيئة؟

أجابتها راشيل :

كونه يستبب مشكلات .

فقالت لويزا :

إذا بين حقد الطبقة التي ينتمي إليها وحقد الفئة الأخرى
يكون هو الضحية . هل الفئتان منفصلتان في هذه البلدة، حيث لا يوجد
مكان للعامل الشريف بيتهما؟
هزت راشيل رأسها بصمت .
قالت لويزا:

لابد أنه قد امتلأ بالشك بالنسبة الى زملائه لأنه وعد . ألا يكون
واحدا منهم . وأعتقد أنه أعطى هذا الوعد لك . هل أستطيع سوءالك
لعادا قطع هذا الوعد؟

هنا بدأت راشيل تبكي وقالت لها:
إنها رجته أن يتجنب المشكلات من أجل مصلحته . ولكني أعلم
أنه يموت مائة مرة قبل أن يقطع عالمه . عرفت ذلك تماما .
بقي ستيفن خلال هذا الوقت مصفيا بتعمق، ومن ثم تحدث بصوت
أقل ثباتا من المعتاد، قاشلا:

لا أحد سواي يعلم مقدار الحب والاحترام الذي أكنه لراشيل .
وعندما قطعت هذا الوعد على نفسي، أخبرتها بذلك، فقد كانت ملاك
حياتي وكان هذا الوعد رزينا .
أدارت لويزا رأسها نحوه ثم نظرت الى راشيل وكانت تعبيرات
وجهها رقيقة وسألته:

ماذا ستفعل ؟

وكذلك رقت لهجة صوتها .

أجابها ستيفن والابتسامة على وجهه:

عندما أنتهي سوف أغادر هذه المنطقة وأجرب حظي في منطقة

أخرى. سواء أوفقت أم لم أوفق، فعلى المرء أن يحاول، إذ من دون المحاولة لا نستطيع فعل شيء سوى التمدد والموت .

وكيف ستسافر؟ . سألته لويزا.

على قدمي ياسيدتي، على قدمي .

تلونت لويزا، وكان في يدها حقيبة صغيرة أخذت منها ورقة

نقدية ووضعتها على الطاولة، ثم قالت :

أرجو ياراشيل أن تقولي له أن يأخذ هذا المبلغ من أجل مساعدته في خلال سفره . هل ستحاولين اقناعه بأخذ هذا المبلغ؟ أجابتها راشيل :

لا أستطيع فعل ذلك ياسيدتي وليوفقك الله على عطفك على هذا الرجل الفقير، ولكنه وحده يعرف ما هو صحيح بالنسبة إليه .

نظرت لويزا خائفة، وغير مصدقة، وقد هيمنت عليها شفقة سريعة على هذا الرجل الذي كان صادقا جدا وثابتا في خلال المقابلة التي جرت بينه وبين زوجها، الذي فقد خلالها هدوءه فسي لحظة، والآن هاهو ذا يقف ويده أمام وجهه وأرادت لويزا أن تلمسه بيدها ولكنها تراجعت ووقفت مكانها.

قال ستيفن: إن راشيل نفسها لا تستطيع أن تقدم عرضا جيدا كهذا بأسلوب أفضل من ذلك . وحتى لا تخزي أنني رجل لا أقدر المعروف أو لا يوجد لدي منطق فسوف آخذ باوندين وسوف أعيدهما لك بعد ذلك .

فرحت لويزا من أسلوبه هذا، فعلى الرغم من أنه لم يكن أنيقا، أو بهي الطلعة، ولكن أسلوبه في قبول المبلغ والتعبير عن

شكره بأسلوب مختصر، كان لهما صدى محب وبليغ حتى أنّ السوردي
مستر فيلد لم يستطع تعليم ابنه ذلك خلال قرن. كان توم فسي
خلال تلك الأثناء جالساً على السرير من غير اهتمام حتى وصلت
الزيارة الى هذا الحد، وعندما رأى شقيقته على أهبة المفادرة نهض
بسرعة وقال :

انتظري لحظة يالويزا قبل أن نذهب أود أن أتحدث معك لحظة،
فقد خطر لي خاطر، وإذا اقتربت من الدرج يابلاك بول فسوف أخبرك
بما خطر لي .

وحاول ستيفن أن يحضر شمعة ولكن كان بصر توم قد نفذ
فقال له لاجابة الى الضوء. ابتعد ستيفن وأغلق توم باب الغرفة
وقال له :

أعتقد أنه يمكنني تقديم مساعدة لك، لاتسألني: ماذا لأنني
ربما لن أستطيع مساعدتك، ولكن لا ضرر في المحاولة. كان تنفّس
توم حاراً جداً وقد نزل كالشرارة في أذن ستيفن، وقال له توم:
إنّ من أحضر لك الرسالة اليوم هو الحمال في المصرف .
فكر ستيفن: ما أشد عجلته وهو يتكلم باضطرابه
سأله توم:

متى ستترك العمل؟ أجابه :

الجمعة أو السبت القادم .

فقال له توم:

سأحاول أن أساعدك، وإذا لم أستطع فلا ضرر في ذلك . أسألك

ثانية هل تعرف حمال المصرف إذا رأيته مرة ثانية؟ أجابه ستيفن:

بالطبع .

آجابه توم :

حسنًا عندما تترك العمل فابق قريبًا من المصرف نحو الساعة
هل تستطيع ذلك؟ وسأرسل لك الحمال ليتكلم معك إذا رأيت أنني
أستطيع أن أوّدي لك الخدمة التي أريدها لك. وفي هذه الحالة سوف
يحمل لك رسالة والآن هل فهمت تمامًا؟

نعم لقد فهمت ياسيدي .

آجابه ستيفن :

والآن انظر هنا .

قال توم : كن على حذر من أن تقوم بأي خطأ ولاتنس ،وسوف
أخبر شقيقتي عندما نذهب الى المنزل عماحدث بيننا ،والآن هل
فهمت كل شيء؟ هيا بنا يالويزا . دفع توم الباب وهو ينسادي
لويزا،ولكنه لم يعد الى الغرفة،ولم ينتظر حتى ينار الدرج فقد
كان في الأسفل عندما بدأت تنزل وكان في الشارع قبل أن تستطيع
الأخذ بذراعه .

بقيت السيدة بفلرفي زاويتها حتى ذهبت لويزا وشقيقها
وحتى عاد ستيفن والشمعة في يده . كانت في حالة اعجاب تام بالسيدة.
باي،وبكت وهي تقول :

انّ لويزا عزيزة وحبّية،ومن ثم أوصلها ستيفن وراشيل الى
الفندق الذي تنزل فيه،حيث افترقا عنها . وعادا الى زاوية الشارع
حيث تعيش راشيل،ولمّا اقتربا أكثر فأكثر منه ساد الصمت
بينهما،وعندما اقتربا من الزاوية المظلمة حيث تنتهي لقاءاتهما

دائما وقفا، ومازالا صامتين وكأنهما خائفان من التكلّم . قال
ستيفن :

سوف أحاول ياراشيل رؤيتك قبل أن أذهب ، ولكنني إذا لم
أستطع .

أجابته راشيل :

يجب أن نقرر أن نكون صريحين تجاه بعضنا .

أجابها ستيفن :

أنت دائما قوية جدا وأفضل مني وأنا أفكر ياراشيل في أنه
مادام لم يبق سوى يومين قبل رحيلي فيفضل يا حبيبتي ألا
تظلي معي، فذلك سوف يجلب لك المتاعب من دون فائدة .

أنا لأهتم بذلك ياستيفن، ولكنني أفكر في اتفاقنا القديم،
وذلك ما يقلقني، هل ستكتب لي ياستيفن وتخبرني بما يحدث ؟
نعم وماذا أستطيع أن أقول الآن سوى ليكن. الرب معك وليحكم
فالسماء تباركك وتكافئك .

فأجابته راشيل :

وليباركك الرب أنت أيضا في كل تجوالك وليرسل ربي لك السلام
والراحة في النهاية .

قال لها ستيفن بلاك بول :

لقد أخبرتك يا حبيبتي أنني لم أر شيئا يغضبني إلا وأنت
سوف تكونين بجانبني وسوف تجعليني أرى ذلك بعيني أفضل
فليباركك الله وإلى اللقاء ولتصبحي على خير .

عمل ستيفن في اليوم الثاني وهو غير مسرور، بأية كلمة من أي

شخص ،وبقي حياديا في كل جولاته ،وفي نهاية اليوم الثاني رأى سفينة ،وفي نهاية اليوم الثالث كان نوله فارغا ،بقي في الشارع خارج المصرف ساعة كل يوم مدة يومين ولم يحدث شيء هناك سواء كان جيدا أو سيئا ،وحتى لا يكون متهاونا بالاتفاق الذي تمّ بينه وبين توم ،انتظر مدة ساعتين كاملتين في يومه الثالث والأخير . كانت هناك السيدة التي كانت تشرف على منزل السيد باي السيدة سبارسنت وكانت تجلس قرب النافذة كمارآها من قبل وكان هناك الحمّال يتحدث معها ،حينما ،ويذهب الى الباب حينما آخر ،وقف على الدرجات ليستنشق الهواء ،وعندما خرج أولا اعتقد ستيفن أنه ينظر اليه ويلحظ وجوده ولكن الحمّال مشى فقط بعينيه ولم يقل شيئا . وكان لتطواف ستيفن مدة ساعتين بعد يوم عمل طويل صعبة وارهّاق بالنسبة اليه . وقف ستيفن قرب الباب وهو يسمع ساعة الكنيسة ،وقف يتأمل الأطفال وهم يلعبون في الشارع . أغلقت السيدة سبارسنت شباك الطابق الأول ،وأرخت الستائر ،وصعدت الى الأعلى ،فغادر ستيفن الى غرفته ،حيث كان عليه أن ينام هذه الليلة فقط لأنّ أمتعته كانت معدة للسفر غدا ،وكان ينوي أن يغادر مبكرا جدا قبل أن يبدأ العمال ينزلون الى الشوارع . خرج بعد بداية سطوع الشمس وهو يودّع غرفته بنظرة حزينة وحائرة ،فقد كان يمكنه رؤية هذا المكان مرة أخرى . كان كل شيء يبدو شاحبا في تلك الساعة ،حتى شروق الشمس ،كان شاحبا في السماء مثل بحر حزين .

صعد ستيفن الى أعلى التلة ،ونظر الى حيث تسكن راشيل ،الى المصانع المامتة ،والى كل شيء في البلدة . كان النهار قد بدأ ،

وكانت الأجراس تقرر معلنة بدء العمل، ولم تكن النيران قد اشتعلت بعد وكانت المدافئ العالية ترمي بسمومها.

من الغريب التحول من المدافئ إلى العصفير. ومن الغريب أن يمشي على غبار الشارع عوضا عن الفحم. ومن الغريب، أن يكون بهذا العمر وأن يبدأ كطفل صغير في هذا الصباح الصيفي. بهذه الأفكار وهي تغزو ذهنه وثيابه بين ذراعيه، بدأ ستيفن رحيله الجديد والأشجار تصفر، لقد ترك قلبا صادقا محبا خلفه .

الفصل السابع مسحوق البارد

كان السيد جيمس هارث هوس يخطط من أجل جعل لويزا تقع في غرامه، فلقد أثر فيها تأثيرا كبيرا. وكان السيد جيمس وبعد وصوله إلى البلدة بمدة قصيرة قد كتب إلى شقيقه يقول : إن عائلة (باوندر باي) ليست إلا مهزلة كبيرة، وإن السيدة باي شابة جميلة وليست كأفراد عائلتها. وبعد ذلك لم يكتب عنهم أي شيء بل وقف أوقات فراغه كلها للذهاب إلى منزلهم وكان يلقي كل تشجيع من السيد باي. وكان من عادة السيد باي أن يفخر أنسه لآيابه للناس الذين ينتمون إلى الطبقة العالية، ولكن إذا كانت زوجة السيد باي ابنة السيد غرند تأبه لهذه الطبقة فلها كل الحرية في معاشرتهم. وكان جيمس يطمح في أن تبدي لويزا اهتماما به مثلما تبدي اهتماما بالجرو، وقد أحس أن ذلك سيكون جميلا جدا. كان السيد جيمس دقيق الملاحظة، وذاكرته جيدة، ولم ينس الكلمة التي تحدث

بها هو وشقيقها، وبدأ يدرس شخصيتها ويفهمها جيدا .

اشترى السيد باي منزلا وأرضا تابعة له تبعد نحو خمسة عشر ميلا من البلدة، ويسهل الوصول اليه بوساطة سكة حديدية . وكان السيد باي فخورا جدا بهذا المكان ويعتني به عناية كبيرة، وفي أحد الأيام وفي أثناء زيارة السيد جيمس لمنزل السيد باي الريفسي، التقى بالسيدة لويزا وحاول التقرب منها بقوله :

يسرني أنني التقيتك هنا من دون أي شخص آخر إذ انني ومنذ مدة أرغب رغبة خاصة في التحدث اليك . كان مكان لقائهما هو مكانها المفضل، وكانت تجلس هناك تراقب تساقط أوراق أشجار السنة الماضية كما كانت تراقب تساقط الرماد في منزل والدها .

جلس بقربها وهو ينظر اليها . وقال لها :

شقيقك الشاب توم صديقي .

هنا تورد وجهها ونظرت نحوه باهتمام، وفكر بينه وبين نفسه قائلا :

لم أر في حياتي تعبيرات مسرة كتعبيرات وجهها وخانست تعبيرات وجهه أفكاره، فبدأ على وجهه ما كان يفكر فيه . قال لها : أرجو المعذرة ولكن تعبيرات اهتمامك الأخوي الكبير بتسوم جميلة جدا، وعلى توم أن يفتخر بذلك، وأنا أعلم أن هذا هو غير قابل للفخر، ولكنني أجد نفسي مضطرا لأن أعجب بذلك .

فأجابته بهدوء :

أنت محرض كبير .

فأجابها :

كلا ياسيدة باي، فأنت تعرفين أنني لا أدعي أمامك، وأنست
تعلمين أنني قطعة دنيئة من الطبقة الانسانية ومستعد لببيع
نفسي في أي وقت من أجل أي مبلغ معقول. فأجابته قائلة: أنني
بانتظار شهادتك الاضافية في أخي .

أجابها جيمس :

أنت قاسية معي وأنا أستحق ذلك، ولكنني لست مزيفا، ولكنك
فاجأتني بالنسبة الى أخيك فأنا فعلا مهتم به .

فسألته لويزا :

هل لك اهتمام بأي شيء ياسيد هارث هوس ؟

كانت تتكلم وهي نصف شاكة فيه ونصف ممتنة له .

فأجابها :

لو سألتني هذا السؤال عندما أتيت هنا في البداية لكنست
أجبتك كلا. أما الآن، وعلى الرغم من أنني سأظهر كأنني مدع، فإن
جوابي هو نعم .

تحركت قليلا وكأنها تريد أن تتكلم ولكن صوتها لم يسعفها
ثم قالت :

ياسيد جيمس أنا ممتنة لك لأنك مهتم بأخي. فأجابها شاكرا
أنها فعلت الكثير من أجل شقيقتها، وأنها مولعة به جدا وأن حياتها
كلها قد ضحت بها وتناستها في سبيله .

وقال لها: انه مهتم به من أجل مصلحته فقط .

وكانت تهم بالذهاب، ولكنها بقيت ثابتة في مكانها، وتابع
السيد جيمس قوله: انها ليست اساءة قطعية اذا ما كان شباب

بِعَمَرِ أَخِيهَا طَائِشًا فَعَلًا، وَمُسْرِفًا وَغَيْرِ مُسْتَقَرٍّ وَمَشْتَتَا قَلِيلًا، وَلَكِنْ
هَلْ هُوَ كَذَلِكَ حَقًّا؟

أَجَابَتْهُ :

نعم .

فَسَأَلَهَا أَنْ تَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ صَرِيحًا بِسُوءِهَا :

هَلْ أَخُوهَا مِنَ النَّوعِ الَّذِي يَقَامِرُ؟

فَأَجَابَتْ :

أَنَّهُ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ يِرَاهُنَ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَتْ :

أَنَّهُ تَعْرِفُ أَنَّهُ يِرَاهُنَ .

فَسَأَلَهَا :

هَلْ يَخْسِرُ ؟

أَجَابَتْهُ :

نعم .

وَسَأَلَهَا :

هَلْ تَمْدِينُهُ أَحْيَانًا بِالْمَالِ مِنْ أَجْلِ أَهْدَافِهِ هَذِهِ؟

كَانَتْ لُوِيْزَا فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ جَالِسَةً وَمَطْرَقَةً إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ مَا

لَبِثَتْ أَنْ رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا تَبْحَثُ وَهِيَ مُسْتَاءَةٌ قَلِيلًا .

فَتَابَعَ السَّيِّدُ جِيْمِسُ قَوْلَهُ : اْعْذِرِيْنِي يَا سَيِّدَتِي عَلَى تَطْفُلِي هَذَا ،

وَتَدْخُلِي، وَلَكِنِّي أَوَدُّ أَنْ أُمِدَّ لَهُ يَدُ الْمُسَاعَدَةِ، تَرَى هَلْ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ

مَرَّةً أُخْرَى: إِنَّ ذَلِكَ فِي مَصْلَحَتِهِ؟ وَهَلْ هَذَا ضَرُورِي؟

حَاوَلَتْ الْإِجَابَةَ وَلَكِنْ لَمْ يَخْرُجْ شَيْءٌ مِنْ فَمِهَا .

تَابَعَ السَّيِّدُ جِيْمِسُ :

أريد أن أعرف كل مايجول في خاطري، فأنا أشك في أن له
مغامرات كثيرة واعدريني على صراحتي، ولكن هل هناك ثقة بينه
وبين والده ؟

فأجابته لويزا قائلة :

انها لاتعتقد ذلك .

تابع :

إذا بينه وبين صهره السيد باي؟

فأجابته بصوت منخفض ووجهها كان يشتعل نارا :

لاأعتقد ذلك أيضا .

فسألها السيد جيمس بعد لحظة صمت قصيرة : سيدة باي هل
يمكننا أن نكون أكثر صراحة ؟ هل أخذت منك مبلغا كبيرا من
المال ؟

أجابته قائلة وهي قلقة في خلال المحادثة : انك سوف تفهم
إذا ما أخبرتك ماتود معرفته ، فأنا لاأفعل ذلك بهدف التدمير أو
الندم . فأنا لاأتدمر من شيء وما فعلته لايسبب لي أي ندم .

فكر جيمس في أن روحها عالية جدا . تابعت لويزا قولها :
عندما تزوجت وجدت أن أخي كان في ذلك الوقت مثقلا بالديون .
كان مثقلا حتى انني اضطررت الى بيع بعض الحلي، ولقد تصرفت بها
وأنا مسرورة . لم تكن ذات قيمة بالنسبة لي .

وسواء رأت لويزا على وجه السيد جيمس أنه قد علم أو أن
تكون قد خشيت بينها وبين نفسها أن يكون قد علم أن بعض ما
باعته من الحلي كان من هدايا زوجها . فتوقفت عن الكلام واحمرت

خجلا، ولكنه كان قليل الفهم. وتابعت بعد لحظة صمت حديثها:

انها منذ ذلك الوقت بدأت تعطي أخاها المال بين وقت وآخر.

ثم قالت:

وبما أنني واثقة بك ولاسيما أنك تهتم به، وبما أنك معتاد
كذلك على زيارتنا هنا، فسأخبرك بموضوع آخر. لقد طلبتني منذ
مدة مبلغا مقداره مائة باوند، ولم أستطع أن أعطيه إياه. ولم
أكن مسرورة بالظروف التي جعلته متورطا هذا التورط الكبير،
ولكنني احتفظت بهذا السر حتى الآن، لأنني لم أكن أشق بأحد.

كان السيد جيمس رجلا جاهزا ومستعدا، وقد لمح فرصة لابراز

صورتها أمامها، وهو يظهر لها أنه يقصد أخاها. فقال لها:

أنا أشعر باهتمام كلي بما أخبرتنني. ولا أستطيع أن أكون
قاسيا على أخيك فأنا أفهم الموقف الحكيم الذي تنظرين فيه إلى
أخطائه، وأشاطرك فيه مشاطرة فيها كل احترام أكنه للسيد
غرند وباي، فأنا أعتقد أنهما لم يوفقا بتدريبهما لتوم. فقد
كان السيد غرند متطرفا في تعامله، وعلى الرغم من استغلال السيد
باي - وهو ذو شخصية ساحرة - لكنه لم يستطع أن يكسب ثقة توم.
جلست لويزا وهي تنظر أمامها باتجاه الظلمة المنتشرة خارجا
مما سمح له بأن يرى في وجهها موافقتها على كلماته التي نطق
بها.

تابع قوله:

أنا أجد غلطة واحدة كبيرة في توم ولا أستطيع أن أغفرها له،
وهذا مأسوف أحاسبه عليه بقسوة. أدارت لويزا عينيها نحو

وجهه وسألته عن هذه الغلطة .

فأجابها :

لا أستطيع أن أغفر له عدم حساسيته تجاه كل كلمة أو نظرة
أو تصرف في هذه الحياة، وعن عدم تقديره للعاطفة نحو صديقه
الأفضل، ونحو تضحيته وعدم امتزاجها بالآثرة .

كان جيمس يهدف الى ابراز عدم تقدير توم لأخته لويـيـزا
وللتضحيات الكبيرة التي قدمتها له . وتابع قوله :

انّ ما قدمه لها مقابل ذلك كان قليلا جدا فما قدمته له
يقتضي منه امتنانا وحبّا ثابتا لها، وليس شذوذا وغرابة فسي
الأنوار، وعدم لباقة في التصرف . وبما أنني شخص غير مبال فلا
أختلف كثيرا عنه، ولكنني لن أعد ذلك فضيلة في شخصه أو أنوي
أن أعد ذلك اساءة بسيطة .

كانت عيناها ميللتين بالدموع، وكان قلبها مليئاً بالهم
لا عزاء له .

تابع السيد جيمس قوله : انه ملم بالظروف التي تحيط بحياة
توم، وانه ينوي تخليصه من هذا التهور أو الطيش الذي يرافقه
- وأكد لها أنه يوءثر فيه- لقد تكلمت كلاما كافيا أكثر مما
أعتقد وبدا وكأنني أتظاهر بأنني شاب جيد، ولكنني أقسم بشرفي
لاغاية لي إلا أن أفعل ذلك وأنا أعلن ذلك على الملأ .

كان يتكلم وهو يتنقل بين الأشجار وأصاف وهو ينظر اليها
لقد أصبح أخوك في الأيام الأخيرة كثير الصمت والحزن، ولربما
يكون ضميره الأخوي قد استيقظ، هذا إذا كان يوجد لديه ضمير،

على الرغم من أنني أسمع بالضمير، ولا أصدق وجوده . أمرَ عليها بأن
تنهض فأخذت ذراعَه، وتقابلا مع الجرو .

كان يضرب أغصان الأشجار بتكاسل ولقد فوجئ عندما رآهما
يتقدمان إليه، وهو يلهو وتغير لونه . قال لهما: مرحبا لم أكن
أعلم أنكما هنا .

أجابه جيمس :

أهلا ياتوم .

ووضع يده على ذراعَه ومشى الثلاثة معا باتجاه المنزل وسأله

جيمس :

هل أنت تنقش على الأشجار اسما ما؟

أجابه توم :

اسم أي اسم؟

هل تعني اسم فتاة؟ أجابه جيمس :

يبدو عليّ مظهرك أنك ترسم شكل فتاة على الجذع ياتوم

وتابع جيمس :

أخشى ياتوم أنك جندي مرتزق .

أجابه توم :

ترى هل من أحد ليس جنديا مرتزقا؟ اسأل شقيقتي .

أجابته لويزا :

هل استطعت البرهان على أنّ التقصير كان من جانبي ياتوم؟

قالت ذلك من دون أن تبدي أية ملاحظة أخرى على سوء تصرفه

وطبيعته المريضة .

أجابها توم وهو كئيب :

أنت تعرفين يالويزا إذا ما كانت القبة تناسبك أو لا. فإذا
كانت تناسبك فسوف تستطيعين ارتداؤها.

قال السيد جيمس :

توم اليوم يبدو وكأنه يكره الناس، مثله مثل كل من يشعر
بالضجر، فلا تصدقيه ياسيدة باي، فهو يعرف أكثر من ذلك كثيرا،
وسوف أذيع بعض آرائه المرتبطة بك وقد كلمني عليها ونحن وحدنا
إلا إذا لان قليلا .

أجابه توم :

في كل الأحوال ياسيد جيمس أنت لاتستطيع أن تقول لها انني
امتدحتها لكونها جنديا مرتزقا، فبإمكانني أن أمدحها وأرد إذا
كانت خلاف ذلك، وسوف أمدحها ثانية إذا كان هناك سبب وجيه
لذلك. ومهما يكن فالموضوع ليس مهما الآن، وأنا مرهق جرّاء هذا
الموضوع .

سار الجميع نحو المنزل حيث تركت لويزا ذراع زائرها، ودخلت
ووقف الزائر وهو يتأملها، ثم وضع يده على ذراع شقيقها ودعاه
إلى نزهة في الحديقة، وقال له :

ياعزيزي توم أود أن أتحدث معك .

توقفوا ضمن مجموعة من الأزهار المبعثرة إذ كان من ضمن
عمل السيد باي تجميع الأزهار وتنسيقها، وجلس توم يقطف الأزهار
ويقطعها إلى قطع، بينما وقف صديقه قريبا منه وسأله جيمس :

ما الأمر يا توم؟

أجابه بآلم :

أنا أشعر بسآم في حياتي .

فأجابه جيمس :

وأنا كذلك يارفيقي الطيب .

أجابه توم :

أنت صورة عن الاستغلال ياسيد جيمس ، ولكنني في تشويش رهيب
فأنت لاتعرف في أي وضع ، ورطت نفسي والحالة التي كانت أختسني
تستطيع انتشالي منها لو فعلت ذلك علما أن توم كان قد طلب في
الأيام الأخيرة مبلغا من لويزا ، ولكنها رفضت اعطاءه اياه ، ولذلك
بدأ يعاملها بفظاظة .

أجابه جيمس :

ياتوم أنت غير منطقي ، فأنت تتطلب الكثير من شقيقتك ، ولقد
أخذت مالا منها أيها الكلب وأنت تعرف ذلك .

حسنا ياسيد جيمس أنا أعرف ذلك ولكن كيف كنت سأخذ المال
بغير هذه الطريقة ، فقد كان باي العجوز دائما يتبجح أنه عندما
كان في مثل عمري كان يعيش ببنسين شهريا ، وفي الجانب الآخر كان
هناك والدي الذي رسم خطأ ، وقيدني به منذ أن كنت طفلا ، وهناك أمي
التي لاتملك شيئا سوى الشكوى . ولذا من أين كان لي أن أحصل على
المال من غير شقيقتي؟ وبدا عليه أنه سوف يبكي فأمسكه السيد
جيمس بلطف وقال له :

لربما ياعزيزي توم لم تستطع شقيقتك تدبير المبلغ .

فأجابه : لو أرادت تدبيره لاستطاعت ، ولكن لم يعد ذا فائدة

أن نخفي الأمور الآن، فبعد الذي أخبرتك به مسبقا تعلم أنها لم تتزوج من باي العجوز من أجل مصلحتها أو من أجله ولكن من أجلتي. إذا فلماذا لا تحضر ما أريده منه من أجلتي؟ ولو أرادت لاستطاعت أن تلاحظه، ولكنها دائما تجلس بقربه مثل الحجر، عوضا عن التصرف بسهولة، وعوضا أن تجعل نفسها مقبولة بالنسبة اليه. وأنا لا أدري ما يمكنك أن تسمي ذلك، ولكنني أسمى سلوكا غير طبيعي. كان هناك أمامهما بعض الماء، وكان السيد جيمس يشعر برغبة قوية في قذف توم بهذا الماء، ولكنه هدا نفسه، وقال :

عزيزي توم، دعني أجرب أن أكون صيرفيا لك .

أجابه توم:

بحق الله لا تتكلم على أصحاب المصارف .

وكان شكل توم شاحبا جدا اذا ما قورن بالأزهار التي أمامه . وبما أن السيد جيمس كان رجلا مهذبا ومعتادا على المجتمع الأفضل فهو لم يفاجأ، فرفع حاجبيه قليلا بدشة اذا كان ماسمعه ضدد مبادئ مدرسة السيد غرند .

ما حاجتك يا توم الآن قل .

أجابه توم وهو يبكي :

الوقت أصبح متأخرا ولم يعد المال ذا فائدة بالنسبة اليّ في الوقت الحاضر، كما كان في الماضي، ولكنني مدين لك، فأنت صديقي حقيقي .

فكر السيد جيمس :

صديق حقيقي أيها الجرو ما أشد أنك حمار؟

وتابع توم قوله :

عرضك هذا لطيف جدا ياسيد جيمس .

أجابه :

إذا أخبرتنى مايحيرك عندما تتضايق فيمكن ذلك أن يوصلك
الى طرق أفضل مما تجد نفسك فيه .

فقال توم :

أشكر وأتمنى أن أكون قد عرفتك منذ وقت أطول .
أنت ترى الآن ياتوم أنّ كل رجل يمتاز بالأثرة في كل ما
يفعله ، وأنا مثلي مثل المخلوقات الأخرى ، وأريد منك أن تكون أكثر
لطفًا نحو شقيقتك ، وهذا مايجب أن تفعله وأن تكون أخا محبًا
وطيبًا ، وهذا مايجب عليك فعله .

فأجابه توم :

سوف أكون كذلك .

فأجابه جيمس :

إذا فلاوقت أفضل من الحاضر ، ابدأ توا .

بالطبع سأفعل ذلك ، وسوف تقول ذلك شقيقتي لويزا .

عندما ظهر توم قبل الغداء ، على الرغم من أنّ ذهنه كان مثقلا
بينما كان جسمه نشيطا ، ووصل قبل وصول السيد باي قال لشقيقتة
وهو يقبلها : أنا لم أقصد أن أضايقك يالويزا . فأنا أعرف أنك
شغوفة بي ، وأنت تعلمين أنني شغوف بك . بعد ذلك كان هناك
ابتسامة على وجه لويزا ، في ذلك اليوم ، ولكن الابتسامة كانت
لشخص آخر ، وآسفاه لشخص آخر . فكر جيمس هارث هوس : أنّ اهتمامها

بالجرو بدأ كأنه اهتمام بمخلوق وحيد تهتم به فينقص ،ينقص
تدرجيا ،أجل ينقص :

الفصل الثامن الإنفجارت

كان الصباح التالي أكثر اشراقا، من أن يستطيع الانسان النوم فيه ،فاستيقظ جيمس هارث هوس باكرا وجلس قرب النافذة في غرفته ، وهو يدخن السيجار الذي أشر في صديقه توم . كان مستلقيا فسي الشمس والدخان الحالم يختفي في الهواء ،وقد كان مسرورا بالنتيجة التي توصل اليها . فلقد جعلها تثق به بينما كان زوجها مستثنى من هذه الثقة، وهذه الثقة جعلتها غير مبالية بزوجها . ولقد أكد لها صراحة أنه اقترب منها بسبب قلبها المليء باحاساس لطيفة أما الحاجز الذي كانت تعيش خلفه فقد تبخر، وكانت الأفكسار الشيطانية تدور في رأسه حول علاقته بلويزا . لبس ثيابه وهبط لتناول الافطار، وكان قلقا ازاء ضرورة امكانية تغييرها منذ الليلة الماضية، ولكن كلا فقد كانت تنظر اليه باهتمام . تجول خلال النهار، وعاد نحو الساعة السادسة وكان على حصانه ،عندما رأى باي مندفعاً نحوه قائلاً:

هل سمعت يا هارث هوس ما حدث ؟

سأله جيمس :

سمعت ماذا ؟

قال له السيد باي ووجهه ممتعض :

لقد سرق المصرف .

أجاب جيمس :

أنت لاتعني ذلك .

نعم ياسيدي لقد سرق البارحة بطريقة غير مألوفة . لقد سرق

بمفتاح مزيف .

سأله جيمس :

كم سرق منه ؟

أجابه :

إذا كنت تريد الكمية بالتحديد فهي ليست أكثر من مائة وخمسين باونداً، ولكن الموضوع ليس موضوع المبلغ بل هو حقيقة سرقة المصرف، هذه هي الظروف المهمة التي أستغرب أنك لم ترها .

أجابه جيمس وهو يترجل من على الحصان بقوله :

عزيزي باي أنا أرى ذلك، وأنا مستاء بمقدار ما ترغب أنت في هذه الظروف الصعبة، وعلى كل فأنا أهنتك من كل قلبي على عدم خسارتك أكثر من ذلك .

أجابه باي بأسلوب مختصر وغير مسرور :

أشكرك ولكنني أخبرك أنه كان يمكن المبلغ أن يكون عشرين ألفاً .

فأجابه جيمس :

أعتقد ذلك .

فأجابه باي وهو يهز رأسه متوعداً ومزموجا :

تعتقد ذلك. يحتمل أن يكون المبلغ مضاعفاً فمن غير المعروف

كم كان يمكنه أن يكون لو لم ينزعج اللص بوجود شخص دخل السى
مكان السرقة .

في هذا الوقت حضرت لويزا والسيدة سبارست وبيتزر . فقال باي
متبجحا :

هاهي ذي ابنة توم غرند تعرف تماما ماكان يمكنه أن يحدث
إذا كنت أنت لاتعرف يا جيمس ، فلقد صدمت تماما عندما أخبرتها
بماحدث ، ولم أعرف أنها فعلت شيئا كهذا من قبل ، وهي ماتزال
شاحبة وضعيفة . (توم غرند تصغير اسم توماس الأب) .

هنا طلب منها جيمس أن تمسك بذراعه ومشيا ببطء وهو
يسألها :

كيف ارتكبت السرقة ؟

أجابه باي وهو يعطي ذراعه للسيدة سبارست بنزق :
سوف أخبرك أنا بماحدث . ولو لم تسأل سؤالا محددًا عن
المبلغ لكنت بدأت اخبارك من قبل . هل تعرف السيدة سبارست ؟
أجابه جيمس :

لقد سبق أن تشرفت بمعرفتها .

حسنا هل تعرف هذا الشاب بيتزر ، وهل رأيته في المناسبة
نفسها ؟ أوما السيد جيمس رأسه : نعم .

تابع السيد باي :

حسنا انهم يعيشون في المصرف ، ربما تعرف ذلك ؟ والبارحة
مساء وبعد انتهاء ساعات العمل كان كل شيء قد وضع في مكانه
كماهو معتاد ، وفي الغرفة الحديدية التي ينام هذا الشاب خارجها

وأقصد خزانة توم الحديدية، كان يوجد مائة وخمسون باونداً.

أجابه بيتزر:

بل كان يوجد مائة وأربعة خمسون .

فأجابه باي :

اصمت ولا تقاطعني فيكفي أنني سرقت ، وأنت تشخر ، انسبك
مستريح، ولكنني عندما كنت في سلك لم أكن أشخر بحسب علمي .

بدأ على بيتزر التأثر من كلام السيد باي الذي تابع :

مائة وخمسون باونداً كان توم محتفظاً بها في الخزانة
الحديدية التي لم تكن بالقوة المطلوبة، ولكن هذا لايهم الآن، وأحياناً
وعندما يكون هذا الشاب يشخر، فكما قلت ياسيدة سبارست ، هل
سمعتة يشخر؟

أجابت السيدة :

لا أستطيع القول أنني سمعتة يشخر بالضبط ، ولكن خلال أمسيات
الشتاء وعندما كان يففو على طاولته ، سمعتة يطلق صوتاً وكأنه
يختنق ويصدر أصواتاً غريبة . ولكنني دائماً أعد بيتزر رجلاً ذا
مبادئ ثابتة ، وهذه هي شهادتي فيه .

هنا قال السيد باي :

حسناً ففي خلال شخيرهِ أو اختناقه تسلك أحد الأشخاص ، وفي
خلال نوم بيتزر دخل أحد ما إلى الداخل وأفرغ محتويات خزانة توم
الحديدية ، ولما شعر اللص أو اللصوص بنوع من الخطر خرجوا من الباب
الرئيس وأعادوا قفله بمفتاح مزيف ، ورموا المفتاح في الشارع قرب
المصرف نحو الساعة الثانية عشرة اليوم ، ولم يلاحظ أحد شيئاً ، حتى

حضر بيتزر هذا الصباح، وبدأ يفتح المكاتب ويحضرها للعمل، ومن ثم، وهو يلقي نظرة على خزانة توم وجد الباب مشرعا والقفل مكسورا والمال مفقودا.

هنا سأل السيد جيمس وهو يتلفت :

أين توم ؟

أجابه باي: انه يساعد الشرطة، ويقف قرب المصرف .

سأله جيمس :

هل تشك في أحد؟

أجابه :

أشك ؟ فجوزيه باوندر باي من كوك تاون لن يسرق ولن أشك في أحد، كلا شكرا لك. ولكن هل لك ياسيد جيمس أن تخبرنا فيمن تشك ؟

ثم تابع السيد باي كلامه وهو يقف ويواجه الموجودين :
يجب ألا نذكر ما حدث في كل مكان لأنّ الأوغاد الذين قاموا بالسرقة ربما كان لهم جواسيس في كل مكان، لذا انتظروا لحظة، مارأيكم لو أنّ أحدا من الطبقة العاملة كان ذا يد في موضوع السرقة ؟

هنا قال جيمس :

أتمنى ألا يكون صديقنا بلاك بوت متورطا في ذلك ؟

أجابه باي :

قل بول عوضا عن بوت وهذا هو الرجل .

هنا تمتعت لويزا بوهن بعض كلمات الدهشة وعدم التصديق .

تابع باي :

نعم، نعم، أنا أعلم ذلك وأنا معتاد على كل ذلك ،فهؤلاء العمال هم أفضل الناس في العالم، ولديهم نعمة الثروة وكل ما يريدونه هو شرح حقوقهم لهم، ولكنني سوف أقول لكم شيئاً، أعطوني رجلاً مخفياً من الطبقة العاملة، لأجعلكم تدركون أنه يصلح لأي شيء سيء . انني معتاد على هؤلاء الشباب ،وأستطيع قراءتهم كالكتب . ياسيدة سبارست أنا أستشهد بك . ما الانذار الذي أعطيته ذلك الشاب ؟

عندما حضر أول مرة الى منزلي، وكان موضوع زيارته كيفية خرق الدين ياسيدة سبارست ،وبما أنك من المستوى نفسه مع الطبقة الارستقراطية فهل قلت أو لم أقل لذلك الشاب : انه لا يستطيع اخفاء الحقيقة عني، وانه ليس من النوع الذي أحبه، وانه لن يصل الى أي شيء ؟

أجابته السيدة. سبارست :

نعم وبالتأكيد ياسيدي لقد حذرتك من ذلك .

تابع السيد باي :

وعندما صدمك و صدم شعورك ؟

أجابته :

نعم ياسيدي لقد فعل ذلك بالتأكيد .

نظر السيد باي بزهو الى السيد جيمس وكأنه يريد القول :

انني أملك هذه السيدة، وهي تستحق اهتمامك كما أعتقد ومن

ثم تابع محاضرتة :

لاستطيع أنت نفسك يا جيمس أن تتذكر ما قلت له عندما رأيته،
أن أقطع الأمر معه، ولم ألمح شيئاً قط لأنني أعرفهم جيداً يساً
سيدي، وبعد ثلاثة أيام مما حدث غاب كلياً. ذهب من دون أن يعرف
أحد إلى أين. فعل مثل ما فعلت والدتي في طفولتي بفارق واحد،
هو أنه أسوأ من أمي. ولكن ماذا فعل قبل ذهابه؟ ما قولك؟
قال جيمس:

إنها شكوك بالتأكيد.

أجابه باي:

أعتقد ذلك يا سيدي ولكن بحسب اعتقادي هناك من يشاركه في
ذلك هناك امرأة عجوز، أخذنا لا يسمع هذه الأشياء حتى يقع الأذى،
فكل أنواع الخطأ موجودة على الزريبة، بعد سرقة الحصان. فهناك
امرأة عجوز تدور حول المكان منذ مدة وهي تحضر إلى البلدة من
وقت إلى آخر وكانت تراقب المكان مدة يوم كامل. وفي اليوم نفسه
الذي رأيته فيه، عقدت اتفاقاً معه وسرقا معا ورحلا. فكرت لويزا:
كان ثمة امرأة عجوز في غرفة ستيفن، عندما زارته وانغمشت
عن الملاحظة.

تابع باي:

ولكن ليس هذا كل شيء عنهما إلا أنني قلت ما فيه الكفاية في
الوقت الحاضر، ويفضل أن تبقوا هادئين، ولا تذكروا شيئاً أمام أحد،
فلربما نحتاج إلى وقت، ولكننا سنحصل عليهما، ومن السياسة أن
نعطيهم فرصة كافية، ولا اعتراض على ذلك.

أجابه جيمس:

بالطبع سوف يعاقبان بأقصى أنواع عقوبة القانون وهذا ما يستحقانه . فمن يسرق المصارف عليه تحقّل النتائج المترتبة على فعلته هذه ، وإذا لم تفرض بحقهما عقوبات فسوف نقوم جميعاً بسرقة المصارف .

وكان قد أخذ بلطف شمسية لويزا من يدها وفتحها لها ومشّت تحت ظلها ، على الرغم من أنّ الشمس لم تكن مشرقة .
قال لها زوجها :

وفي الوقت الحاضر يا لو باوندر باي هناك السيدة سبارست التي تلفت أعصابها بسبب هذا الموضوع وسوف تبقى هنا يوماً أو يومين ، لذا أرجو أن تدعيها تشعر بالراحة .
أجابته السيدة سبارست :

شكراً جزيلاً ياسيدي ، ولكن لاداعي لأن تأخذ راحتي بالحسبان فأي وضع سوف يكون مناسباً لي .

وبدا أنه إذا كانت السيدة سبارست قد أخفقت في علاقاتها بأهل المسكن ، فذلك لأنها كانت عديمة الاهتمام بنفسها ، وكثيرة الاهتمام بالآخرين . كانت تخشى أن تسبب ازعاجاً لأي شخص . ولما رأت الغرفة التي سوف تنام فيها ، تأثرت كثيراً من منظرها المريح فقد كانت تريد أن تقترح على باي ولويزا أن يجعلها تنام في المكان الذي تغسل فيه الثياب . صحيح أنّ أفراد عائلتي باولسر وسكاي جرز كانوا معتادين على الرفاهية والحياة الممتعة ، ولكن السيدة سبارست كانت تحب دائماً أن تتذكر ولاسيما أبان وجود أشخاص . وكانت ترى أنّ من واجبها أن تتذكر . أنّ ما كانت عليه

قد اختلف ، ولم تعد الأمور كما كانت . وكانت تقول :

بالطبع لو كنت أستطيع أن أنسى أنّ السيد سبارست كان من عائلة باولر أو أنني أمت بملّة الى عائلة سكاي جرز. واذا كنت أستطيع أن أُلغي الحقيقة، وأن أجعل نفسي انسانية ذات أصل عادي، وصلات طبيعية لكان يسرّني فعل ذلك، وأنا أعتقد أنه ووفقاً للظروف الموجودة الآن فمن الصواب فعل ذلك .

ولكن النقطة العظيمة عند السيدة سبارست كانت في تصميمها دائماً على الشفقة على السيد باي، وكان هناك مناسبات تنظر فيها الى السيد باوندر باي تهز رأسها من دون قصد، وكأنها تقول : يا للمسكين، وبعد أن تبدي هذه العواطف نحوه كانت تجبر نفسها على الفرح بخفة، وكانت تسر وتقول: لاتزال تملك الروح الحلوة ياسيدي، ولكن كان للسيدة سبارست طبع واحد تعتذر دائماً عنه، ووجدت صعوبة في القضاء عليه، وهو أنها كانت دائماً تنادي السيدة باي بالآنسة غرُسد، وأعادت هذه التسمية ثلاث مرات أو أربعاً في خلال الأمسية، وتكرارها هذا خطأ جعلها ترتبك، ولكنها قالت :

انه يبدو من الطبيعي جداً أن تقول الآنسة غرُسد، وأقنعت نفسها بأن الفتاة التي عرفتّها منذ أن كانت طفلة يستحيل أن تكون قد أصبحت حقيقة السيدة باي. وكانت كلما فكرت في ذلك وجدتّه من الأمور المستحيلة، فإنّ الاختلافات بين لويزا والسيد باي كثيرة جداً .

بعد العشاء وفي غرفة الجلوس ، استعرض السيد باي تفاصيل السرقة ، وتفحص الشهود، وكتب ملاحظات حول الأدلة، ووجد الأشخاص

المشتبه بهم مذنبين، وحكم عليهم بأقصى أنواع العقاب القانوني .
وأرسل بيتزر الى البلدة مع تعليمات مشددة لآخبار توم بالقسـدوم
الى المنزل في قطار البريد . وعندما أحضرت الشموع تمتت السيدة
سبارست :

لاتكن روحك المعنوية منخفضة ياسيدي، وأرجو أن أراك مسرورا
كما اعتدت دائما .

هذه المواساة التي قدمتها السيدة سبارست رفعت من روحه
المعنوية وجعلته يزداد تبجحا مثله مثل حيوان البحر .
لقد قالت له :

أنا لا أتحمّل أن أراك في هذه الصورة . حاول أن تمضي وقتا
في اللعب بطاولة الزهر كما اعتدت أن تفعل عندما كان لي شرف
العمل تحت رعايتك .
فأجابها باي :

أنا لم ألعـب في طاولة الزهر منذ ذلك الوقت .

فأجابته السيدة سبارست بلطف :

أخشى بالفعل أن تكون قد فقدت عادة اللعب منذ زمن بعيد ،
وأنا أتذكر أن الآنسة غرنند لآتهم بهذه اللعبة ، ولكني سوف أكون
مسرورة ياسيدي إذا ما كنت راضيا بذلك . جلس السيد باي مع
السيدة سبارست يلعبان وكانت ليلة جيدة لإضوء للقمر فيها ، بينما
خرجت لويـزا والسيد جيمس الى الحديقة حيث كانت أصواتهما تسمع
بسبب السكون المخيم على تلك الأمسية ، ولكن كلامهما لم يكن مفهوما .
وكانت السيدة سبارست تراقبهما من مكانها فسألها السيد باي :

ما القصة ياسيدة؟ هل هناك حريق؟

أجابته :

كلا ياسيدي، ولكنني كنت أفكر في الرطوبة .

سألها السيد باي :

وما شأنك بالرطوبة؟

فأجابته السيدة سبارست :

ليس شأنها بالنسبة اليّ ولكنني أخشى أن تصاب الأنسة غرنند

بالبرد .

فأجابها السيد باي انها لاتصاب بالبرد أبدا .

حقا ياسيدي ؟

قالت السيدة سبارست هذا وبدأت تسعل بشدة .

عندما اقترب موعد الراحة، أخذ السيد باي كأسا من الماء ،

فقالت له السيدة سبارست :

آه ياسيدي ؟ ألم تعد تأخذ جرعة من الويسكي الدافئ مع

الليمون؟ انك تفقد كل العادات القديمة الجيدة . افرح ياسيدي

واذا سمحت لي الأنسة غرنند فسوف أقدم الشراب الذي اعتدت أن أقدمه

لك دائما .

سمحت الأنسة غرنند فورا للسيدة سبارست بفعل أي شيء ترغب

فيه، فحضرت المشروب وقدمته الى السيد باي قائلة له :

سوف يدفئ قلبك، فهذا النوع هو الذي تحتاج اليه وهو السذي

يجب أن تأخذه ياسيدي .

وعندما قال السيد باي :

في صحتك ياسيديتي .

أجابته بشعور عظيم :

أشكرك ياسيدي بصحتك أيضا مع تمنياتي لك بالسعادة .

وأخيرا تمت له أمسية سعيدة مع مزيد من الحنان، ثم ذهب السيد باي الى الفراش، وهو مقتنع بنشوة أن شيئا ما لطيفا قد مسه، ولكنه لم يستطع طوال حياته ذكر ذلك الشيء .

انتظرت لويزا بعد أن غيّرت ثيابها واستاقت على الفراش، انتظرت وراقبت قدوم أخيها الى المنزل وقد كانت تعلم أنه لن يأتي قبل مضي ساعة بعد منتصف الليل، ولكن في سكون البلدة التي هدأت من اضطراب أفكارها، مرّ الوقت فجرا . وبعد مدة طويلة من السكون والعتمة سمعت جرسا على المدخل، ثم انتظرت مدة ربع ساعة، ومن ثم استيقظت ولبست فستانا خفيفا وخرجت من غرفتها فسي الظلام، وصعدت الدرج الى غرفة شقيقها . وكان باب غرفته مفلقا بهدوء، وتكلمت معه بعد أن اقتربت من فراشه بخطوات غير مسموعة. ركعت قرب السرير، ومرت بيدها على رقبته وقربت وجهه من وجهها . وكانت تعلم أنه يدعي أنه نائم ولكنها لم تقل له شيئا . وأخذ يتظاهر أنه قد استيقظ توا وسأل :

من القادم، وما الموضوع ؟

سألته أخته :

توم هل لديك شيء تريد أن تقوله لي؟ اذا كنت فعلا تحبني،

وكان هناك شيء تخفيه عن كل الآخرين، قل لي ماهو ؟

أجابها شقيقها :

أنا لا أعرف ماتعنين يالويزا، فلاشك في أنك كنت تحلمين .
وضعت رأسها على مخدته وسقط شعرها عليه، وكأنها تريد أن
تخفيه عن أي شخص سواها، وقالت له :
يا أخي الحبيب ألا يوجد لديك شيء تود أن تخبرني به ؟ ياتوم
قل لي الحقيقة .

فاجابها :

أنا لا أدري ماتعنين يا لو .
باسم الوقت الذي ستبقى فيه وحيدا يا حبيبي، في الليلة الحزينة
حتى لو كنت ما أزل أعيش، وبما أنني مازلت قريبة منك، وحافية
القدمين وفي الظلام حيث سأبقى حتى أصبح رمادا . باسم ذلك الوقت
ياتوم قل لي الحقيقة .

الآن اجابها :

مالشيء الذي تريدني معرفته ؟
حضنته وهي تضمه الى صدرها، وكأنه طفل وقالت له :
تستطيع أن تتأكد من أنني لن أؤنبك بل سأكون متعاطفة
صادقة معك وسوف أحميك مهما يكن الثمن . آه ياتوم لا يوجد ما
تخبرني به ؟ قل فقط أجل وسوف أفهمك . رفعت أذنها نحو شفتيه
ولكنه بقي صامتا صمطا عنيدا .

فقلت :

ألن تقول شيئا ياتوم ؟

اجابها :

كيف يمكنني أن أقول أي شيء وأنا لا أعلم ماذا تعنين ؟

أنت يا لو فتاة لطيفة وشجاعة، وأنا بدأت أفكر في أنك تستحقين
أخا أفضل مني، ولكن ليس لدي شيء أكثر لأقوله فاذهبي الى الفراش
أجابته بطريقتها المعتادة :

أنت تعب .

نعم أنا تعب جدا .

سألته :

لقد انزعجت كثيرا اليوم، هل تم اكتشاف جديد، أجابها :

فقط ما سمعته منه .

سألته :

توم هل أخبرت أحدا أننا قمنا بزيارة هؤلاء الجماعة،
وأننا رأينا الثلاثة معا؟

كلا ألم تطلبي مني أنت شخصا أن أبقى صامتا، عندما ذهبنا
الى هناك معا .

أجابته :

بلى ولكني آنذاك لم أكن أعلم ما كان سيحدث .

أجابها توم :

ولأنا كذلك، اذ كيف كان يمكنني معرفة ما سيحدث .

كان توم سريعا جدا في جوابه .

قالت له أخته وهي تنهض :

هل يجب عليّ بعد ما حدث أن أقول انني قمت بهذه الزيارة ؟

هل يجب أن أذكر ما حدث ؟

أجابها أخوها :

بحق السماء يا لو، ليس من عادتك سؤالي عن التفحيط، قول لي
ما تريد ان اذ ا كتمت الامر فسوف ا كتمه، واذا افشيتك فهذا سيكون
نهاية الموضوع .

كان الظلام مخيما مما يتعذر معه ان يرى احدهما وجه الآخر .
ولكن التأثر بدا عليهما وكانا يتبصران قبل التكلم .

سأله لويزا :

هل تعتقد ياتوم ان الرجل الذي اعطيتك المال متورط في هذه
الجريمة ؟

اجابها :

انا لا ادري، ولكن لا اري سببا يمنع تورطه .

اجابته :

ولكنه يبدو لي رجلا شريفا .

اجابها :

رجل آخر ربما يبدو لك غير شريف، ولكنك لا يكون في الواقع
كذلك .

كان هناك لحظة صمت بينهما لانه تراجع ووقف، ثم تابع كأنه
قد قرر شيئا :

انت تذكرين انني اخذته الى الخارج، وتكلمت معه في ان يستغل
مانعطيه اياه ليستفيد منه، انت تذكرين ذلك، وانا لا اقول شيئا
ضد الرجل، وقد يحتمل ان يكون جيدا جدا، وَاَتَمْنَى أن يكون كذلك .
سأله :

هل كان مستاء مما قلت له ؟

كلا فلقد قبل الأمر قبولاً متحضراً . أين أنت يا لو؟
جلس في الفراش وقبلها قائلاً : لتصباحي على خير يا حبيبتي .
سألته :

آلا يوجد لديك المزيد مما يمكنك أن تخبرني به ؟
أجابها :

كلا وأنت لا تريدين أن أخبرك بكذبة ؟
أجابته :

أتمنى لك ليالي سعيدة دائماً .

فشكرها قائلاً :

أشكرك يا حبيبتي لو ، أنا تعب جداً ، وأنا متأكد أنني أريد أن
أنام فاذهبي الى الفراش .

قبلها ثانية ثم استدار وغطى رأسه بالغطاء واستلقى .
وقفت برهة أمام سريريه قبل أن تغادره ببطء . وقفت قرب
الباب ، واستدارت نحوه وسألته اذا كان قد ناداها ، ولكنه لم
يتحرك فأغلقت الباب بهدوء وعادت الى غرفتها . عندئذ نظر هذا
الشاب البائس بحذر ، ولما تأكد أنها ذهبت تسلل من الفراش وأقفل
الباب ورمى نفسه على المخدة ثانية ، وهو يمزق شعره ويبكي بحدة ،
فهو يحبها ويكره نفسه ، ويكره كل ما هو جيد في هذا العالم .

الفصل السابع سماع نهاية ما حدث

خلال وجود السيدة سبارست في منزل السيد باي من أجل اراحة

أعصابها بعد حادثة سرقة البنك، كانت تراقب ليلا نهارا كل شيء مراقبة حادة، اذ كانت تريد أن تعرف كل ما يجري حولها ولم يكن أحد ليشك في أنّ سيدة مثلها ذات أهل نبيل يمكنها أن تقوم بعمل كهذا، وبعد وصولها بقليل جرت محادثة لطيفة بينها وبين السيد جيمس، وذلك في أحد المباحثات قبل الافطار وتحدثت معه بلطف شديد، بعد أن انحنى وحيته باحترام قائلة:

انني البارحة فقط ياسيدي كان لي شرف استقبالك في المصرف،
عندما طلبت اليّ عنوان السيد باي .

وأجابها السيد جيمس ببلادة :

انها مناسبة لن أنساها على مرّ الأجيال .

قالت السيدة سبارست :

نحن نعيش في عالم شاذ ياسيدي. أجابها: انني أؤيد أفكارك
هذه .

وتابعت السيدة سبارست كلامها بقولها:

أعتقد ياسيدي أنك فهمت الآنسة غرند فهما كليا وسريعا .
ثم سألته :

هل وجدت الآنسة غرند شابة مثلما وصفتها لك؟.

ثم قالت له معذرة بلطف بأنها دائما تنادي لويزا بالآنسة
غرند لأنها لاتستطيع أن تناديها بالسيدة باي .

أجابها السيد جيمس :

لقد رسمت صورتها رسما ممتازا .

أجابته السيدة سبارست :

هذا مرض جدا ياسيدي .

وتابعت قولها :

انّ الأنسة غرند كانت تحتاج الى نشاط وانتعاش ،ولكنني
ألاحظ الآن أنها تحسّنت في ذلك المضمار،والآن هاهو ذا السيد باي.
صاحبت السيدة سبارست وهي تنحني مرات عدة وكأنها لا تتكلم أو
لا تفكر في أحد سواه ،وقالت له :

كيف ترى نفسك هذا الصباح ياسيدي ؟ أرجو أن نراك دائما

مسرورا .

هذه المثابرة على تلطيف تعاسته وتخفيف حمله ،كان لها أثر
في جعل السيد باي ألطف من المعتاد تجاه السيدة سبارست ،وأقسى
من المعتاد تجاه الناس الآخرين كزوجته وسواها . لذا فانه عندما
قالت السيدة سبارست بلهفة مفتعلة :

أتريد افطارك ياسيدي في الوقت الذي أجروء فيه على القول :

انّ الأنسة غرند سوف تحضر حالا لتشرف على ترتيب الطاولة .

أجابها السيد باي :

إذا انتظرت حتى تهتم بي زوجتي ياسيديتي،فعليّ أن أنتظر
كما تعرفين تماما حتى يوم القيامة .ولذا سوف أتعبك في تحضير
المائدة .

عندئذ بدأت السيدة سبارست بممارسة عملها القديم،وهذا جعل
السيدة سبارست أكثر عاطفة وكانت متواضعة جدا،وعندما ظهرت
لويزا وقفت وهي تحتج بأنّها لا تستطيع الجلوس في هذا المكان تحت
الظروف الحالية،فقد كان لها الشرف دائما في أن تحضر فطور السيد

باي قبل أن يتزوج من السيدة غرنند. عفوا الآنسة باي ثم طلبت
المعذرة مرة ثانية لأنها دائماً تخطيء في لفظ اسمها، على الرغم
من أنها متأكدة من أنها سوف تعتاد عليه شيئاً فشيئاً. اعتذرت
مرة ثانية لأنها تعد ارادته قانوناً بالنسبة اليها .

هنا قال السيد باي : توقفي حيث أنت ياسيدتي، فالسيدة باي
سوف تكون مسرورة جداً بالتخلص من هذه المشكلة، كما أعتقد .
أجابته السيدة سبارست بصرامة :

لا تقل ذلك ياسيدي لأنّ ذلك يسيء الى السيدة باي وليس ممن
طبعك أن تكون مسيئاً ياسيدي .
أجابها :

تستطيعين أن تريحي ضميرك ياسيدتي فأنت يا لو تستطيعين
أن تتقبلي ذلك بكل هدوء، هل تستطيعين ؟

قال السيد باي ذلك بأسلوب متبحر فأجابته زوجته :
بالطبع فلماذا يشغل هذا الموضوع أهمية ما بالنسبة اليّ ؟
قال السيد باي :

لماذا يكون هذا الموضوع ذا أهمية ما لأي شخص ياسيدة
سبارست ؟

وكان يتكلم باستخفاف وتابع قوله :
أنت ياسيدتي أتعطين الكثير من الاهتمام لمثل هذه الأمور،
اذن فأنت من الطراز القديم المتخلف بالنسبة الى أولاد توم غرنند.
سألته لويزا بتعجب :

ما الأمر؟ لماذا تهاجم هكذا ؟

أجابها باي :

أهاجم، أنا رجل مستقيم ولا أضرب في الرياح الجانبية .

أجابه لويزا برصانة وهدوء :

أعتقد أنه لم تتح لأحد الفرصة في أن يفكر في أنك خجول

جدا أو حساس جدا، وأنا لا أعرف ما لديك .

أجابها :

ما لديّ لاشيء فلا تعرفين أنني جوزيه باوندر باي من كوك

تاون ؟

نظرت اليه وهو يضرب على الطاولة، وكان على وجهها لون يدعو

الى الفخر، وكان هذا تغيير جديد وهذا ما فغر فيه السيد جيمس

فقلت لويزا :

أنت اليوم غير مفهوم أبدا فأرجو ألا تزعج نفسك أكثر لتوضح

ماتريده، فأنا لست متشوقة لمعرفة ماتعني فذلك لا يهم .

لم يحدث أكثر من ذلك بالنسبة الى هذا الموضوع وتناول السيد

جيمس الحديث في موضوعات أخرى ولكن منذ ذلك اليوم قربت

تعرفات السيدة سبارست نحو السيد باي مابين لويزا وجيمس أكثر،

وقوت تحول لويزا الخطير عن زوجها، أما الثقة التي حولتها الى

الشخص الآخر فحيث سقطت درجة فدرجة، ولم تستطع التراجع حتى لو

حاولت ذلك، ولكن سواء أحاولت أم لم تحاول فذلك مخبأ في قلبها

المغلق .

تأثرت السيدة سبارست كثيرا من هذه المناسبة حتى انها بعد

أن أعطت السيد باي قبعتها بعد الافطار، وبعد أن بقيت وحدها معه

في القاعة طبعت قبلة على يده وتمتعت :

يا أيها المحسن اليّ .

وتراجعت بحزن ولكن بعد خروجه بخمس دقائق وضعت يدها على صورته ،وعبست باحتقار تجاه ذلك الرسم وقالت :

أنت تستحق ذلك يا أبله وأنا مسرورة لذلك .

لم يمض على غياب السيد باي طويلا حتى ظهر بيتزر في القطار يحمل معه رسالة من (ستون لودج) وكانت ملاحظة سريعة لاشعارلويزا بأن والدتها مريضة جدا . وكانت والددة لويزا دائما مريضة ،ولكن صحتها تدهورت أكثر خلال الأيام الماضية ،وهي الآن على وشك الموت ، وذهبت لويزا الى بيتها القديم لرؤية والدتها وكان ينـدر أن تذهب الى هناك منذ زواجها ،فوالدها كان دائما يضيع وقتـه بعمله في البرلمان بلندن . وكانت تنزعج عندما كانت تزوروالدتها وسيسي،ولم تعد كما كانت معها عندما رفعت الطفلة المتجولة عينيها لرؤية الزوجة المقررة للسيد باي،ولم يكن لدى لويـزا قناعة في العودة الى ذلك المنزل،وكانت نادرا ماتذهب .ولم تشعر بأي احساس سار عندما وصلت اليه وأحلام الطفولة بجمالهاوبهجتها التي يشعر المرء بجمال ذكراها عندما يكبر لم يكن شيء منها موجودا ليتحس به . فقد كانت الذكرى التي تحملها عن منزلها وطفولتها هي جفاف كل ربيع يشرق . فالمياه الذهبية لم تكسـن هناك،بل كان كل ماتذكره جافا وباهتا . ذهبت وحزن عميق وقوي مسيطر عليها الى غرفة والدتها،ومنذ أن غادرت المنزل،كانت سيـسي تعيش مع العائلة وكانت الآن الى جانب والدتها وشقيقتها جين التي

تبلغ من العمر العاشرة أو الثانية عشرة الآن والتي كانت أيضا في
الغرفة . كان ثمة مشقة كبيرة قبل أن تتعرف السيدة غرند على
ابنتها الكبيرة ، فقد كان صوتها ضعيفا ، والصوت الذي عرفها على
ابنتها أخذ وقتا طويلا قبل أن يصل الى أذنها ، ولما أعلمت أن
السيدة باي هنا ، أجابت :

أنها لم تذكر السيد باي بهذا الاسم منذ أن تزوج لويزا بل
لقد سمته (ج) .

جلست لويزا بضع دقائق وتحدثت اليها كثيرا قبل أن تفهم
من هي؟ ومن ثم توضحت الأمور كلها فقالت السيدة غرند:
حسنا يا حبيبتي أتمنى أن تكون أمورك على مايرام ، فقد كان
كل ذلك من صنيع والدك . أجابتها لويزا :

أريد أن أسامحك يا أمي وليس نفسي . أجابتها والدتها :
تريدين أن تغفري لي يا حبيبتي؟ هذا شيء جديد ، أنا متأكدة
من ذلك عندما يريد أي شخص أن يصفح عني ، أنا لست على مايرام
يالويزا ، فأنا واهنة وينتابني الدوار دوما .
هل تشعرين بألم يا أمي الحبيبة ؟
أجابتها :

أنا أعتقد أنه يوجد ألم في مكان ما في هذه الغرفة ،
ولكنني لا أستطيع أن أقول: إن الألم موجود في .

بعد هذه المحادثة الغريبة جلست صامتة بعض الوقت ، أمسكت يد
لويزا ، ولم تشعر بأي نبض فيها ، ولكن عندما قبلت يدها استطاعت
أن ترى خيطا رفيعا من الحياة في حركتها . قالت السيدة غرند :

أنت نائرا ماترين شقيقتك، فلقد كبرت مثلك وأتمنسى أن
تنظري اليها . سيسي أحضرها الى هنا .

أحضرت سيسي الفتاة ووقفت ويدها بيد شقيقتها، لاحظت لويزا
أن شقيقتها تضع ذراعها حول عنق سيسي وأحست بالاختلاف عندما
اقتربت . فسألتها والدتها :

هل شاهدت الشبه يا لويزا؟

نعم يا أمي، أعتقد أنها مثلي .

ولكن والدتها هنا صاحت غير متوقعة :

نعم أنا دائما أقول ذلك ، وهذا يذكرني بأني أريد أن أتكلم
إليك يا حبيبتي . سيسي يافتاتي الطيبة اتركينا وحدنا لحظة .
تركت لويزا شقيقتها وهي تفكر في أن لشقيقتها وجها أجمل
وأكثر إشراقا من وجهها، ورأت فيه بعض اللطف الذي رآته في الوجه
الأخر في هذه الغرفة وجه سيسي، وقد استاءت قليلا من ذلك الوجه
العذب ذي العينين الواعدتين، ولما تركت وحيدة مع والدتها رأتها
لويزا متمددة وعلى وجهها سكون، فقالت لها :

هل تريدان التحدث معي يا أمي؟

أجابتها :

نعم بالتأكيد يا حبيبتي . أنت تعرفين أن والدك في أكثر
الأحيان الآن غير موجود، ولذا يجب أن أكتب له حول الموضوع .
حول ماذا يا أمي؟ قللي ولا تزعجي نفسك .

يجب أن تتذكري يا حبيبتي أنه عندما أقول أي شيء حول أي
موضوع فلا أسمع نهايته أبدا، ولذا لم أعد منذ مدة طويلة شيئا .

أجابتها لويزا:

أستطيع أن أسمعك يا أمي.

تابعت الأم:

لقد تعلمت كثيرا يا لويزا وكذلك شقيقك، علوما في مختلف
الأنواع من الصباح حتى المساء .

أستطيع سماعك يا والدتي إذا كان لديك القوة على المتابعة .

كانت تهدف من ذلك ألا يفهم عليها، تابعت والدتها قولها:

ولكن هناك شيئا لا علاقة له بالعلوم على الإطلاق، وقد غفل عنه

والدك أو نسيه يا لويزا . وأنا لا أدري ماهو؟ فما أكثر ما جلست

سيدي بقربي وأنا أفكر فيه، ولن أستطيع الحصول على اسمه الآن ،

ولكن ربما يستطيع والدك ذلك، وهذا ما يجعلني غير مرتاحة، لذا

أريد الكتابة اليه . انني لا أعرف بحق السماء ما أريد .

أعطني قلما .

وبدأت تخط أشياء غير مفهومة بيدها، ثم توقفت هذه اليد

وتوفيت السيدة . غرند .

أما السيدة . سبارست فتتقرب الى السيد باي وهذا لم يزعج

لويزا لأنها لم تجد فيه في أي يوم من الأيام زوجا ولم تفكر

فيه على أنه زوج .

الفصل العاشر سَلمُ السَيِّدة سَبَارست

بقيت السيدة سبارست بضعة أسابيع في ضيافة السيد بساي،

وكانت تراقب كل شيء بخبث وبأسلوب مراوغ، فلقد كانت في وجهه السيد باي تبدي له الشفقة والتعاطف وإياه، وفي غيابه كانت تنادي صورته بالأبله، وتنظر إليه بفضفاضة واحتقار، وكان السيد باي قد صنف السيدة سبارست بعد هذا الأسلوب الذي اتبعته معه، على أنها امرأة متفوقة وذات مستوى عال، إذ أنها كانت تشعر بأنه يعاني من تجربة مرّة. ولذا فإنه عندما قررت السيدة سبارست أن تعود إلى غرفتها، اقترح عليها السيد باي أن تحضر كل يوم سبت، وتبقى لديهم حتى يوم الاثنين مادام الطقس جميلاً، وقد وافقت السيدة سبارست على ذلك. لم تكن السيدة سبارست امرأة شاعرة، ولكن خُطرت لها فكرة من وحي خيالها ترسخت في ذهنها إذ كانت كلما راقبت لويزا لاحظت سلوكها أكثر أخذت تتخيل أشياء في ذهنها. رسمت السيدة سبارست في ذهنها سلماً قوياً وطويلاً وفي أسفله شرك مظلم من العار والدمار، وفي أسفل درجات السلم كانت ترى السيدة سبارست لويزا وهي تنحدر من يوم إلى آخر. وأصبح شغل السيدة سبارست الشاغل النظر إلى السلم الذي بنته في مخيلتها، وأن تراقب انحدار لويزا أحياناً ببطء وأحياناً أخرى بسرعة وأحياناً كانت تنحدر درجات عدة في الوقت نفسه وأحياناً غيرها تتوقف، ولكنها لم تتراجع قط. ولو تراجعت مرة واحدة لكان في ذلك الوقت موت السيدة سبارست من الحقد والخوف. لقد كانت تنحدر بقوة حتى اليوم الذي دعا فيه السيد باي السيدة سبارست للزيارة الأسبوعية، وقد بدت السيدة سبارست بقدرات معنوية مرتفعة، وكانت مستعدة للمحادثة. قالت تحدث السيد باي :

إذا كان يسمح لي سيدي بأن أسأل سوّالا مرتبطا بموضوع
أنت تتحفظ فيه، ولعل هذا يعد جرأة حتى لكأنني أعلم أنك تحسب
لكل شيء حسابا، ولكن هل حدث شيء جديد يرتبط بالسرقة؟
كلا ياسيديتي، ليس بعد .

وفي ظل هذه الظروف لا أتوقع حدوث شيء الآن . ثم تابع قائلا :
ما لم تبين في يوم ياسيديتي .

أجابته السيدة سبارست وهي تهز رأسها :
هذا صحيح ياسيدي .

تابع قوله ولن تبين في أسبوع أيضا .
بالطبع لا ياسيدي .

أجابته السيدة سبارست بلهجة حزينة .
تابع السيد باي قوله :

أنت تعلمين ياسيديتي أنني أستطيع الانتظار. فإذا كان
(روميلوس وريموس) قد انتظرا، فجوزيه باي يستطيع الانتظار.
فقد كانا أفضل مني بشبابهما. فكانت ممرضتهما أنثى الثعلب ،
وهكذا كانت جدتي فهي لم تعط أي حليب بل أنّ كل ما أعطته
مجموعة رضوض .

تنهدت السيدة سبارست وارتعدت .

كلا ياسيديتي .

تابع السيد باي :

أنا لم أسمع شيئا جديدا عن السرقة، ولكن الموضوع في يدي ،
وتوم الذي يعمل كثيرا هذه الأيام وهذا شيء جديد بالنسبة اليه لم

يتعلم ما أعرفه أنا، فوصيتي هي أن أبقى الموضوع سرا، وأجعله يبدو وكأنه سينفجر - الفعل ماتريد تحت الوردية ولكن لا تظهر أي شيء إشارة إلى ما ستفعله، وبهذه الطريقة سوف يشعر اللصوص بالثقة والأمان شيئا فشيئا، وسوف تقبض عليهم - .

أجابته السيدة :

هذا منتهى الذكاء ياسيدي . وماذا عن المرأة العجوز التي ذكرتها؟ أجابها وهو يختصر الموضوع :

أما بالنسبة إلى المرأة العجوز التي ذكرتها فلعله يفضل ألا نتكلم عليها كثيرا، والآن يبدو هذا أفضل على الرغم من أنها مشكوك فيها .

في تلك الأمسية وبينما كانت السيدة سبارست تستريح فـي غرفتها، نظرت نحو سلمها، ورأت آن لويزا مازالت تنحدر. كانت لويزا تجلس في الحديقة قرب السيد جيمس، وقد جلس منحنيًا عليها، وكانا يتهامسان، وكان وجهه ملامسا شعرها تقريبا. وكانت السيدة سبارست تنظر بعينيها المحدثتين كعيني الصقر، وكانت بعيدة عنهما فلم تستطع أن تسمع الحديث الذي كان يدور بينهما أو إذا ما كانا يتكلمان بلطف، ولكن شكلهما كان يوحي بالانسجام. أما الحديث الذي كان يدور بينهما فهو حديث حول السرقة. قالت :

هل تذكرت الرجل ياسيد جيمس؟

أجابها :

نعم تذكرته تماما.

وسألته لويزا :

هل تذكرت وجهه وأخلاقه وما قاله؟

نعم تماما . وبدا لي أنه شخص كئيب جدا . بليد وطويل طولا
هو أكبر من أن يقوم بهذه السرقة .

فأجابته لويزا :

يصعب عليّ أن أفكر تجاه الرجل بالسوء ، فلويزا لاتستطيع أن
تتصور ، أنّ ستيفن يستطيع سرقة المصرف .

هنا قال لها جيمس على طريقة أخيها توم :

عزيزتي لويزا وهو لم يكلمها هكذا من قبل :

أنت لاتعرفين شيئا عن هذا الشخص ؟

كلا بالطبع .

ولا عن شخص آخر مثله ؟

أجابته :

كيف أعرف عنهما أي شيء ؟ وهنا أخبرها جيمس :

انّ ستيفن يمكنه أن يكون قد أقدم على السرقة ؟

فأجابته لويزا :

أنا أشعر أنّ هناك ميّزة سيئة لديّ وهي أنني قد أوافق على
ما تقوله وأنّ يسر قلبي بما تقوله .

أجابها : أنا أقول فقط ما هو منطقي ، ولقد تكلمت مع توم
مرات حول ذلك ، وأنا أثق بتوم تماما ، هل تمشين ؟

مشيا وهي متكئة على ذراعه . وكانت تفكر قليلا كيف أنها
تنحدر الى أسفل ، الى أسفل ، الى أسفل ، في سلم السيدة سبارست ليلا
ونهارا تركت السيدة سبارست السلم واقفا وعندما ستصل لويزا الى

أسفل وتختفي في المنحدر فيمكنه أن يسقط عليها، ولكن حتى ذلك الوقت ثمة عمارة ضخمة أمام عيني السيدة سبارست، ولويزا دائما فوقها ودائما تنزلق الى أسفل، الى أسفل، الى أسفل.

كانت السيدة سبارست ترى جيمس يأتي ويذهب، وتسمعه هنا وهناك، وكانت ترى التعبيرات في وجه لويزا، وهي أيضا كانت ترى متى يكون هذا الوجه مكفهرًا، ومتى يكون صافيا، وكانت تبقي عينيها السوداوين مفتوحتين من دون أية لمسة شفقة، ومن دون أية لمسة من وخز الضمير .

كان كل اهتمامها منصبًا على رؤية لويزا وهي تقترب أكثر فأكثر الى أسفل الدرج، وكانت متحمسة لانجاز هذا الانحدار، ومع ذلك فقد كانت صابرة، كانت تنتظر السقطة الأخيرة وبانتظار الانفوج والاكتمال لزرع آمالها .

الفصل الحادي عشر الزحف الثاني

انحدر شكل لويزا الدرجات الكبيرة انحدارا حازما ودائما ومنحرفا، مثل ثقل في الماء الغريق الى الحافة السوداء في الأسفل . وقد حضر السيد غرند من لندن، ودفن زوجته بأسلوب خال مسن العاطفة، ومن ثم عاد الى استئناف عمله وواجباته البرلمانية . في ذلك الوقت كانت السيدة سبارست تتابع مراقبة لويزا، وبما أنها كانت منفصلة عن سلمها خلال الأسبوع بطريق حديدي يفصل كوك تاون عن البيت الريفي إلا أنها كانت دائما تستقصي أخبار لويزا، من

خلال زوجها وشقيقتها، ومن خلال جيمس هارث هوس . إضافة إلى الرسائل والحزم وكل شيء حي، أو غير حي يمر قرب السلم . قالت السيدة سبارست لشكل لويزا :

إنّ قدمك ياسيدتي على الدرجة الأخيرة من السلم . قالت ذلك وهي توجه الكلام نحو شكل لويزا، وتابعت إنّ كل مهارتها لمن تعميني .

مرّ الوقت حتى حدث أن دعي السيد باي إلى عمل في منزله، وذلك كان يتطلب وجوده في مكان آخر مدة ثلاثة أيام أو أربعة . أخبر باي السيدة سبارست بذلك يوم الجمعة في المصرف وأضاف قائلاً : ولكنك غدا ياسيدتي سوف تذهبين كالعادة إلى منزلي وكأنني موجود تماما، فذلك لن يشغل أي تغيير بالنسبة اليك . فأجابته : أرجو ياسيدي ألا تقول ذلك، فغيابك سوف يجعل الأمر يختلف اختلافا كبيرا بالنسبة إليّ، واعتقد أنك تعرف ذلك تماما . حسنا ياسيدي إذا كان عليك أن تسير أمورك فأفضل ما يمكن . . أجابته السيدة سبارست : ياسيد باي إنّ رغبتك بالنسبة إليّ هي قانون ، ولولا ذلك لكنت ناقشتك في أوامرك، فأنا لست متأكدة من أنّ الأنسة غرند ستكون مسرورة لاستقبالي، ولكن واعتمادا على دعوتك سوف أذهب .

قال لها السيد باي وهو يفتح عينيه :

عندما أدعوك إلى منزلي ياسيدتي فأنت لست محتاجة إلى دعوة أخرى .

أجابته :

بالطبع لست محتاجة ياسيدي، لا تقل أكثر من ذلك، فكل ما أريده

هو أن أراك مسرورا ثانية .

ماذا تعنين ياسيديتي؟ أجابته :

لقد افقدت مرونة كانت في طبعك ياسيدي .

بعد الظهر، وبعد أن ذهب رئيسها في رحلة، وبعد أن أغلسق

المصرف، قالت السيدة سبارست :

بيتزر قدّم تحياتك الى السيد توم الشاب، اطلب اليه أن يحضر

اليّ لتناول كوب من الشراب معي، أما بالنسبة الى توم الذي كان

مستعدا دائما لتلبية دعوة كهذه كان جوابه التلبية، وقد حضر

على الفور .

قالت له السيدة سبارست :

أتمنى أن تجرب هذه المأكولات الموجودة على الطاولة .

فشكرها الجرو وبدأ يأكل .

سألته السيدة سبارست :

كيف حال السيد جيمس ياسيد توم؟

أجابها توم :

انه بخير .

سألته السيدة سبارست وهي تتعمد اجراء محادثة لطيفة :

أين يمكن أن يكون الآن ؟ أجابها توم :

انه يصطاد في (يوركشاير) ولقد أرسل الى لويزا البارحة

سلة كبيرة جدا . أجابته السيدة سبارست .

أستطيع المراهنة بأنه صياد ماهر .

قالت السيدة سبارست :

انني معجبة بالسيد جيمس، وأعتقد أنّ الكثير معجبون به
أيضا. هل تتوقع أن نراه ثانية بعد مدة وجيزة ياسيد توم ؟
أجابها الجرو :

أنا أتوقع أن أراه غدا.

فقالت السيدة سبارست برقة :

انها أخبار سارة .

قال لها توم :

أناعلى مومد لمقابلته مساء الغد في المحطة، وان شاء الله
فأعتقد أنني سأتعش معه، فهو لن يأتي الى البيت الريفي طوال
أسبوع بل سوف يقيم في مكان آخر، وهذا ماقاله على الأقل .

قالت له السيدة سبارست :

إذا حملتك رسالة الى شقيقتك فهل سوف تتذكر وتعطيها اياها ؟
أجابها :

سأحاول إذا لم تكن رسالة طويلة .

أجابته السيدة. سبارست :

انها لا تتضمن الا تحياتي واحترامي، وأخشى ألا أزعجها بوجودي
هذا الأسبوع، لأنني مازلت متوترة قليلا، ويفضل أن أنفرد بنفسى.
أجابها توم :

إذا كان هذا كل ما في الأمر فذلك لا يهم، ولو نسيت ذلك فإن
لو لا تفكر فيك الا عندما تراك .

وبعد أن تفوّه بهذه المجاملة اللطيفة غرق في صمت مستمر

حتى انتهى من طعامه . ثم قال :

حسنا ياسيدة سبارست ، يجب أن أذهب .

وذهب في اليوم التالي، وكان يوم سبت ، جلست السيدة سبارست ، طوال النهار أمام النافذة ، وهي تنظر الى الزبن يدخلون ويخرجون ، تراقب سعاة البريد ، وتراقب الاشارات الضوئية في الشارع ، تفكر في أشياء كثيرة تخطر في ذهنها ، ولكن اضافة الى كل شيء كانت تفكر باهتمام كبير في ستمها ، ففي المساء وضعت شالها وخرجت بهدوء ، وكانت لها أسبابها التي دعته الى التسكع بطريقة مخفية ، حول المحطة حيث سيصل مسافر من (يوركشاير) انه جيمس .

كان توم ينتظر حتى وصل القطار ولكن السيد جيمس لم يصل ، انتظر توم حتى انتهت الضجة ثم توجه ليطلع على قائمة بأسماء القطارات ، وأجرى محادثة مع الحمالين ووقف في الشارع ، وهو ينظر في كل الاتجاهات وهو يخلع قبعته ويعيدها الى مكانها ، وقرر الانتظار حتى يأتي موعد القطار الثاني بعد ساعة وأربعين دقيقة . قالت السيدة سبارست بينها وبين نفسها :

هذه خطة من جيمس لابقائه بعيدا عن الطريق ، فجيمس الآن مع

شقيقته ، لقد كان هذا وحيا وقد قررت السير به حتى النهاية .

كانت محطة الوصول الى البيت الريفي في الطرف الثاني من البلدة ، وكان الوقت قصيرا ، والطريق ليس سهلا . ولكنها أسرع جدا بأخذ عربة ، وقطع تذكرة لأن هدفها كله كان الوصول الى البيت الريفي لمعرفة ما يحدث هناك . طوال الرحلة كانت السيدة سبارست تسري

لقد كانت أمسية من أمسيات أيلول عند هبوط الليل، نزلت السيدة سبارست من عربتها وتخطت المحطة الصغيرة، ومشت في الطريق الحجري، كما مشت في الطريق المليء بالأغصان والأوراق، وصلت إلى المنزل وبقيت خلف الحاجز، وهي تدور حوله وتتلصص بين الأغصان من خلال النوافذ المنخفضة، كان أكثر النوافذ مفتوحا وهذا شيء طبيعي، لأن الطقس كان دافئا، ولكن كل شيء كان هادئا. نذرت في الحديقة فلم تر شيئا. فكرت في الغابة من دون أن تفكر في المعويات والحشرات التي سوف تصادفها. وبعينها السوداءوين وبأنفها المقتنص شققت طريقها، وهي مصرة على الوصول إلى ماتريده. كان يمكنها أن تخرج الطيور الصغيرة من أعشاشها مسحورة باللمعان الذي شوهد في عيني السيدة سبارست عندما وقعت أصوات منخفضة على مسامعها، لقد سمعت صوته وصوتها.

إذا فالموعد كان خدعة لابعاد شقيقها، فهما دان يتجولان . اقتربت أكثر منهما، ووقفت خلف شجرة مثلها مثل (روبينسون كروزو) وهو يترصد أعداءه . كانت قريبة منهما حتى انها لتستطيع لمسهما معا . كان وجود جيمس سريا، ولم يظهر نفسه في المنزل . حضر على ظهر جواد، ولا بد من أنه قد مرّ بالحقول المجاورة، وذلك لأن حصانه كان مربوطا بسيّاح المرج . قال جيمس للويزا :

يا حبيبتي ماذا كان يمكنني أن أفعل؟ وأنا أعلم انك وحدك؟ هل كان يمكنني أن أبقى بعيدا؟ فكرت السيدة سبارست في ذهنها أن تجيبه من أجل أن تبدو أكثر جاذبية : أنت تعرض رأسك للشنق . ولكن أنت آيتها الشيء الصغير المؤكد أنك سوف تشنقين نفسك .

كانت لويزا تحته على الذهاب وتأمرة به، لكنها لم تصدر
وجهها نحوه . لم ترفعه نحوه . كانت تجلس ساكنة، ويدها فوق
بعضهما مثل يدي التمثال، حتى أنّ أسلوبها في الحديث كان متأنياً .
قال السيد جيمس :

يا طفلي الحبيبة - وكانت السيدة سبارست ترى بسرور أنّ ذراعه
تلامس ذراعها - .

ألا تتحملين طبيعتي مدة قليلة؟ أجابته لويزا :
ليس هنا .

آين يا لويزا؟

ليس هنا . فأجابها :

ولكن ليس لدينا وقت كاف، وأنا قد أتيت من مكان بعيد
ووضعي ليس حسناً . ولم يكن هناك عبد استغل وأسيء التعامل -
واياه على يد حبيبته مثلي، فأنا كنت أنظر الى استقبالك الشمس
الذي يدفئ حياتي، ولكنني استقبلت لديك بطريقة باردة .
أجابته :

هل عليّ أن أقول مرة ثانية أنه يجب أن تتركني وحدي هنا؟
ولكن يجب أن نتقابل يا لويزا .
ولكن أين ؟

سكت الاثنان وجمدت السيدة . سبارست لأنها اعتقدت أنّ هناك
مستمعاً آخر بين الأشجار، ولكن ذلك لم يكن سوى المطر الذي بدأ
يتساقط بغزارة .
سألها جيمس :

هل أستطيع أن آتي الى المنزل بضع دقائق، وأتمنى أن يكون
صاحب المنزل موجودا وسوف يسر باستقبالي .

كلا .

فقال لها :

أوامر ك الظالمة عليّ اعطاعتها، على الرغم من أنني الأكثر قلة
في الحظ في هذا العالم، وأنا أصدق أنني لم أكن لطيفا مع النساء
الأخريات ، ولكنني وقعت أخيرا تحت قدم المرأة الأجل والأكثر
ارتباطا والأكثر استبدادا . حبيبتي لويزا أنا لا أستطيع أن أذهب
أو أدعك تذهبين وأنت تسيئين معاملتي بهذه الطريقة .

رأته السيدة سبارست يحيطها بذراعه ويسمعها كم هو يحبها .
وهنا استعرضت السيدة سبارست الأمور كلها في ذهنها منذ
اللقاء الأول حتى هذا الوقت ، وفي خلال انشغالها بهذه الأفكار،
وبسبب ازدياد صوت تساقط المطر الحاد بين الأغصان، لم تستطع أن تعرف
أين سيلتقيان، كل ما عرفته أنهما سيلتقيان الليلة .

في ذلك الوقت بقي أحدهما أمامها في الظلام، وفكرت السيدة
سبارست من هو؟ ثم قالت أيها الشيء الصغير ما أكثر ما أنت تابعة
جيدة .

رأتها السيدة سبارست وهي تغادر الغابة وتدخل الى المنزل .
ماذا ستفعل الآن، انها تمطر، وقفت مختبئة بين الأشجار مبتلسة
بالماء، وهي تفكر فيما سيأتي؟ لقد خرجت لويزا من المنزل بسرعة،
وسقطت الى الأسفل، وابتلعتها الهاوية لم تبال بالمطر، وتحركت
بخطوات سريعة واثقة، تابعتها السيدة سبارست وكانت تبعد عنها

مسافة قصيرة فقط ،فليس يسهل ملاحقة شخص يمشي بسرعة من خلال الظلام . عندما توقفت لويزا لاغلاق الباب الجانبي،توقفت السيدة سبارست ،وعندما تابعت لويزا سيرها تبعتها .

ذهبت في الطريق نفسها التي حضرت منها السيدة سبارست ،حتى وصلت الى المحطة كان القطار سيحضر بعد قليل للذهاب الى كوك تاون . اذا فالمحطة الاولى هي كوك تاون .

وضعت السيدة سبارست شالها حول رأسها وتخفت تخفيا لم تعد تخشى معه أن يتعرف عليها أحد،ودفعت ثمن التذكرة لأنها كانت تريد اللحاق بلويزا . جلست لويزا تنتظر في الزاوية ،بينما جلست السيدة . سبارست في الزاوية الأخرى . كلتاهما تستمع الى صوت الهرق الذي كان عاليا والى صوت الأمطار . أعلن عن قدوم القطار وركبت لويزا احدى المقصورات بينما ركبت السيدة سبارست مقصورة أخرى . وعلى الرغم من أن أسنانها كانت تمصك بتأثير البرد والمطر فإن السيدة سبارست كانت فرحة جدا ،فلويزا قد انتهت وهابي ذي تقف فوق جشتها . فكرت السيدة سبارست في أن لويزا ستصل الى كوك تاون قبله لأن حصانه ليس جيدا كغايته ،ولكن أين ستنظره والى أين سيذهبان ؟

الصبر ،ولسوف نرى .

كانت الأمطار تهطل بغزارة ،والشوارع مليئة بالمياه ،وتوقعت أن تركب لويزا احدى العربات ،وكانت خائفة من ألا تستطيع اللحاق بها . ولكن حساب السيدة سبارست كان خاطئا فلويزا لم تركب أية عربة بل كانت قد ذهبت ،تطلعت السيدة سبارست فلم تر شيئا ،

وكانت قد ابتلت أكثر فأكثر، وقد تلفت ثيابها كلها . وكان كل ما فعلته أنها بدأت تبكي صارخة :
لقد أضعتها .

الفصل الثاني عشر (الأسفل)

حضر السيد غرند الى منزله في كوك تاون ليمضي اجازته ، جلس يكتب في الغرفة التي توجد فيها الساعة الكثيبة ، ولم يكن يزعجه كثيرا صوت المطر ، ولكنه لفت انتباهه ، فكان يدير رأسه أحيانا ليستمع اليه . وعندما كانت تشرق مرعدة بصوت مرتفع ، كان ينظر باتجاه كوك تاون وهو يفكر في أنّ بعض المدافئ الطويلة سوف تنهد بسبب ذلك .

كان المطر يتساقط كالطوفان عندما فتح باب غرفته ، نظروا شاهد - ياللدهوة - ابنته الكبيرة لويزا .

لويزا ، قالت له :

أبي أريد أن أتحدث اليك سألها :

ما الموضوع ؟ ييا الهي لكم تبدين غريبة . فقال السيد غرند ذلك وهو يعجب أكثر فأكثر ، ثم تابع :

هل أتيت الى هنا معرّضة نفسك لهذه العاصفة ؟

وضعت يديها على فستانها وقالت :

نعم .

ثم خلعت عباءتها وقبعتها وزمتهما من دون مبالاة ، ووقفت

تنظر اليه وهي باهتة وشعرها منفوش في وضع يائس، حتى انه قد
خاف منها . قال لها :

أستحلفك بالله يالويزا قولي لي ما الموضوع ؟
رمت بنفسها على كرسي قربه ، ووضعت يدها الباردة على ذراعه
وقالت :

أبي لقد علمتني منذ طفولتي .

أجابها :

نعم يالويزا . فقالت له :

أنا ألعن الساعة التي ولدت فيها من أجل مواجهة هذا المصير .
نظر اليها في شك وحواف وهو يعيد وراءها :

تلعين الساعة ؟ تلعين الساعة ؟

قالت له :

ما حسنات روعي؟ أين عواطف قلبي؟ ماذا فعلت يا والدي؟ ماذا
فعلت بالحديقة التي كان يجب أن تزهر مرة واحدة في هذه البرية .
ضربت صدرها بكلمات يديها وتابعت :

لو كانت أمي موجودة هنا لكان رفاتها فقط قادرا على أن
ينقذني من الفراغ الذي أرى حياتي كلها تغرق فيه . ولم أكن أريد
قول هذا، ولكن هل تذكر يا أبي المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها
معا، في هذه الغرفة ؟ .

كان السيد غرند غير مهيا البتة لماسمعه الآن، لذا أجاب
لويزا بصعوبة :

نعم يالويزا .

تابعت لويزا:

ما أقوله الآن كنت سأقوله في ذلك الوقت لو أعطيتني دقيقة مساعدة، أنا لا ألومك يا والدي، ما لم ترضه لي لم ترضه لنفسك، ولكن آه لو فعلت ذلك منذ زمن، أو لو أهملتني فقط فلكم كنت سأكون مخلوقة أفضل فأسمو على ما أنا عليه في هذا اليوم .
بعد سماعه ذلك وضع السيد غرند رأسه بين يديه وتأوه بصوت مرتفع .

تابعت لويزا قولها:

إن لويزا منذ الطفولة كانت تحارب وبصمت أي تصرف طبيعي وعفوي يصدر عنها، ويعيش في قلبها .
ثم أخبرته أنّ في صدرها كانت تعمل أحاسيس وعواطف، وكان يوجد ضعف، وهذه الأحاسيس كان يمكنها أن تتحول إلى قوة تتحدى كل حسابات والدها الذي أعطاها ذلك الزوج الذي هي متأكدة الآن من أنها تكرهه .

أجابها والدها:

كلا كلا ياطفلي الصغيرة .

تابعت لويزا:

هل حكمت عليّ أن أعيش في هذا الصقيع واليباس الذي جعلني قاسية؟ كما أنك بأسلوبك هذا يا والدي جعلتني أحس بعدم الاعتناء بأي شيء . كنت أشعر بالدمار الكبير والحزن في هذا العالم فقط .
لقد جعلتني أشعر بعدم أهمية حياتي . ربيعها وصيفها حتى مدرستي التي كانت بمنزلة المأوى لي من هذا العالم السيء والدنيء

وقد كنت أشعر فيها بالأمان لم تعد تمثل الأمان بالنسبة اليّ ،
لأنني لم أعد أشق بها .

أجابها والدها :

آه يا لويزا . كلا، ليس كذلك .

نعم يا والدي، لو كنت تركتني أعيش بالطريقة التي أريد، وأشق
طريقي بحرية، وأمارس أحاسيسي، وأستفيد من خيالي، لكنت قادرة على
أن أكون مليونيرة سعيدة، وأسعد بحب أكثر مما أنا عليه الآن .
كنت ساكون أكثر براءة وإنسانية، والآن اسمع ماجئت أخبرك به .
تحرك والدها لمساعدتها على الوقوف، تطلعت بثبات الى وجهه
ويدها على ذراعه، تابعت لويزا قولها :

كنت أحس بجوع وعطش يسيطران عليّ، - ولم يهدأ قط الجوع
والعطش الى المعرفة أكثر -، الجوع الى الأمور العاطفية التي لا تقاس
بالمنطق والحقائق .

أجابها والدها :

لم أكن أعرف أنك غير سعيدة يا طفلي، أجابته :

بينما أنا عرفت ذلك، أنّ ماتعلّمته دوما في الحياة جعلني
نادمة، شاكة غير مصدقة مشمّزة . أما ما لم أتعلمه فهو أنّ هذه
الحياة سوف تمضي سريعا وأنّ لاشيء فيها يستحق الألم ومشقّة
المنافسة والنزاع .

أجابها والدها وهو يتألم :

ولكنك صغيرة جدا يا لويزا .

أجابته :

نعم صغيرة جدا وفي هذه الحالة ياواليدي أريك الآن من دون أي خوف الوضع الطبيعي لذهني المغمور. لقد قدمه لي زوجي وأنا قبلت به. وأنا لم ألمح له أو لك قط أنني أحبه، فأنا أعرف وأنت يا والدي تعرف وهو يعرف أنني لا أحبه ولن أحبه أبدا. ولكن ذلك لم يكن يشغل لدي شيئا في ذلك الوقت .

فكرت في أن أكون ذات فائدة لتوم، فهربت الى شيء نظري، ولكنني اكتشفت ببطء كم كان ذلك عنيفا، ولكن توم كان مصدر الحنان الوحيد في حياتي، وربما أصبح كذلك، لأنني عرفت تماما كيف أشفق عليه .

هذا لايهم كثيرا الآن يا لو اذا دفعت ذلك الى التفكير بليوننة أكثر في أخطائه .

أمسكها والدها بين ذراعيه، ووضعت يدها الثانية على كتفه ، وتابعت كلامها وهي مازالت تنظر بثبات الى وجهه .

عندما تزوجت قطعيا برزت الثورة ضد الرباط . النزاع القديم أصبح أقوى بسبب كل أسباب اليأس التي نشأت بسبب طباعنا المختلفة والتي لا يستطيع أن ينظمها لي أي قانون عام إلا اذا استطاع المشرح أن يغمد سكينه في أسرار روعي. قال لها أبوها متضرعا:

لويزا .

قال ذلك لأنه يتذكر جيدا مدار بينهما من حديث فسي مقابلتهما السابقة .

تابعت :

أنا لا ألومك ياواليدي وأنا لا أتذمر فأنا هنا من أجل موضوع آخر.

أجابها:

ماذا أستطيع أن أفعل يا طفليتي؟ اذكرى ما أستطيع فعله؟ سوف أخبرك يا والدي. لقد رمى الحظ في طريقي أحد رجال المصارف الجدد. رجل لا خبرة لي فيه. انه محب للدنيا معتاد عليها، خفيف الظل غير مدع، مثقف، وهو يجاهر بعدم تقديره لأي شيء حتى انني خفت قليلا من هذا النموذج في السر، فلقد أوصل اليّ من دون أن أرى كيف تمّ ذلك أنه فهمني وقرأ أفكاري، ولم أجد أنه أسوأ مني. وبدأ كأنّ هناك مشابهة بيننا وهو يبدي اهتماما بي أكثر من أي شيء آخر.

أجابها والدها:

اهتماما بك؟

وكان أبوها قد بدأ يرخي قبضته عن ذراعها ولكنه لاحظ أنّ قواها قد انهارت ورأى نارا مشتعلة في عينيها.

وتابعت لويزا قولها:

أنا لا أقول شيئا عن ذريعتي من أجل الحصول على كيفية زواجي، فهو يعرف ذلك أيضا والتفاصيل نفسها. يا والدي لقد كسب ثقتي وما تعرفه عن قصة زواجي يعرفه هو أيضا، وبالتفاصيل نفسها. امتقع وجه والدها وأصبح أبيض وأمسك بها بكلتا ذراعيه.

وتابعت لويزا:

أنا لم أفعل شيئا خاطئا ولم أحقرك، ولكن اذا سألتني هل أحبه فسأقول لك بصراحة يا أبي انه يحتمل أن أكون قد أحببته فانا لا أدري.

وتابعت ماتريد قوله :

هذه الليلة وزوجي غائب كان الرجل معي، وصرّح لي بحق، وهو في انتظاري في هذه اللحظة، فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لأخلص نفسي من وجوده . أنا لا أعرف اذا ما كنت آسفة، ولا أعرف اذا ما كنت أشعر بالعار، وأنا لا أدري اذا ما كنت محتقرة في تقدير نفسي لي، كل ما أعرفه هو أنّ على فلسفتك وتعليمك اياي أن ينقذاني. والآن وقد أوصلتني الى ذلك، فأنقذني بأية وسيلة تراها .
أمسكها بقوة حتى يجنبها السقوط الى الأرض، ولكنها صرخت بصوت مضطرب :

سوف أموت اذا أمسكتني فدعني أسقط الى الأرض .
وتركها تسقط الى الأرض ورأى ابنته فخر قلبه وانتصار أسلوبه .
متمددة كومة فاقدة الاحساس على قدميه .

الادحكار

الفصل الأول الحاجة إلى شيء آخر

استيقظت لويزا من استكانتها وفتحت عينيها الضعيفتين على سريرها القديم في منزل والدها وغرفتها القديمة . وبدأ لها كل ما مرّ بها أشبه بحلم ولكن عندما بدأت الأمور تتوضح أمام نظرها شيئاً فشيئاً بدأت الحوادث تصبح أكثر حقيقة في ذهنها . كانت تحرك رأسها بصعوبة بسبب الألم والثقل حتى انها لم تلاحظ وجود شقيقتها الصغيرة في الغرفة التي مرّ زمن على وجودها . حتى عندما التقت عيونهما واقتربت شقيقتها من السرير، تمددت لويزا بضع دقائق تنظر صامتة الى شقيقتها وتسلمت يدها بلطف قبل أن تسألها :

متى أحضرت الى هذه الغرفة ؟

البارحة يا لويزا .

من أحضرني الى هنا ؟

سيبي كما أعتقد .

لماذا تعتقدين ذلك ؟

لأنني وجدتها هنا هذا الصباح فهي لم تحضر الى فراشي لايقاظي كما كانت تفعل دائماً وذهبت لأبحث عنها فلم أجدها في غرفتها أيضاً وبحثت عنها في كل المنزل حتى وجدتتها هنا تعتني

بك وتبرّد رأسك . هل تريدان رؤية والدي؟ فقد قالت لي سيسي :
انه عليّ أن أخبره عندما تستيقظين. قالت لويزا عندما انحنست
أختها بلطف لتقبيلها :

ياالوجه المشع الذي تملكينه ياجين؟ أجابتها شقيقتها:
صحيح؟ أنا سعيدة جدا أنك تفكرين في ذلك. لاشك فـي أن
سيسي قد فعلت ذلك .

أجابتها لويزا:
يمكنك أن تخبري والدي اذا أردت ذلك وأوقفتها لحظة قائلة
لها: هل أنت من أضفى على الغرفة هذه اللمسة من الفرحة والترحيب
والجمال ؟

أجابتها شقيقتها:
كلا يالويزا لقد سويت الغرفة قبل أن آتي .
أدارت لويزا رأسها ولم تعد تسمع شيئاً وعندما ذهبــــت
شقيقتها أدارت رأسها ثانية نحو الباب حتى فتح ودخل والدها .
دخل والدها وعلى وجهه نظرة قلقة وقبعته ويده التي كانت
ثابتة دائماً بدت مرتعشة في يدها . جلس على جانب السرير وسألها
بحنان عن حالها ملمحاً الى ضرورة بقائها هادئة جداً بعد الاعياء
وتعرضها لهذا الطقس الباردة . تكلم بصوت مضطرب ومختلف اختلافاً
تاماً عن طريقته الاستبدادية المعتادة، وكانت الكلمات تتعثر في
فمه . قال لها:

حبيبتي لويزا يا ابنتي المسكينة، وكان في حالة ضياع فحاول
مرة ثانية :

يا طفلي غير المحظوظة، أنا لا أستطيع أن أعتبر لك عما حدث لي
البارحة وكيف أنه مازال مؤثرا فيّ ومسيطرًا عليّ حتى الآن .
فالأرض التي أقف عليها أخذت تميد تحت قدمي فلقد صدمت بهذه
الاكتشافات . إنّ الصدمة التي حدثت لي البارحة كانت قاسية جدا .
وهنا لم تستطع أن تريحه . فلقد تعذبت وكانت حياتها أنقضا
على الصخرة . وتابع والدها قوله :

إنّ أسلوبه في الحياة قد أخفق وإنّ عليه تحمّل مسؤوليته
اخفاقه . ولكنه قال لها :

أريدك فقط أن تصدقي يا طفلي المفضلة أنّ ما كنت أقصده
ففعل الخير وما هو صحيح ولا شيء سوى ذلك فقد كنت أهدف إلى فعل
أشياء عظيمة .

أجابت لويزا :

أمي والله تماما مات قوله يا والدي وأنا أعرف أنني كنت
طفلتك المفضلة وأنا أعلم أنك كنت تهدف إلى جعلي سيدة سعيدة .
أنا لم أملك قط ولن أملك أبدا .

أخذ يدها وأبقاها في يده وقال لها :

لقد أمضيت الليل الطويل كله وأنا أفكر فيما حدث بيننا
وعندما أفكر في شخصك وإنّ ما اكتشفته منذ ساعات فقط قد اختبأ
داخلك مدة سنوات . أجل عندما أفكر كيف قلت ما قلته بالقوة ،
وصلت إلى نتيجة أنني لا أستطيع سوى عدم الثقة بنفسي . لقد كان
يمكنه أن يضيف أكثر، ولكنه أضاف بلمساته فقد أزاح بلطف
شعرها المبعثر عن جبينها بيده . وهذه الأفعال الصغيرة التي تبدو

عادية بالنسبة الى شخص آخر كانت تبدو ذات أهمية بالنسبة اليه
وقد استقبلت ابنته ذلك منه وكأنه دلالة على أنه يشعر بالندم.
ولكن السيد غرند قال ببطء وبتردد وباحساس تعس من الضجر:
إذا كنت قد رأيت سببا لعدم الثقة بنفسى بسبب الماضي بيا
لويزا فيجب ألا أثق بنفسى حاضرا ومستقبلا. وسوف أكلمك بسود
وتحفظ . أنا لا أثق بنفسى فأنا أبعد من أن أكون مقتنعا الآن .
ولكن ما أعرفه أنه عليّ أن أعرف كيف أساعدك وكيف أضحك فسي
المكان الصحيح ياطفليتي. كانت قد أدارت رأسها فلم يستطع رؤية
وجهها غير أنّ عذابها وغربتها كليهما قد هداها . وعلى الرغم من
أنها استراحت إلا أنها لم تبكي وكان والدها يتمنى أن يراها
تبكي .

قال وهو ما يزال مترددا :

إنّ بعض الناس يقولون: إنّ هناك حكمة في الحماسة وإنّ هناك
حكمة في القلب ولكن هل لي بأن أعتقد ذلك، وإنني كما قلت لا أثق
بنفسى الآن فقد كنت أعتقد أنّ الفعل كاف . ولكنه لم يكن كافيا
وكيف استطعت أن أجازف هذا الصباح وأقول ذلك إذا كان النسوع
الثاني من الحكمة هو ما كنت أتجاهله وهو الذي يأتي مع الفطرة يا
لويزا . اقترح ذلك وهو يتردد وكأنه لا يستطيع أن يعترف بذلك
الآن . لم تجبه وبقيت متمددة أمامه على السرير وبدأت كما رآها
البارحة على الأرض في غرفته الليلة الماضية . قال لها والدها :

لويزا - وكانت يده على شعرها - لقد غبت من هنا ياعزيزتي
مدة طويلة مؤخرا وبما أنّ شقيقتك قد تعلمت بالأسلوب نفسه

- ولفظ الكلمة الأخيرة بكثير من الاحتقار- لذا يجب التغيير في طريقة تعليمها منذ سن مبكرة وأنا أسألك أن تقودها نحو الأفضل . هل تعتقدين أن ذلك ممكن ؟ أجابته لويزا :

أبي اذا استيقظ أي انسجام في صدرها الصغير الذي كان أخرس في صدري حتى تحوّل الى نزاع فدعها تشكر السماء لذلك ودعها تكمل طريقها السعيد . ولتبارك نفسها لأنها تجنبّت أن تسير في طريقي ذاتها . قال السيد غرند بلهجة كئيبة :

آه ياطفلي . أنا رجل تعس لأنني أراك في هذه الحالة . ما الفائدة اذا كنت أنت لاتلوميني اذا كنت أنا ألوم نفسي وبفسوة . أحنى رأسه وتكلم واياها كلاماً منخفضاً قائلاً :

لدى شك في أنّ هناك بعض التغيير سيطرأ عليّ في هذا المنزل . فما لم يتم فعله سوف يفعله القلب بهدوء بالحب المجرد والعرفان بالجميل فهل على ذلك ؟

لم ترد عليه . فقال لها : أنا لست فخورة حتى أصدق ذلك يا لويزا . فكيف يمكنني أن أكون متعجرفاً وأنت أمامي . هل يمكنني أن يكون ذلك يا حبيبتي ؟ نظر اليها مرة أخرى وهي مستلقية وبوده أن يتكلم أي كلمة أخرى . خرج من الغرفة ولم يغب طويلاً حتى سمعت دعساً خفيفاً قرب الغرفة وعلمت أنّ أحداً ما يقف قريباً منها . لم ترفع رأسها بل اعتراها غضب لأنها لاتريد أن يراها أحد وهي في هذا اليأس . ولكن من الجيد أنّ تلك اللمسة الناعمة قد مرّت على عنقها ، واعتقدت أنها نامت ، فاليد المعلقة استقرّت على عنقها تعيد للحياة مجموعة من الخواطر ومن ثم استراحت . ولما

استراحت لويزا، كانت بعض الدموع قد بدأت تترقرق في عينيها ،
ورأت على الوجه الآخر دموعا أيضا، وكانت لويزا هي المسببة لهذه
الدموع . كانت سيسي تقف قرب السرير وقد قالت :

أرجو ألا أكون قد أزعجتك، فقد أتيت كي أسألك اذا ماكنت
تسمحين لي بالبقاء قربك ؟

أجابتها لويزا :

لماذا يجب أن تبقي معي؟ فشقيقتي سوف تفتقدك فأنت كل
شيء بالنسبة اليها .

أجابتها سيسي وهي تهز رأسها :

هل أنا كذلك حقا؟ لو أستطيع ذلك لكنت أكون شيئا بالنسبة
اليك .

ماذا ؟

قالت ذلك وهي عابسة .

أجابتها سيسي :

أحب أن أحاول أن أكون قربك ما استطعت ، ولن أتعب من
المحاولة فهل تسمحين لي؟

أجابتها لويزا :

هل أرسلك والدي لتسأليني ذلك ؟

أجابت سيسي :

كلا بالطبع بل قال لي انه يمكنني القدوم الآن ، ولكن هذا
الصباح أرسلني من الغرفة أو على الأقل ...

هنا تراجع وتوقفت سيسي .

سألتها لويزا:

على الأقل ماذا؟

أجابتها:

فكرت في أنه يفضل أن أذهب لأنني لم أكن متأكدة من أنك
تودين رؤيته هنا.

أجابتها لويزا:

هل كنت أكرهك دائما الى هذا الحد؟

أجابتها سيسي:

أنا لا أتمنى ذلك، لأنني دائما أحبك، وكنت دائما أتمنى أن
تعلمي ذلك . ولكنك تغيّرت معي قليلا قبل أن تغادري البيت
بقليل . ولم العجب لذلك فأنت تعلمين الكثير، وأنا معرفتي
محدودة وقليلة، وكان من الطبيعي أن يكون لك أصدقاؤك وأنا لم
أكن أتدمر، ولم يجرحني ذلك .

احمر لونها وهي تقول ذلك بسرعة وبتواضع . فهمت لويزا
هذا الادعاء المحب .

سألتها سيسي:

هل أستطيع أن أحاول؟

أمسكت لويزا بيدها وأجابتها:

أولا ياسيسي هل تعرفين من أنا؟ أنا معترزة جدا بنفسي ،
وقاسية جدا ومضطربة، وقلقة جدا، كما أنني غير عادلة مع نفسي،
ومع أي شخص آخر، فكل شيء يبدو لي عاصفا ومعتما وسيئا. ألا
ينفرك ذلك مني؟

أجابتها سيسي :

كلا .

تابعت لويزا أنا تعسة جدا، وعوضا عن أن أكون متعلمة كما
تعتقدين أنا محتاجة الى من يقودني الى السلام وآلا يضيع ذلك
مني أيضا .

هنا بدت لويزا ببراءة عاطفتها الشجاعة وبروحها العالية ،
وهي الفتاة اليتيمة مثل الضوء الجميل في هذه العتمة التي تتخبط
فيها هي الأخرى . اقتربت لويزا ورمت برأسها على صدر سيسي
وقالت لها :

سامحيني، اعطني عليّ، وساعديني، أعطيني العاطفة التي أحتاج
اليها ودعيني ألق برأسي هذا على القلب المحب .

أجابتها سيسي :

ألقيه هنا، ألقيه هنا يا حبيبتي .

الفصل الثاني سخيّفٌ جدّا

أمضى السيد جيمس هارث هاوس ليلة ونهارا كاملين، وهو في
عجلة من أمره، فقد كان يعتقد أنّ لويزا سوف توافيه حتى يهربا
معا اعتمادا على اتفاق مسبق بينهما . كان يدخل ويخرج، وكان
يقود حصانه كقاطع طرق . وبعبارة أخرى كان كثير الضجر من
الظروف الموجودة، وبعد أن وضع حصانه في (كوك تاون) عبر العاصفة ،
انتظر الليله كلها، وكان من وقت الى آخر يقرع جرس غرفته في

الفندق بعصبية، وهو يتهم البواب بأنه مقصر في احضار رسائل له .
طلع الفجر، وطلع النهار، وأتى اليوم ولم تمله أية رسالة، وذهب الى
البيت الريفي للسيد باي وكانت الأخبار تقول: انّ السيد باي ليس
موجودا والسيدة باي في البلدة، لقد غادرت فجأة البارحة الى البلدة
وانّ عودتها لن تكون في الوقت الحاضر، وفي هذه الحالة لم يجد
أمامه سوى اللحاق بها الى البلدة . وذهب الى منزل زوجها هناك ،
ولكنها لم تكن موجودة . دخل الى المصرف فرأى أنّ السيد باي لم
يعد والسيدة سبارست غير موجودة . من لديه استعداد بحق الاله
لمصاحبة مخلوقة كالسيدة سبارست ؟ هذا ما فكر فيه جيمس . ولما
سأل جيمس توم عن السيدة سبارست أجابه :

لا أدري فلقد خرجت باكرا . انّ هذه المرأة مليئة بالغرابة
فأنا أكرهها .

سأله جيمس :

آين كنت الليلة الماضية ياتوم؟

أجابه توم :

آين كنت الليلة الماضية؟ تعال، أنا أحب ذلك، كنت بانتظارك
ياسيد هارث هاوس . وتسالني أيضا آين كنت ؟ أنت لاشك تعني آين
كنت أنت ؟ أجابه جيمس :

لقد تعذّر عليّ القدوم، لقد تأخرت .

تمتم توم :

تأخرت ،كلانا تأخر فأنا قد تأخرت أيضا، وبقيت أنتظر حتى
قدوم آخر قطار . وانه لعمل ممتع أن تخرج في ليلة كهذه وتعود

الى منزلك مشيا على الأقدام في خلال مستنقع من الماء . ولقد
اضطرت الى النوم في البلدة بعد كل ذلك .

آين ؟

آين ؟ في فراشي في منزل باوندر باي .

هل رأيت شقيقتك ؟

أجابه توم وهو يحدق فيه :

هل أستطيع رؤية شقيقتي وهي تبعد خمسة عشر ميلا ؟

لعن جيمس في سرّه هذه الاجابات السريعة التي كان يلقي بها

توم، وأخذ يتساءل بينه وبين نفسه المرة المائة :

ماذا يمكن كل هذا أن يعني؟ ووصل الى شيء واضح وجلي هو

أنه سواء كانت السيدة باي في البلدة أو كانت خارجها، وسواء

أتصرف معها بتسرّع في وقت سابق لأوانه - وهذا كان يصعب عليه

فهمه - أم فقدت الشجاعة أم تمّ اكتشاف أمرها أو حدث خطأ أو

حظ فعليه أن يتصدى لحظه مهما كان نوعه . وكان الفندق الذي

ينزل به بمنزلة الوتد الذي يرتبط به، وما عدا ذلك فإن كل ما

سوف يحدث سوف يحدث . لذا قال السيد جيمس محدثا نفسه :

سواء انتظرت رسالة عداثية تصلني أو اجتماعا أو احتجاجا

نادما أو مصارعة عداثية وصديقي باي الذي تعود لي طبيعته جدا

في ظروف كهذه، فسوف أتعشى . وباي سوف يفوز اعتمادا على وزنه

فهو أضخم مني .

ولذلك قرع السيد جيمس الجرس وتمدد على أريكة وأمر باحضار

العشاء له الساعة السادسة مع قطعة من لحم داخله . ولكنه كان

قلقا ومتوترا جدا، فقد مضت الساعات ولم يتلق أي نوع من التفسيرات بل لقد ازداد توتره وقلقه أكثر فأكثر. كان من المستحيل حتى قبل تناوله العشاء أن يتجنب المشي الدائم على السجادة وهو ينظر عبر النافذة، ويستمع إلى وقع خطوات قرب الباب. وكان هذا يحدث كلما سمع صوت خطوة تقترب من الغرفة فيصبح أكثر حرارة. ولكن بعد العشاء تحوّل النهار إلى مساء، والمساء إلى ليل، ولم يحدث أن تمّ أي اتصال به ومن ثم طلب احضار شمعة وصحيفة. وحاول عبثا طوال مدة نصف ساعة قراءة الجريدة عندما حضر الخادم وأبلغه بطريقة غامضة ومعتذرة أنه مطلوب.

عذرا ياسيدي . أنت مطلوب اذا سمحت .

هذه الملاحظة اعتادت الشرطة استخدامها لالقاء القبض على اللصوص مما دعا السيد جيمس إلى سوء ال الخادم بسخط وغضب :

ماذا تعني بحق الشيطان بكلمة مطلوب ؟

أجابه الخادم:

عذرا ياسيدي، فهناك سيدة شابة في الخارج تود رؤيتك في

الخارج .

آين ؟

خارج هذا الباب ياسيدي .

هرع السيد جيمس إلى الباحة، فوجد امرأة شابة لم يرها من قبل، تلبس بأناقة، وكانت تبدو هادئة جدا، وجميلة جدا، وبعد أن أدخلها إلى الغرفة ووضع لها كرسيًا لاحظ على ضوء الشمعة أنها أجمل مما رآها منذ قليل. كان وجهها شابا وبريشا، وتعبيراته

وملامحه محببة، لم تكن خائفة معه أو مرتبكة أي ارتباك عندما أصبحا وحدهما.

سألته :

هل أتكلم الآن مع السيد جيمس هارث هاوس ؟

تكلم جيمس بينه وبين نفسه قائلاً :

نعم أنا جيمس، وأنت صاحبة أجمل عيني مملوءة تين بالثقة رأيتهما في حياتي، وصاحبة صوت جدي جداً، على الرغم من كونه هادئاً .

قالت له سيسي :

أنا لا أدري ياسيدي كيف أنّ أخلاقك وأنت سيد محترم تسمح لك بالارتباط بأمور أخرى .

صعدت الدماء الى وجهه وهي تحدثه بهذه الكلمات ، بينما نادته سيسي بكلامها قائلة :

وأنا واثقة من أنك ستبقي زيارتي هذه سرية، وأن تبقي ما سأقوله لك سرا، وسوف أثق بذلك إذا أعطيتني وعدا. بذلك .
أجابها :

أو كمدلك أنه باستطاعتك أن تثقي بي .

هنا تابعت سيسي كلامها قائلة :

أنا كما ترى شابة وحيدة، وعندما حضرت لزيارتك لم أتلّق نصيحة أو تشجيعاً من أحد.. كانت رغبتني هي التي تحركني .

فكر جيمس وهو يراقبها، ولكن هذه شجاعة كبيرة، وفكر جيمس في أنّ بداية محادثتهما كانت غريبة، ولا يدري الى أين سيصل

معها فيها .

سألته سيسي :

أعتقد أنك تعلم من أين أتيت توا، ومن تركت عند قدومي؟

أجابها :

لقد أمضيت مدة عصيبة جدا في خلال الساعات الأربع والعشرين
الآخيرة، ولقد بدت لي وكأنها سنوات طويلة . وكل ذلك بسبب
امرأة ولكي أمل .

قاطعته :

لقد تركتها منذ ساعة .

فسألها :

أين ؟

أجابته :

عند والدها .

تضاعف قلق السيد جيمس وفكر:

لا شك في أنني لا أدري إلى أين سنصل .

تابعت سيسي قولها: وصلت البارحة إلى منزل والدها ووصلت
هناك مضطربة جدا، وكانت فاقدة الوعي طوال الليل، وأنا أعيش في
منزل والدها وكنت معها، وكن واثقا ياسيدي من أنك لن تراهنا
ثانية مادمنا أحياء .

زفر السيد جيمس نفسا طويلا وإذا ما وجد نفسه رجلا في وضع
لا يعرف معه ماذا يمكنه أن يقوله، فلقد وجد جيمس نفسه محاصرا .
فالحزن الطفولي الذي كانت تتكلم به زائرتة، وعدم خوفها المحتم ،

وصدتها الذي وضع كل الزيف جانبا، وانسياقها التام وراء نفسها وهي تتحدث بجدية تامة في الموضوع الذي أتت من أجله . كل ذلك إضافة الى اتكاليها على وعده اياها والذي أخجله هو نفسه . مثل شيئا بالنسبة اليه لم يعتد عليه وقد علم أنّ أيا من أسلحته المعتادة سوف تسقط أمام ذلك ويودي بأية مقاومة، لذا لم يستطع أي شيء أن يسمعه . وأخيرا نطق بهذا التصريح المفزع الذي هو بكل ثقة مريبك جدا .

ولكن هل يمكنني أن أسألك اذا كنت قد كلفت بنقل هذه المعلومات اليّ بهذه الكلمات الياثسة، من السيدة التي نتكلم عليها؟ أجابته سيسي :

أنا لم أكلف من لدنها .

هنا تعلق الرجل الغريق بقشة وقال :

مع احترامي لرأيك، ومن دون أي شك في اخلاصك لي أسمح لنفسي بأن أقول لك انه لا يزال هناك أمل في عدم هجرة تلك السيدة نهائيا .

أجابته :

لا يوجد أدنى أمل . فالموضوع الأول لقدومي الى هنا ياسيدي هو أن أوكد لك أنه لا أمل في أن أتكلم معها ثانية .

أجابها :

ولكن اذا لم أستطع أو اذا أردت أن أكون عنيدا...

أجابته :

لا يوجد أمل .

نظر اليها جيمس هارث هاوس بابتسامة غير معدقة ولكن
تفكيرها كان أعلى من تفكيره، لذا لم تكن تأبه لابتسامته . عَضَّ
على شفته وأخذ بعض الوقت حتى يمعن في التفكير ثم قال :
حسناً، إذا كان الأمر بهذه التعاسة فأنا لن أظلم السيدة ،
ولكنك قلت أنك لم تستأذنيها من أجل أن تأتي الى هنا ؟
أجابته :

الأذن الوحيد الذي لدي هو حبي لها وحبها لي . فقد كنت معها
منذ قدومها الى المنزل، ولقد أعطتني ثقتها وعرضت أشياء عمن
شخصيتها وزواجها . آه ياسيد هارث هاوس أعتقد أنك تثق بمـ
أقوله .

كلامها وأسلوبها كان لهما أعمق الأثر في نفسه . فقال لها :
أنا لست انساناً من النموذج الأخلاقي، وأنا لا أدري أبداً أنني
أخلاقي، إلا أنني انسان فاسد، ولكنني أؤكد لك أنه لم يكن لدي
نِيَّات سيئة، ولم أكن أهدف الى أن أسبب لها أي يأس أو أن أعرضها
للشكوك، أو أن استغل فرصة أن والدها كالألة وأخاها جرو وزوجها
ذئب . لقد انزلت من خطوة الى أخرى بطريقة شيطانية .

كان يتكلم بطريقة المستهترة والسخيفة . صمت جيمس مدة من
الوقت ثم تابع وفي حديثه دلائل على فقدان الأمل والغضب قائلاً :
بعد الذي عرضته عليّ الآن، أرى أنه لا يمكنني أن أرفض طلبك
بعدم رؤيتي للسيدة .

رفعت سيسي عينيها نحوه بينما تابع جيمس قوله :

أعتقد أنك تودين ذكر موضوع آخر أليس كذلك ؟

أجابته :

بلى .

سألها جيمس : هل يمكنك أن تأتمينني عليه ؟

أجابته سيسي بمزيج من اللطف والحزم :

وأسلوبها هذا هو الذي هزمه .

إنّ الحل الوحيد الباقي لك هو أن تتركها حالا ونهائيا، وأنا واثقة من أنها الطريقة الوحيدة من أجل التخفيف من الأذى والخطأ الذي ارتكبته، وذلك هو العزاء الوحيد الباقي لك. أنا لا أقول إنّ هذا كاف، ولكن هذا شيء مهم، ولذا فإنه من دون معرفة أي شخص آخر سواي أطلب اليك مغادرة هذا المكان الليلة وعلى أن تعدني بالآ تعود أبداً .

لم يوءثر به شيء سوى ايمانها الصريح في حقيقة ماتقوله وصوابه .

سألها جيمس :

ولكن هل تعلمين مدى ماتطلبين؟ فأنت لاتعلمين أنني هنا للقيام بعمل له صفة حكومية، وأنا أؤكد لك أنّ هذه هي الحقيقة، ولكنها لم تتأثر بذلك سواء كان ذلك حقيقة أو غير ذلك .

تابع جيمس قوله :

اضافة الى أنني وبعد التعرف على الكثيرين هنا في هذه البلدة يبدو من السخرية أن أغادر بطريقة كهذه .

أجابته سيسي :

أنا متأكدة من أنّ هذه هي طريقة الإصلاح الوحيدة، ولولا ذلك

لما كنت قد تكبدت مشقة المجيء .

تطلع الى وجهها وقال، وهو مضطرب جدا :

أقسم بشرفي أنني لا أعرف ماذا أقول .

وتابع جيمس قوله :

إذا كان عليّ أن أقوم بعمل سخيف كهذا، فهذا مرده فقط الى

الثقة التي أوليتني اياها .

أجابته سيسى :

سوف أثق بك، وأنت سوف تثق بي .

هنا تذكر جيمس ليلته التي قضاها مع الجرو، وأحس في نفسه بأنه هو الجرو، وقال بعد أن تطلع الى أسفل وأعلى، وبعد أن ضحك، ثم عبس ومشى في الغرفة : أنني لم أر رجلا في موقع أسخف من موقعي هذا، ولكنني لأرى مخرجا لي من هذا الطريق . وما سوف يحدث سوف يحدث ويجب أن أتصرف .

وقفت سيسى وهي سعيدة . بالنتيجة التي وصلت اليها، ولمع وجهها بإشعاع، وتابع جيمس كلامه :

اسمحي لي أن أخبرك أنه لم يكن يمكن أي سفير أو سفيرة التكلم معي والتأثير فيّ بهذا النجاح الذي حققته . ولقد كنت مغلوبا في كل الاتجاهات . فهل تسمحين لي بالتعرف على اسم عدوتي ؟

سألته السفيرة :

اسمي ؟

نعم فهو الاسم الوحيد الذي يهمني معرفته هذه الليلة . أجابته :

سيبي جوب . أجابها جيمس :

اعذريني ولكن اسم عائلته ؟

أجابته سيبي :

أنا لست سوى فتاة فقيرة . والدي كان مهرّجا متجوّلا، ولقد هجرني وأشفق عليّ السيد غرند، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش في منزله .

غادرت سيبي، بينما قال جيمس وهو يحدث نفسه :

كان ينقصني هذا من أجل اكتمال الهزيمة . قال هذا وهو يفوص في الأريكة . الهزيمة الآن يمكنني أن أعدها كاملة . فتاة فقيرة فقط . مهرّج متجوّل فقط . أنا بالفعل هرم ضخم من الاخفاق . قرّر الهرم الضخم أن يترك هذا المكان ويذهب الى القاهرة ، الى بلاد النيل .

أخذ قلما وكتب الملاحظة الآتية الى شقيقه :

عزيزي جاك ، انتهى الأمر في (كوك تاون) . فلقد سئمت من هذا المكان، وسأذهب وراء الجمال، عواطفي لك . جيم .

قرع جيمس الجرس .

أرسل لي خادمي الى هنا .

ذهب الى الفراش ياسيدي .

أخبره أن يستيقظ ويحضر المحفظة .

وكتب جيمس ملاحظتين إضافيتين أحدهما للسيد باي معلنا فيها عن مغادرته البلدة، والأخرى للسيد غرند وقبل أن يجف حبر رسالته كان قد غادر تاركا وراءه المدافع الطويلة في كوك تاون

وهو يستقل عربة القطار .

وبما أنه سيري أن الأشخاص ذوو أخلاق فإن السيد جيمس قد حصل على بعض الراحة الذهنية بعد ذلك، ولا سيما بعد مغادرته المكان . ولكن الموضوع لم يكن كذلك قط ، فقد كان ينتابه احساس سري بأنه قد أخفق، وأنه سخي ، وأنه خجل جدا من نفسه .

الفصل الثالث كثير الصراحة

تعرّضت السيدة سبارست التي لاتهدأ لبرد حاد، وتحول صوتها الى همس ، وبدأت تعطس عطسا مستمرا . وقد لاحقت السيد باي من مكان الى آخر، حتى وجدته في الفندق في شارع القديس جيمس ، وقد فجرت قنبلتها وأخبرت السيد باي بكل ما حدث بين زوجته وبين السيد جيمس . كان أول ماقام به السيد باي من تصرف هو دفع السيدة سبارست التي سقطت على الأرض ، وبعد أن أغمى عليها ساعدها حتى استردت أنفاسها، ودفع بها الى أول قطار ليعود بها الى كوك تاون وهي ميتة أكثر منها حية .

وقد أدركت السيدة سبارست أنها وصلت الى نهاية رحلتها، ولكنها عرفت مقدار الأذى الذي تعرّضت له . أما السيد باي فلم يبال بمدى مرض السيدة . سبارست ، بل قادها في عربة الى ستون لودج الى السيد غرند . قال السيد باي :

الآن ياتوم غراد غرند - قال ذلك وهو يدخل الى غرفة حميه - .
هنا يوجد سيدة تدعى السيدة سبارست وأنت تعرف السيدة سبارست

فهي تريد أن تخبرك شيئاً . سوف يصيبك بالكم .

قال السيد غرند :

ألم تصلك رسالتي ياسيد باي ؟

أجابه باي :

لم تصلني رسالتك . الوقت الآن ليس وقت رسائل، ولا أحد يحدث

جوزيه باي بموضوع الرسائل، وهو في حالة كهذه يمرّ بها .

قال السيد غرند بلهجة معاتبة :

باوندرباي أنا أتكلم على رسالة خاصة جداً كتبتها لك

بخصوص لويزا . أجابه باي :

توم غراند غرند وهو يضرب على الطاولة بيده مرات عدة بقوة :

أنا أتكلم على رسول خاص أتى إليّ بموضوع متعلق بلويزا .

السيدة . سبارست التي وقفت من دون أن يظهر صوتها، وهي تريد أن

تدلي بشهادتها، وكانت ملامحها متألّمة جداً، وقد تلعثت كثيراً

فلم يستطع السيد باي تحمّل ذلك فدفعها، وبينما كان يدفعها

بيده . قال لها :

إذا كنت لاتستطيعين أن تبوحى بذلك ياسيدتي فدعيني أقل

ذلك بنفسى . ياسيد غرند أنّ السيدة . سبارست وجدت نفسها مصادفة

في موقع سماع محادثة بين ابنتك وصديقك المخلص السيد جيمس

هارث هاوس .

قال السيد غرند :

أصحيح هذا؟ صاح باي :

أصحيح هذا؟ الحديث الذي جرى بينهما . أجابه غرند ليس من

المهم أن تعيد مضمون الحديث يا باي فأنا أعرف ما حدث . أجابه
باي بكل قوة وهو مدهوش من الهدوء والسكون الذي تقبل به تقبل
حموه الأمر :

أنت تعرف . وهل تعرف أين هي ابنتك الآن ؟

من دون شك انها هنا .

أجابه باي :

هنا ؟

أجابه غرند :

عزيزي باي أرجو أن تكبح هذه الثورة . فلويزا هنا فسي
اللحظة التي استطاعت أن تحل نفسها من المقابلة مع الشخص الذي
تتكلم عليه ، وأنا في أشد الأسف . انني كنت الوسيلة في تقديمه
اليك وقد هرعت لويزا الى هنا من أجل الحماية ، ولم أكن في المنزل
طوال مدة ساعات عدة عندما استقبلتها هنا . فلقد أسرعت بالقطار
الى البلدة وركضت من البلدة الى هذا المنزل ، وكانت العاصفة على
أشدها ، وقد وقفت أمامي في حالة ذهول كامل ، وبقيت هنا منذ ذلك
الوقت ، ودعني أنصحك من أجلك ومن أجلها أن تكون أكثر هدوءاً .

تطلع السيد باي بهدوء حوله دقائق عدة بكل الاتجاهات ما
هذا اتجاه السيدة سبارست ، ومن ثم تطلع نحوها بفضافة وقال
لهذه المرأة التعسة : والآن ياسيديتي سوف نكون سعيدين اذا سمعنا
منك أي اعتذار بسيط تجددين أنه من المناسب تقديمه قبيل أن
تغادري البلدة . بخطوات سريعة .

أجابته السيدة سبارست همسا : أعصابي في الوقت الحاضر متعبة

ومهتزة، وصحتي أتلفت في خدمتك، وكل ما أستطيع فعله الآن هو
البكاء .

وهذا ما فعلته حتما .

حسنا ياسيدتي أعتقد أنه بما أنك من عائلة جيدة فعليّ أن
أضيف أنّ هناك شيئا آخر تستطيعين اللجوء اليه . هذا الشيء هو
العربة التي أتيت بها، وسوف تسمحين لي بأن أوصلك اليها، وأن
أرسلك الى المصرف حيث يكون أفضل ما يمكن أن تفعله هو أن تضعي
قدميك في ماء حار جدا، وأن تشربي بعض الخمر، بعد ذهابك الى
الفراش .

بهذه الكلمات مد السيد باي يده الى المرأة الباكية، وعاد
وحيدا بعد أن أوصلها . ثم تابع حديثه موجهها كلامه الى السيد
غرند :

بما أنك تريد أن تتحدث معي فهذا أنا ذا، ولكنني أقول لك
بصراحة انني لست بوضع مريح وغير مسرور بهذا العمل، ولا أعد
نفسي باي في الوقت الذي كنت قد عوملت فيه معاملة جيدة. بوساطة
ابنتك كما هو مفروض أن يعامل جوزيه باي بوساطة زوجته . وأنا
أقول : إنّ لك رأيك ولي رأيي وإذا كنت تريد أن تقول لسي أي
شيء في هذه الليلة خلاف هذه الملاحظة الصريحة فيفضل ألا تفعل
اليوم ذلك .

عزيزي باي بدأ السيد غرند كلامه بهذه العبارة .

أجابه باي :

عذرا عموما إنّ الهدف هو السيطرة عليّ. أنا لا أتكلم معك

بلطف وأنا لست مهذبا، وإذا كنت تحب التهذيب فأنت تعرف من أين
تحصل عليه . فلك أصدقاءك السادة ، وسوف يخدمونك في هذا المجال
بحسب رغبتك . أجابه السيد غرند :

يا باي نحن معروضون للخطأ . قاطعه باي :

ولكنني كنت أعتقد أنك لا ترتكب أخطاء .

أجابه : ربما فكرت في ذلك ولكنني أقول اننا كلنا معروضون
للخطأ، وأنا حساس بالنسبة الى تأثرك السريع وممتن لذلك، وأرجو
ألا تربط بين موضوع السيد جيمس وموضوعي . فأجابه باي :
أنا لم أذكر اسمه قط .

أجابه السيد غرند بصبر ونوع من الخضوع :

يا باي أنا أشك في أننا لم نستطع أن نفهم لويزا فهما
جيدا .

أجابه باي :

ماذا تعني بنحن ؟

أجابه غرند :

اذن دعني أقل : انني لم أفهم لويزا، وأنا حائر اذا كنت
على صواب في طريقة تثقيفها وتعليمها .

أجابه باي :

ها أنت ذا قد أصبت الهدف ، وأنا أوافق معك على ذلك ، فلقد
وجدت ما تريد في النهاية الثقافة أليس كذلك ؟ ولسوف أخبرك
ما تكون الثقافة . ما أدعوه ثقافة هو أن تكون خارج الأبواب تجني
المحاصيل من دون أن تسبب أذى لأحد، هذا ما أدعوه ثقافة .

وهنا دار جدال خفيف بينهما، ولكن السيد غرند قال للسيد

باي :

لأرغبة لي بالمناقشة .

وقال له :

أنا أهدف إلى اصلاح مايمكن اصلاحه اذا كان يمكنني فعل ذلك

وأنا أعتقد أنك يا باي سوف تساعدني بروح طيبة لأنني حزين جدا .

أجابه باي :

أنا لا أفهمك حتى الآن، ولذلك ليس يمكنني اعطاؤك أي وعد .

أجابه غرند :

في خلال ساعات عدة مرّت عرفت عن شخصية لويزا أكثر مما

عرفته في خلال سنوات . وأنا أعتقد يا باي على الرغم من أنك

سوف تفاجأ بما أقول ولكنني أعتقد أنّ هناك مميزات في لويزا لم

تكن واضحة ومبيّنة . ولذا أقترح أن توافقني على تركها بعض

الوقت حتى تستريح، فذلك من أجل سعادتنا معا . فلويزا كانت

دائما طفلي المفضلة .

انزعج باي كثيرا لدى سماعه ذلك من غرند، ولكنه أخفى

سخطه وقال :

هل تود ابقائها هنا مدة؟ فأجابه: أود أن تترك لويزا هنا

بزيارة وأن تبقى مع سيسي التي تفهمها والتي تثق بها . أجابه

باي ويداه في جيبه : أفهم من كل ذلك ياتوم غراد غرند أنّ رأيك

هو أنّ هناك بعض الخلاف بين السيدة باي وبينني .

أجابه والدها بأسى: أخشى أن يكون هناك خلاف عام في الوقت

الحاضر بين لويزا وبين كل العلاقات التي وضعتها على اتصال بها .

أجابه باي :

والآن انظر أنت هنا ياغرند .

قال ذلك وشعره منفوش بغضب، ورجلاه متفرقتان، ويداه أكثر

غوصا في جيبه .

لقد قلت مالديك، وأنا سوف أقول ما لديّ. أنا رجل من كوك

تاون . أنا جوزيه باوندر باي . أنا أعرف قرميد هذه البلدة ،

وأعرف مدافئ هذه البلدة وأعمالها . أعرف كل ذلك . فالعمال

أناس واقعيون، وعندما يقول لي رجل أي شيء من مميزات خيالية

أقول لهذا الرجل دائما انني أعلم ماذا يعني، وهو ماترييده

ابنتك . وبما أنّ رأيك أنّ تحصل على ماترييده فأنا أوصيك أنّ

تو من ذلك لها، لأنها ياتوم غرند لن تحصل على ذلك مني .

أجابه السيد غرند:

يا باي كنت آمل بعد رجائي لك أنّ تتغير لهجة حديثك .

انتظر لحظة .

أجابه باي :

لقد قلت ما عندك كما أعتقد وسمعتك الى الآخر، فعليك أنست

أيضا سماعي اذا أردت ، فلا تجعل نفسك غير منصف ، وغير ثابت ،

لأنني، على الرغم من أنني متأسف ، أرى توم غرند قد وصل الى وضعه

الحالي، ولكنني متأسف أيضا لأنه وصل الى هذا الوضع المخور. والآن لقد

فهمت منك أنّ هناك من الخلاف شيئا بيني وبين ابنتك، وأنا سوف

أرد عليك بأن ابنتك لاتعرف فضائل زوجها، وأنا صريح في حديثي

معك كما أتمنى .

قال السيد غرند:

ياباي ماتقوله غير محق .

أجابه باي :

حقاً أنا سعيد في أن أسمعك تقول ذلك، وأنه عندما يقول لي (توم غراد غرند) أنّ ما أقوله غير محق وغير منطقي فهذا يعني احساساً شيطانياً. لو سمحت لي فسوف أتابع : أنت تعرف أصلي ، وأنت تعرف أنه طوال سنوات عدة من حياتي لم أنتعل حذاءً، ومع هذا سواءً أصدقت أم لم تصدّق بأنّ هناك سيدات ، سيدات مولات ينتمين الى عائلات على استعداد لعبادة الأرض التي أمشي عليها .

سدد باي ذلك مثل السهم الى رأس والد زوجته .

وتابع باي قوله : ومادامت ابنتك أبعد ماتكون عن كونها سيدة، وأنت تعرف أنني لأهتم بأشياء كهذه، ولكن هذه هي الحقيقة وأنت ياتوم لاتستطيع تغيير ذلك، ولكن لماذا أقول هذا كله ؟

أجابه غرند بصوت منخفض :

أخشى أنك تقول ذلك من أجل أن تستغني عني .

قال باي :

اسمعني ولاتقاطعني قبل أن يأتي دورك، أنا أقول ذلك لأنّ مجموعة من السيدات اللواتي ينتمين الى الطبقة الراقية دهشن من الطريقة التي تتصرّف بها، وهن يعجبين كيف أنني أتحملها، وأنى لي أن أتحمّل أكثر من ذلك ؟

قال غرند وهو يقف :

يفضل يا باي ألا تتكلم كثيرا هذه الليلة كما أعتقد .

على العكس يا غرند كلما تكلمنا اليوم كان ذلك مفيدا . فدعني
أقل كل مالدي ثم لأهتم عندما نتوقف . وهنا أصل الى سؤال
يمكنه أن ينهي المسألة . ماذا تقصد بالعرض الذي قدمته
الآن ؟

ماذا أقصد يا باي ؟

قال باي :

عرض الزيارة .

أجابه غرند :

أنا أقصد أنني أتمنى أن توافق بأسلوب صديق للسماح للويزا
بزمن راحة وتأمل هنا فقد يؤدي ذلك الى تغييرات أفضل من
جوانب كثيرة .

من أجل تهدئة أفكارها حول موضوع الخلاف بيني وبينها ؟

أجابه غرند :

حسنا اذا أخذت الموضوع بهذه الصورة .

سأله باي :

ما الذي جعلك تفكر في ذلك ؟

قلت سابقا : انني أخشى أننا لم نفهم لويزا فهما جيدا ،
هل أطلب الكثير يا باي ، وبما أنك الأكبر منها سنأ فعليك أن
تساعد من أجل وضعها في الطريق الصحيح .

انتفض باي قائلا :

لأريد سماع المزيد حول ذلك ، فانا أعرف تماما لماذا

تزوجتها كما تعرف أنت ،ولايهم لماذا أخذتها ،فهذا موضوع يهمني
أنا وحدي .

قال له غرند :

كنت سأعلق ياباي بأننا كلنا على خطأ حتى أنت ،لذلك ولذا
فعلينا التحمل معا .

رد عليه باي: سوف أنهي هذه المسألة الآن. أما الآن فلا أريد
أن أتشاجر وإياك حول هذا الموضوع ياتوم غراد غرند، وحتى أكون
صادقا معك ليس هناك مايفيد سمعتي في أن أتشاجر في موضوع
كهذا .

أما بالنسبة الى صديقك فيستطيع أن يفعل مايريده ،وإذا ما
صادفته فسوف أقول له مافي ذهني، وإذا لم أصادفه فهذا لايهم .
أما بالنسبة الى ابنتك التي جعلتها السيدة باي، وكانت ستكون أفضل
لو تركت عائلتها، وإذا لم تحضر الى المنزل غدا الساعة الثانية
عشرة ظهرا فسوف أفهم أنها تفضل أن تبقى بعيدة ،وسوف أرسل
لها ثيابها، وسوف تحزن، وسوف تكون أنت مسؤولا عنها مستقبلا .
وما سوف أقوله للناس عموما حول الخلاف الذي حدث بيننا هو الآتي :
أنا جوزيه باي ولي تربيتي، وهي شقيقة توم غرند ولها تربيته،
والحصانان لن يجريا معا . وأنا معروف بأنني رجل غير عادي وسوف
يعرف الجميع أن المرأة التي أرتبط بها يجب أن تكون غير عادية
أيضا .

قال السيد غرند له :

دعني، وأرجوك صادقا في أن تفكر مليا في هذا ياباي قبل أن

تأخذ قرارا كهذا .

قال له باي وهو يضع قبعته على رأسه :

أنا دائما أصل الى قرار وأنا أفعله، أفعله فورا، وأنا
أستغرب من الملاحظة التي أعطيتني اياها، وقد قلت لك قرارى وليس
لدى المزيد يمكننى قوله . لتصبح على خير .

هنا ذهب السيد باي الى منزله في البلدة، وذهب فورا الى الفراش
وفي اليوم الثاني وبعد مرور خمس دقائق بعد الثانية عشر أمر
بترتيب أغراض السيدة باي ومن ثم أرسلها الى منزل والدها ونشر
اعلانا يفض بيع المنزل الريفي وتابع حياته أرمل .

الفصل الرابع منقول

بعد أن بدأ باي يعيش حياة الترمّل، أراد أن يثبت أن حياته
العائلية لا تؤثر في عمله . وفي الأسابيع الأولى من ترمّله، كان
يقوم كل يوم بالتحريات من أجل معرفة من قام بالسرقه حتى أن
الضباط الذين كانوا يحققون في القضية تمثّوا لو أنّ السرقه لم
تقترب، وكان السيد باي يجري تحقيقاته حول السيد ستيفن بلاك بول
الذي لم يعرف عنه شيء وبقيت أخبار المرأة العجوز غامضة بالنسبة
اليهم، وأعلن السيد باي عن مكافأة قدرها عشرون باوندا، لمن
يدله على ستيفن، وقدم في النشرة أوصافا كاملة عن ثيابه،
وملامحه، وطوله، وتصرفاته، وفصل فيها كيف أنه غادر البلدة وبين
الاتجاه الذي سلكه آخر مرة، وألصق المنشور على الحيطان، حتى

يستطيع الجميع رؤيته .

وفي ذلك الصباح قرعت أجراس المصنع ، وكان الجميع يقـسـروـن المنشور بعيون مستفربة ، أما من لم يكن يعرف القراءة فكان يستمع الى الأصوات العالية التي كانت تقرأ بصوت عال ، وبعد أن أكـمـل العمال يوم العمل وخرجوا الى الشارع ، كان لا يزال هناك الكثير من الناس يقـرـؤون العنوان .

بدأ وكيل العمال سلاكير بوج يخطب في العمال حول موضوع ستيفن ، وأخذ يهاجمه ويقول :

انه لص وقاطع طريق ، وأن الجميع في البلدة بريئون منـه وخجلون من سوء أمانته غير الشريفة .

كان الرجال والنسوة مازالوا في الشوارع ذاهبين الى منازلهم عندما قالت سيسي للويزا :

هناك السيد باي وأخوك السيد توم وامرأة شابة تدعى راشيل وهي تزعم أنها تعرفك .

قالت لها لويـزـا :

ماذا يريدون ياسيسي العزيزة ؟

يريدون رؤيتك .

كانت راشيل تبكي ويبـدو عليها الغضب .

قالت لويـزـا :

أبي - وكان حاضرا - أنا لا أستطيع رفض رؤيتهم بسبب سوف

يوضح نفسه . هل سيأتون الى هنا ؟

وعندما أجابها والدها بالإيجاب ذهبت سيسي لاحتضارهم وعادت

توا معهم، كان توم آخر من وصل وظل واقفا قرب الباب .

قال لها زوجها بانحناءة باردة :

السيدة باي أرجو ألا أكون أزعجك، فهذه ساعة غير مناسبة ،
ولكن هنا فتاة شابة قالت أشياء جعلت زيارتي ضرورية . لقد رفض
توم تقديم أي شيء من التوضيحات ،لذا عليّ أن أستفسر منك عن
الموضوع .

قالت لها راشيل :

لقد أتيت مرة قبل الآن ياسيدتي، وكنت أقف أمامك، سعل توم .

أجابت راشيل :

لقد رأيتني ياسيدتي مرة قبل الآن أليس كذلك ؟

سعل توم مرة ثانية .

أجابتها لويزا :

بلى .

نظرت راشيل بفخر نحو السيد باي وقالت :

هل يمكنك أن توضحني ياسيدتي من كان هناك وأين ؟

أجابتها لويزا :

ذهبت الى المنزل الذي يقطن فيه ستيفن بلاك بول، في الليلة التي
فصل فيها من عمله ورأيتك هناك . وكان هناك أيضا . وكان هناك
امراة عجوز لم تتكلم وقد رأيتها بمعوبة، وكانت تجلس في زاوية
مظلمة، وكان شقيقي معي .

تمتم باي :

لماذا لم تستطع قول ذلك ياتوم ؟

وعدت شقيقتي ألا أقول شيئا، إضافة إلى أنها تروي قصتها

رواية جيدة جدا، لذا فلا عمل لي . قال الجرو ذلك بقسوة .

تابعت راشيل :

أرجو آيتها السيدة الشابة أن تخبرينا لماذا، أو في أية

ساعة شيطانية أتيت إلى ستيفن في تلك الليلة ؟

أجابت لويزا ولونها أكثر امتقاعا :

شعرت بعطف نحوه وكنت قد تمنيت أن أعرف ماذا سيفعل،

وتمنيت أن أقدم له مساعدة .

قال لها باي :

شكرا لك ياسيديتي .

قال ذلك وهو مجبر .

سألته راشيل :

هل عرضت عليه مبلغا من المال . أجابتها نعم، ولكنه رفضها

وأخذ باوندين فقط .

تطلعت راشيل مرة ثانية إلى السيد باي، قال السيد باي :

حتما فقصتك السخيفة وغير المنطقية قد تأكدت تماما .

قالت راشيل :

سيديتي إن ستيفن الآن يسمى لصا في المنشورات الرسمية فسي

البلدة، وقد عقد اجتماع اليوم تكلم فيه عليه بطريقة مخجلة،

ستيفن الشاب الشريف المملوء ثقة، الأفضل

هنا خانتها مواطنيها وبدأت تبكي .

قالت لويزا :

أنا آسفة جدا جدا .

أجابت راشيل :

أتمنى أن تكوني آسفة، ولكني لأعرف فمثلكم لا يعرفوننا ولا يهتمون بنا ولا يمتنون إلينا بصلة . أنا لست متأكدة لماذا أتيت في تلك الليلة، لا أستطيع أن أقول سوى أنك أتيت لهدف في نفسك من دون الاهتمام بالمآزق الذي سببته لهذا الشاب الفقير . وأقول انك أبديت تعاطفا كبيرا معه في ذلك الوقت ، ولكني لأعرف .
لم تستطع لويزا أن تراقبها بسبب شكوكها غير العادلة ، فقد كانت مؤمنة جدا بفكرتها عن الرجل .

تابعت راشيل وهي تشهق بالبكاء :

وعندما أفكر كيف أنّ الفتى كان ممتنا جدا، وهو يظن أنك جيدة. جدا معه، عندما أفكر كيف وضع يديه على وجهه المتعصب لاختفاء الدموع التي سببتها له ... آه أتمنى أن تكوني آسفة ولكنني لا أدري . لا أدري .

هنا قال الجرو:

أنت نموذج جميل .

قال ذلك بغضب وهو يتحرك في زاويته المظلمة :

كيف تأتين الى هنا بهذه الاتهامات ويجب أن يرمى بك خارجا ،

لأنك لاتحسنيين التصرف .

لم ترد عليه أما بكاءؤها الخافت فكان الشيء الوحيد المسموع

الى أن تكلم السيد باي قاعلا :

تعالى، فأنت تعرفين ما عليك فعله، هذا ما يجب أن تفكري فيه .

قالت راشيل :

أنا مشمئزة من أن يراني أحد هنا بهذه الصورة، ولكن هذه هي المرة الأخيرة . عندما قرأت ماكتب ياسيدتي عن ستيفن ذهبت توا الى المصرف ،حتى أقول انني أعلم أين يوجد ستيفن ولاعطاء وعد مؤكد بأنه سيكون هنا خلال يومين . لم أستطع مقابلة السيد باي أما أخوك فأبعدني عن المكان، وحاولت أن أجذك ولم يكن ذلك مستطاعا فعدت ثانية الى العمل، وعندما خرجت اليوم ليلا، هرعت لأسمع مايقال عن ستيفن، لأنني متأكدة من أنه لن يرضى بمايقال عنه، وسوف يعود لتكذيب ذلك، ثم ذهبت ثانية للبحث عن السيد باي، ووجدته، وقلت له كل ما أعرفه، ولكنه لم يصدق كلمة واحدة مما قلته، وأحضرني الى هنا .

وافقها السيد باي على ذلك، وهو يضع يده في جيوبه، وقبعته على رأسه، وقال :

أنا أعرفكم وأعرف هذا الخطر من الناس قبل اليوم وأنا أعرف أنكم لاتموتون أبدا . بسبب حاجتكم الى الكلام والآن أوصيك ألا تتكلمي بل عليك أن تقومي بالعمل الموكل اليك .

أجابته راشيل :

كتبت الى ستيفن بالبريد الذي أرسل بعد ظهر اليوم كما أرسلت له مرة من قبل منذ ذهابه، وسوف يكون هنا خلال يومين في أقصى حد .

إذا سأقول لك شيئا أنت لاتعرفين أنك كنت أيضا موضع شك في هذا العمل ومكتب البريد لم ينس أيضا، وما سوف أقوله لك أنه

لن يصل الى مكتب البريد، أية رسالة كتبت الى ستيفن فربما كنت
مخطئة ولم تكتبي شيئا .

قالت راشيل وهي تتطلع نحو لويزا :

ياسيدتي بعد أسبوع من ذهابه أرسل لي رسالة وحيدة أخبرني
فيها أنه أجبر على البحث عن عمل باسم مستعار .

هنا صرخ باي :

ياالهي هل غير اسمه ؟ هذا من سوء الحظ أيضا، وهو يعد نوعا
من الشك بعدالة المحاكم، كما أظن، فكيف يكون لانسان بريء أسماء
عدة . قالت راشيل بينما عادت الدموع الى عينيها :

ماذا ياسيدتي بحق الاله يستطيع هذا الشاب الفقير أن يفعل،
فالسادة ضده أولا، والرجال ضده ثانيا، إن كل مايريده هو العمل
بسلام، وفعل مايشعر بأنه صواب . ألا يستطيع رجل أن يملك روحا
لنفسه أو عقلا له ؟ هل يجب أن يتبع هذه الجهة أو تلك، أو يصد
من دونه مثل الأرنب البري ؟

أجابتها لويزا :

بالطبع . أنا متعاطفة معه من كل قلبي، وأتمنى أن يبرئ نفسه

أجابتها راشيل :

لاتخافي ياسيدتي، فهو متأكد من براءته .

أجابها السيد باي :

كل التأكيد كما أعتقد، لأنك ترفضين أن تخبرينا أين هو .

قالت راشيل :

انه لن يأتي إلا لتبرئة نفسه، وسوف يفع أمام كل من جرح

شخصيته الطيبة جدا - ولقد أخبرته بما حدث ضده وسوف يصل الى هنا خلال يومين في أقصى حد . أضاف السيد باي :

إذا وصل قريبا فسوف تتاح له فرصة مبكرة لتبرئة نفسه ، أما بالنسبة اليك فلا يوجد لدي شيء ضدك ، فما أتيت من أجله وأخبرتني به كان صحيحا ، ولقد أعطيتك الرسائل لاثبات صحته ، وهذا نهاية الأمر . أتمنى لكم جميعا أمسية طيبة وعليّ أن أذهب الآن للتمعن أكثر في هذا الموضوع .

تحرك توم مبتعدا عن زاويته عندما تحرك السيد باي ، وذهب معه وكانت العبارة الوحيدة التي تفوه بها توم عندما أراد الذهاب :
لتمبح على خير يا والدي ، إضافة الى نظرة الى أخته ثم غادر المنزل .
جلس السيد غرند صامتا عندما قالت لويزا بهدوء لراشيل :
لن تفقدي الثقة بي في أي يوم عندما تعرفيني أفضل .
أجابتها راشيل بأسلوب أفضل :

انه ضد طبيعتي ألا أثق بأحد ، ولكن عندما أفقد الثقة تماما فلن أستطيع أن أبقي أية أشياء بعيدة عن ذهني ، وأستميحك عذرا في حرصي عليك ، فانا لا أفكر فيما قلته الآن ، ولكن ربما سأفكر فيه مرة ثانية ، مع الشاب حول المصرف في تلك الليلة ، وبذلك يستطيع أن يشرح عند عودته ما حدث ويكون جاهزا . أجابتها راشيل :
نعم يا عزيزتي ، ولكنني لا أستطيع تخمين سبب ذهابه الى هناك .
فهو لم يعتد الذهاب الى هناك ، لم يكن ذلك المكان من ضمن طريقه ، فطريقه هي طريقي نفسها .

وقفت سيسي بجانبها تسألها : أين تسكن وان كانت ستأتي غدا

مساءً للسؤال إذا كان ثمة أخبار من ستيفن. قالت راشيل :

أشك في أن يستطيع القدوم حتى اليوم الثاني .

قالت سيسي :

إذا فسوف آتي في الليلة الثانية أيضا .

وبعد موافقة راشيل على ذلك وذهابها، رفع السيد غرند رأسه

وقال لابنته :

عزيزتي لويزا أنا لم أشاهد ذلك الرجل قط ، هل تعتقدين أنه

متورط ؟

أعتقد يا والدي أنني صدقت ذلك بصعوبة كبيرة ، ولكنني لا أعتقد

ذلك الآن .

سألها :

هل يدل مظهره وأخلاقه على أنه شريف جدا ؟

أجابته لويزا :

شريف جدا .

كان شعر السيد غرند قد بدأ لونه يتغير فقد بدأ رماديا

كما بدأ أنه عجوز . هزعت لويزا بخوف وشغف نحوه ، وجلست قريبا

منه والتقت عيناها بعيني سيسي . احمرت سيسي خجلا ، ووضعت لويزا

يديها على شفتيها .

في الليلة الثانية عندما عادت سيسي الى المنزل وأخبرت

لويزا أن ستيفن لم يأت .

أخبرتها ذلك بهمس . أما في الليلة التي تلتها أيضا فقد أخبرتها

المضمون نفسه ، إضافة الى أنه لم يسمع عنه شيء ، وتكلمت باللهجة

الخائفة والمنخفضة نفسها، ومنذ اللحظة التي تبادلتا فيها النظرات لم يذكر اسمه بصوت عال حتى انه لم يعد موضوع السرقة يذكر عندما كان السيد غرند يتكلم عليها. مضى اليومان الموعودان بل ثلاثة أيام وثلاث ليال مضت ولم يعد ستيفن، ولم يسمع عنه شيء. وفي اليوم الرابع ذهب راشيل الى المصرف وأبرزت الرسالة التسيي أرسلها اليها مع عنوانه الموجود فيه. أرسل رسل الى ذلك المكان، وتطلعت كل البلدة الى أن يحضر ستيفن. وفي اليوم التالي في خلال كل ذلك الوقت كان الجرو مرافقا للسيد باي مثل ظله. وكان منفصلا جدا ويتكلم بصوت متقطع. وفي الساعة التي كان يتوقع أن يصل فيها الرجل المشكوك فيه كان الجرو في المحطة، وكان متأكدا من أن ستيفن لم يظهر. كان الجرو محقا فقد عاد الرسل وحدهم ولم يعرف أي مخلوق شيئا عن ستيفن. الشك الوحيد في كوك تاون كان : هل كتبت له راشيل كي يعود، أو لتحذره حتى يهرب وفي هذه النقطة كانت الآراء مختلفة. بعد أسبوع أصبح الجرو يملك جرأة وقحة، وأخذ يتحدى. ترى هل الشخص المشكوك فيه هو السابق؟ سؤال جميل وإذا لم يكن هو السارق فأين هو؟ ولماذا لم يعد؟

الفصل الخامس والعشرون

بضعة أيام وليال مضت، ولم يظهر ستيفن، فلماذا لم يعد؟ في كل ليلة كانت سيسي تذهب الى مسكن راشيل وتجلس معها في غرفتها النظيفة. كل نهار كانت راشيل تعمل مثل كل الناس. لم يتغيّر

شيء من روتين العمل مهما حدث حتى الأيام والليالي أيضا، عسلاوة
على أنّ اختفاء ستيفن أصبح موضوعا عاما مثله مثل أية آلة في
كوك تاون. قالت راشيل :

أنا أشك في أنّ يكون هناك عشرون شخصا في كل هذا المكان
يثقون بالشباب المسكين الآن .

كانت تتحدث مع سيسي وهما جالستان في غرفتها المضاءة بشمعة
واحدة، كانت سيسي قد قدمت في الظلام بانتظار عودة راشيل من
العمل حيث جلستا قرب النافذة من دون حاجة الى ضوء أقوى يفسد
حديثهما الحزين. تابعت راشيل قولها :

إنّ تحدثي معك هو رحمة لي، فانا أتزوّد بالأمل والقوة منك ،
وأنت تعلمين أنه على الرغم من أنّ المظاهر كلها ضده، إلا أنه سوف
يثبت براءته .

أجابتها سيسي :

أنا أو من بذلك من كل قلبي، وأنا أشعر أنّ الثقة التسي
تملكينها جعلتني غير قادرة على أن أشك فيه وكأنني أعرفه منذ
سنوات ، كما تعرفينه أنت .

قالت راشيل والرعدة في صوتها :

أنا يا عزيزتي أعرفه في خلال تلك السنوات ، أنه مؤمن بكل
ما هو جيد وشريف ، والله يعلم أنني حتى آخر نفس من حياتي لن
أفقد الثقة بستيفن .

قالت سيسي :

نحن كلنا في (الودج) نؤمن أنه سينال البراءة عاجلا أو آجلا .

قالت راشيل :

عندما أفكر في أنك تأتيين الى هنا لمشاهدتي ومرافقتي
وجعلي أحس بالطمأنينة، على الرغم من أنني في مجال الشك أشعر
بحزن أكبر لأنني تكلمت كلاما يخلو من الثقة مع السيدة الشابة .

سألته سيسي :

أنت لم تعودي شاكة فيها ياراشيل الآن .
أجابتها : الآن وبعد أن قربت بيننا أكثر، كلا . ولكن لا أستطيع
في كل الأوقات أن أزيح الفكرة من ذهني، وكان صوتها قد انخفض
كثيرا فأصرت سيسي على أن تسمعها باهتمام كلي .

تابعت راشيل :

أنا لا أستطيع في كل الأوقات أن أزيح من ذهني عدم الثقة
بشخص ما لا أستطيع أن أفكر من هو، وكيف، ولماذا حدث ذلك؟ ولكنني
متأكدة من أن أحدا ما قد أبعده عن الطريق حتى لا ينكشف .

أجابتها سيسي وهي شاحبة :

هذه فكرة مخيفة .

قالت راشيل :

انها فكرة مخيفة أن أفكر في أنه قد قتل .
ارتبكت سيسي وشحب لونها أكثر فقالت راشيل :
عندما تخطر لي هذه الفكرة وهي تأتي أحيانا، على الرغم من
أنني أفعل المستحيل لابعادها، فأمشي كثيرا بسرعة أميالا وأميالا،
فلذا سأمشي معك الآن الى المنزل . قالت سيسي :
ربما مرض في طريق العودة، وفي هذه الحال ثمة أماكن عدة

للتوقف على الطريق .

أجابتها راشيل :

ولكنه سئل عنه هناك ولم يكن موجودا . وتابعت :

لقد أرسلت له مالا كي يحضر راكبا، اذا مالم يكن يحمل

نقودا .

أجابتها سيسي :

دعينا نأمل أن يكون الغد أفضل ياراشيل، تعالي الى الهواء

الطلق .

خرجتا معا وكان الطقس جميلا وبعض العمال يتمشون في زاوية

الشارع، ولكن عددهم كان قليلا، إذ أنّ الوقت كان عشاء .

قالت لها سيسي :

لست مستعجلة الآن ياراشيل، ولقد بردت يدك .

أجابتها :

لقد تحسّنت الآن ياعزيزتي لوأستطيع فقط المشي قليلا

واستنشق الهواء النقي، إذ انني عندما لأستطيع المشي أشعر

بالاضطراب والضعف .

قالت لها سيسي :

ولكن يجب ألا تضعفي ياراشيل لأنه في أي وقت يحتمل أن

تطلبني للوقوف مع ستيفن . غدا، هو السبت، واذا لم تأت أخبر

فدعينا نذهب الى البلدة صباح الأحد، هل تذهبين ؟

نعم ياعزيزتي .

كانتا في ذلك الوقت في الشارع الذي يقع فيه منزل السيدباي،

وكان ثمة قطار قد وصل حالا الى البلدة فرأتا السيدة سبارست تحاول فتح الباب ،ولمّا رأتهما طلبت اليهما الوقوف .

قالت السيدة سبارست انها لمصادفة ،ثم تابعت :

اخرجي ياسيدتي ومكانت تكلم أحدا ما في داخل العربية .

هنا خرجت المرأة العجوز الغامضة . صرخت السيدة سبارست بصوت

عال اتركها فلاأحد يلمسها ،انها لي ،تعالى ياسيدتي ،تعالسى والّا

فسوف نجرّك جرّا .

دخلت سيّسي وراشيل والسيدة سبارست والمرأة الغامضة الى غرفة

الجلوس في منزل السيد باي . قالت السيدة سبارست دعا السيد باي يأت

الى هنا ،وأنت ياراشيل هل تعرفين من تكون هذه المرأة العجوز؟

أجابت راشيل :

انها السيدة بفلر .

أجابت السيدة سبارست بابتهاج :

كنت أعتقد ذلك ،أحضرا السيد باي وليبتعد الجميع من هنا .

تمتعت العجوز بضع كلمات .

فقالت السيدة سبارست بصوت مرتفع :

قلت لك عشرين مرة اني لن أتركك حتّى أسلمك له شخصيا .

حضر الآن السيد باي بصحبة السيد غرند والجرو وقد كانوا

مجتمعين في الطابق العلوي . بدت الدهشة أكثر من الترحيب على

السيد باي اثر رؤية هذه المجموعة غير المدعوة في غرفة الجلوس ،

فقال :

والآن ماالموضوع ياسيدة سبارست ؟

أجابته :

سيدي من حسن حظي أنني سأقدم لك شخصيا شخصا رغبت كثيرا في
ايجاده ، وحرصا مني على راحتك نجحت في احضار هذا الشخص معي
بعد تعرّفي لبعض المعاب ، ولكن المعاب من أجل خدمتك تعد متعة
النسبة الي .

أجابها :

ماذا تعنين بذلك يا سيدة سبارست ؟

أجابته :

سيدي .

زمجر قائلا :

لماذا لا تهتمين بأمورك الخاصة فقط ، كيف تجرئين على أن
تضعي أنفك في شؤوننا العائلية ؟

هنا جلست السيدة سبارست وكأنها مجمدة على الكرسي وهي
تنظر بقوة الى باي .

صاحت السيدة بفر وهي ترتجف : ولدي الحبيب لا تلمني ، انها
ليست غلطتي ، فلقد قلت لهذه السيدة مرات عدة انّ مات فعله لمن
يسرك ، ولكنها فعلت ذلك .

سألها باي :

لماذا سمحت لها باحضارك ؟ ألم تستطيعي أن تضربيه أو أن
تفعلي أي شيء آخر لها .

قالت له :

يا ولدي لقد هددتني بأنه اذا لم أحضر فسوف تحضرني بالقوة.

وكانت السيدة بفلر تنظر بضجر نحو الجدران ثم قالت :
يا بني العزيز عشت دائما بهدوء وسرية، ولم أكرس الشرط مرة
واحدة، لم أقل قط اني والدتك، فقد كنت معجبة بك عن بعد، واذا
كنت أحضر الى البلدة من وقت الى آخر فلاختلس نظرة اعجاب اليك ،
كنت أفعل ذلك من دون أن يعرفني أحد يا حبي ثم لاألبث أن أذهب
ثانية .

كان السيد باي يتمشى في الغرفة بعصبية ويده في جيبه عندما
خاطب السيد غرند العجوز بقوله :

أنا أعجب ياسيدة من كونك تنادين السيد باي بياولدي وهو
وأنت في سنكما، ولاسيما بعد المعاملة غير الانسانية وغير
الطبيعية التي عاملته بها .

صرخت العجوز :

أنا غير طبيعية وغير انسانية تجاه ولدي الحبيب ؟

أجابها غرند :

نعم ياسيديتي فعندما هجرتك وهو طفل لترعاه جدة سكيرة .
أجابت العجوز: أنا هجرت ولدي، فليسامحك الله ياسيدي علسي
تحليلاتك الشريرة، وعلى نذالتك حول ذكرى أُمي العجوز التي توفيت
بين يدي قبل ولادة جوزيه .

كانت تتكلم بجدية وبحزن، حتى ان السيد غرند صدم، وقال

بلهجة أرق :

هل تنكرين اذا ياسيديتي أنك تركت ابنك لينشأ في حفرة ؟

أجابته :

جوزيه في حفرة، لاشيء من هذا .

صحيح ياسيدي فابني الحبيب يعلم وسوف يعلمك أنه، على الرغم من أنه نشأ في عائلة متواضعة، ولكنها عائلة أحبته بقدر مما تستطيع، وأنه بعد أن توفي والده، وهو في الثامنة من العمر، ساعدته والدته لأن ذلك كان واجبها، وكانت تجد متعة وفخرا في ذلك، وجعلته شابا قويا، ولقد شق طريقه بنفسه حتى أصبح غنيا وناجحا، وسوف أدعك ياسيدي تعلم أن ابني، على الرغم من أن والدته كانت تعمل في دكان صغير يخصصها في القرية، إلا أنه لم ينسها قط، بل كان يرسل اليّ ثلاثين باوندا سنويا أكثر مما كنت أحتاج اليه . إذ كنت أقتصد منه، وكان شرطه الوحيد أن أبقى بعيدة، وألا أقوم بأية مباهاة به وألا أزعه . وهذا ما حدث بالفعل فأنا لم أزعه قط، بل كنت فقط أختلس النظر اليه، وأنا أشك في أنني إذا بقيت هنا فسوف أقوم بكثير من الأشياء غير الملائمة، وأنا مسرورة بهذا الوضع، وأستطيع أن أفخر بابني جوزيه بيني وبين نفسي، وأستطيع أن أحب لأجل الحب فقط، وأنا خجلة منك ياسيدي بسبب شكوكك وافتراءاتك .

هذا ما قالته أخيرا السيدة بفلر، ثم تابعت : وأنا لم أقف هنا من قبل ولا أريد أن أقف هنا عندما يرفض ابني الحبيب ذلك، وأنا لم أكن لأكون هنا الآن لو لم أحضر من دون ارادتي . ومن العار أن تتهمني بأنني كنت أما سيئة لابني، الذي يقف الآن هنا وسوف يبرهن لك خلاف ذلك .

وقف الحاضرون في غرفة الجلوس وهم يتمتمون بشفقة مع السيدة

بفلر وشعر السيد غرند أنه قد وضع نفسه في موضع حرج، بينمما قال السيد باي الذي لم يتوقف عن الذهاب والمجيء في الغرفة وقد تلون وجهه وأصبح أكثر امتقاعا :

أنا لأعرف تماما كيف حدث هذا التجمع في منزلي، ولكنني لست ملزما بأن ألقى محاضرة حول شؤونني العائلية، ولا أنوى فعل ذلك، لذا فمن يتوقع أن يسمع شرحا مني حول هذا الفرع في الموضوع فسوف يصاب بخيبة أمل، ولا سيما توم غراند غرند. أما بالنسبة الى سرقة المصرف فهناك خطأ ارتكب، وهذا الخطأ مرتبط بموضوع الشك في أمي. ولو لم يكن هناك أمور فوق العادة لما كان قد حدث ما حدث. وأنا أكره هذا النوع من الفضول، لتصبحوا على خير .

وعلى الرغم من أنّ السيد باي قد أخذ الأمور بهذه الطريقة، وهو يفتح الباب من أجل أن يغادر جميع الحاضرين، كان هناك نوع من الخجل يلفه، وبدأ عليه نوع من الذل، وكأنه قد بنى سمعته على الأكاذيب، أما تفاخره فقد جعل الحقيقة بعيدة عنه بعدا كبيرا. حتى أنّ المرأة غير المحظوظة السيدة. سبارست التي سقطت من بسرج اعتزازها الى حافة اليأس لم تكن في حالة سيئة مثل سوء حالة السيد باي من كوك تاون.

غادرت راشيل وسيسي المنزل بعد أن تركتا السيدة بفلر لتنام في منزل ابنها تلك الليلة، وقد تمشتا معا حتى مدخل ستون لودج حيث افترقتا. ولقد مشى معهما السيد غرند وهو يتحدث باهتمام كبير من ستيفن بلاك بول .

أما الجرو توم الشاب فكان دائم التقرب من السيد باي، وكان

يشعر أنه في أمان مادام باي غير مستطيع اكتشاف أي شيء، ولم يعد، من ثم، يزور شقيقته قط، وقد رآها مرة واحدة منذ ذهابها الى المنزل .

كان شمة خوف قائم يعيش في تفكير شقيقته لويزا، وهي لم تصرّح بهذا الخوف قط، وهو الخوف المتعلق بأخيها الذي يلفه الغموض. فقد كانت تشك في أنّ توم هو الذي سرق المصرف، وهذا الاحتمال القائم بدا لسيبي أيضا في هذا اليوم، عندما تكلمت راشيل على شخص ما سوف يلحق الضرر بعودة ستيفن، ولذا فقد أراحه من الطريق. لم تتكلم لويزا على اشارة أي شك حول موضوع أخيها وارتباطه بالسرقة، ولم تتكلم صراحة هي وسيبي حول هذا الموضوع، بل أنّ كل مافي الأمر هو أنّهما تبادلتا نظرات عندما كان السيد غرند يتساءل عن السارق الحقيقي، وهذه النظرات كانت تدين توم ولكن من دون كلام. لقد فهمتا ذلك معا ليلة أخرى ويوما آخر، ولم يظهر ستيفن بلاك بول فأين الرجل ؟ ولماذا لم يعد؟

الفصل الثامن فونز النجم

كان هذا الأحد يوما مشرقا من الخريف . كان باردا عندما التقت سيبي وراشيل لتتمشيا معا في البلدة. مشتا بعيدا عن الدخان المنتشر في البلدة ووصلتا الى المحطة وهي نقطة وسطى بين البلدة واستراحة السيد باي. وعلى الرغم من أنّ أماكن كثيرة من الأرض، كانت مليئة بأكوام من الفحم فقد كان هناك بقع خضراء

أخرى ، وكانت الأشجار موجودة ، والعصافير تغرد ، وكان هناك نسيمات لطيفة من الهواء ، والسماء صافية زرقاء ، وكل شيء كان ساكنا ، والجو كان جميلا ومنعشا . كانت الفتاتان تمشيان عبر الحقول ، وكانت أشعة الشمس مرتفعة ، جلستا للراحة ولم تريا أحدا مدة طويلة ولم يخرق عزلتهما أحد .

قالت سيسي :

المكان هادئ جدا يراشيل ، والطريق يبدو وكأننا أول من يصله هذا الصيف .

ثم تابعت سيسي حديثها قائلة :

آه يراشيل هنا وقع أقدام أيضا .

وركضت ووضعت يديها حول عنق راشيل فقالت راشيل :

ما الموضوع ؟

أجابتها سيسي :

لأدري ، هناك قبعة ملقاة على العشب رجعتا معاً . أخذت راشيل القبعة ثم بدأت تبكي وتنوح ، فاسم ستيفن بلاك بول كسان مكتوبا بخط يده على القبعة من الداخل .

الشاب المسكين ، الشاب المسكين ، لقد قتل هنا ، استفسرت سيسي قائلة : هل يوجد دماء على القبعة ؟ كانت الفتاتان تخافان من النظر الى القبعة ، ولكن وبعد فحصهما اياها لم تجدا أي أثر للعنف داخلها أو خارجها . كانت موضوعة هناك طوال أيام عدة لأن المطر والغبار مازالا عليها . نظرتا بخوف حولهما من دون حركة ، ولكنهما لم تريا أي شيء .

قالت سيسي :

راشيل سوف أمشي قليلا وحدي .

كانت تهم بالتقدم عندما أمسكتها راشيل بيديها الاثنتين وهي تصرخ، فأمامهما وعند قدميهما كان هناك حفرة مغطاة بعشب كثيف، تراجعتا، ووقفتا على ركبتيهما، وكل واحدة تخبىء وجهها وراء رقبة الأخرى .

صرخت راشيل قاشلة :

يا الهي، يا الهي انه هنا في الأسفل وأخذت تصرخ، ولم تستطع سيسي اسكاتها بأية طريقة، وكان عليها أن تمسك بها بقوة حتى لاتقع في الحفرة . عزيزتي راشيل، راشيل بحق الاله فكري في ستيفن فكري فيه . وفي الأخير وبعد أن كررت عبارات كثيرة استطاعت سيسي أن تهدئها .

قالت لها راشيل :

ربما مايزال ستيفن على قيد الحياة . فأنت لن تتركيه ممددا ولو للحظة واحدة في هذه الحفرة اذا استطعت احضار نجدة له .

أجابتها راشيل :

كلا، كلا، كلا .

لاتتحركي من هنا من أجله . دعيني أذهب وأسمع، اقتربت من الحفرة وصرخت بأعلى صوتها وهي تناديه ولكن أحدا لم يجيب، صرخت مرة ثانية وانتظرت ولم تسمع أي حواب . فعلت ذلك عشرين مرة أو ثلاثين، وأخذت حجرا مغيرا وألقته في الحفرة، ولم تسمع سقوط الحجر . وقفت سيسي واليأس يملأ قلبها الشجاع، وتطلعت حولها

ولمّا لم تر أحدا يساعدها قالت لراشيل :

يجب ألا نضيع دقيقة واحدة . يجب أن نذهب في اتجاهيين مختلفين لطلب النجدة . سوف تذهبين في الطريق الذي أتينا منه ، وأنا سأذهب في الطرف الثاني، أخبري كل من تريئه بما حدث . فكري في ستيفن فكري في ستيفن .

نظرت سيسي الى وجه راشيل وأيقنت أنها تستطيع الاتكـال عليها الآن، وبعد أن توقفت لحظات حتى تراها وهي تركض . استدارت وركضت كما لم تركض من قبل .

اركضي سياسيسي . اركضي بحق الاله لاتتوقفي ولو لأخذ النفس ، وكانت تقوّي نفسها وهي تفكر تفكيرا طويلا في عدد من الأفكار . كانت تركض من حقل الى آخر، ومن مكان الى سواه ، كما لم تركض كذلك من قبل حتى وصلت الى مأوى فيه محرّكات ، وكان ثمة رجلان يستلقيان طلبا للراحة .

فكرت أولا في ايقاظهما، ثم باخبارهما مارأته، كانت تتحدث وهي تلهث، كانت أعصابهما على نار مثلها تماما . وكان أحـد الرجلين قد شرب وهو سكران، ولمّا سمع أنّ رجلا قد وقع في الحفرة غطس رأسه بماء وسخ، وعاد وهو صاح، ركضت سيسي مع الرجلين ثم وجدت رجلا على حصان فذهب معهم لمساعدتهم من أجل حياة انسان أو موته، وأرسلت رسالة الى لويـزا مع الرجل صاحب الحصان، وفي هذه الأثناء كانت قرية كاملة على أتم أهبة للمساعدة، وقد خرج رجالها وهم يحملون شموعا ومصابيح وحبالا وكل ما هو ضروري، وتجمعوا جميعا من أجل الذهاب الى مكان الحفرة القديم، كانت قد مرّت ساعات

وساعات ،منذ أن تركت الرجل وهو مدفون حيًا في الحفرة، ولم تعد تتحمل أن تتركه أكثر من ذلك، وعادت بسرعة يصحبها نصف دزينة من العمال، ومن ضمنهم الرجل السكير الذي كانت الأنباء قد جعلته يصحو، وكان أفضل الجميع .

ولمّا وصلوا الى مكان الحفرة وجدوها بالوضع الذي تركتها عليه. نادى الرجال في الحفرة واستمعوا كما فعلت تماما، وفحصوا حافة الحفرة ثم جلسوا بانتظار قدوم الآلات التي يريدونها من أجل البدء بالعمل على انتشال ستيفن من الحفرة .

كان صوت أية حشرة في الجو يحرك أوراق الأشجار، وكل همسة بين الرجال كانت توّدي الى ارتجاف سيّسي، لأنها كانت تعتقد أنها تسمع صراخا منبعثا من قاع الحفرة، ولكن الرياح كانت تمطر، ولم يصل أي صوت من الحفرة الى السطح. جلس الرجال على العشب ينتظرون وينتظرون، وبعد أن انتظروا بعض الوقت بدأت مجموعات من الناس التي سمعت نبأ الحادث تتوافد، ثم وصلت الآلات لتقديم المساعدة الحقيقية، وفي وسط كل ذلك عادت راشيل، وكان برفقتها طبيب سب جراح، أحضر معه بعض الأدوية والخمر، ولكن التوقع في أن يكون الرجل مازال على قيد الحياة كان ضعيفا جدا.

كان هناك الآن عدد كاف من الناس، للبدء بالعمل، والرجل الذي كان سكيراً وضع نفسه على رأس العمال، ووضع بموافقة من الجميع، وكان أن صنع حلقة حول الحفرة، وإلى جانب المتطوعين للعمل سمح في البداية لسيّسي وراشيل بالوجود في هذه الحلقة، ولكن بعد ذلك وفي خلال النهار، حضر السيد غرند ولويزا والسيد باوندر باي والجرو .

جلست سيمي وراشيل على العشب ،بينما نزل رجلان في الحفرة وهما مربوطان بالحبال وأصبحت الساعة الخامسة بعد الظهر في ذلك اليوم الخريفي، وتم إرسال شمعة لمعرفة مدى وجود الهواء في هذه الحفرة، بينما وقف ثلاثة رجال أو أربعة يراقبون مايجري، وبعد أن شد الحبل الى أعلى وقف مائتا الرجل والمرأة الذين كانوا يراقبون مايجري، بينما كانت تنفذ الطريقة التي تم بها انتشار جسم الرجل من الحفرة، وبعد أن تم انزال المنقذ بدت هناك صيحة عامة، هل هو ميت أو حي، وعندما صاح الرجل الذي كان سكيرا: انه حي، صدرت صرخة كبيرة جماعية، وقد امتلأ الكثير من العيون بالدموع، وأضاف الرجل الذي كان سكيرا: ولكنه مجروح جرحا كبيرا. أيمن الطبيب؟ انه مصاب بجروح خطيرة ونحن لنعلم كيف سنعالجه. تشاور الجميع، وتطلعوا بقلق نحو الطبيب. عندما سئل بعض الأسئلة، وأخذ يهز برأسه عندما تلقى الأجوبة، كانت الشمس تغرب. انتهت المشاورات بأن عاد الرجل الى أسفل الحفرة وهو يحمل بعض الخمر وبعض الأشياء الأخرى الصغيرة معه. وتمت تعليمات الطبيب، أحضر بعض الرجال حاجزا من العيدان وصنع الآخرون فراشا سميكاً من الثياب وحمل الطبيب بعض الضمادات من المناشف والمحارم. وعساود الرجل النزول بعد أن زود بالتعليمات حول ما سيفعله، وكان الظلام قد بدأ يخيم على المنطقة.

أبلغهم الرجل أنّ سيقن قد سقط على نفايات عبثت فيها الحفرة، وأنّ السقطة كانت قوية وأنه مستلق على ظهره واحدى يديه معقوفة تحته حيث مازال ثابتا في مكانه، أما يده الثانية فقد

حركها بعد أن تذكر وجود بعض الخبز واللحم في جيبه ليلتئمهما .
كان ستيفن قد حضر توا بعد أن كتبت له راشيل، ومشى طوال
الرحلة وكان في طريقه الى منزل السيد باي عندما سقط في الحفرة
عندما كان يعبر هذه القرية الخطيرة في هذا الوقت الخطير . لقد
كان بريئا من التهمة التي وجهت اليه ، ولم يستطع أن يرتاح حتى
يأتي ويبرئ نفسه . قال الرجل الذي نزل الى قلب الحفرة :
انه وبالرغم من أن ستيفن يستطيع التحدث الآن إلا أنه سوف
يموت قريبا لأن إصابته خطيرة .

عندما أصبح كل شيء جاهزا الى هذا الحد، فإن الرجل مازال
يأخذ تعليماته من رفاقه ومن الطبيب ، وبعد أن بدأت الرافعة
بإنزاله اختفى في الحفرة ومدّ الحبل . كان الجميع قد وقفوا
ينتظرون ، وبعد مدة أعطيت لهم الإشارة ، وبدأ الرجال بالرفع حيث
بدأ لهم خيال شخص فقير محطّم يمسك بالحبل إضافة الى الرجل الآخر
الذي نزل لانقاذه .

سرت تمتمة خفيفة مليئة بالشفقة ، وبكت النساء بصوت عال ،
عندما تمّ نقله بهدوء تام ومدد على الفراش . في البداية لم
يقترب منه أحد سوى الطبيب وحاول قدر الامكان مساعدته ، ثم نادى
راشيل وسيبي ، وفي ذلك الوقت كان وجه ستيفن الشاحب - الواهن -
ينظر الى السماء أما يده اليمنى المكسورة فكانت مستلقية عارية
خارج الغطاء .

أعطوه شرابا ومسحوا وجهه بالماء ، وعلى الرغم من أنه كان
مستلقيا من دون حراك وهو ينظر الى السماء إلا أنه تبسم وصاح :

راشيل .

جلست راشيل على العشب بقربه ، وانحنى عليه ، حتى أصبحت

عينها بينه وبين السماء

حبيبتي راشيل .

أخذت يده . ضحك ثانية وقال :

لاتذهبي .

سألته :

هل تشعر بالم كبير يا حبيبي ستيفن ؟

أجابها :

كنت متألماً ، أما الآن فلا . آه ياراشيل انّ هذا لتشويش منذ

البداية حتى النهاية .

تشويش ؟

بدا طيف نظرتة القديمة يقول هذه الكلمات . تابع قوله :

لقد وقعت يا حبيبتي في الحفرة . قال ذلك من دون أن يغضب

من أحد ، وتابع حديثه الموجه الى راشيل قائلاً :

أختك الصغيرة ياراشيل لم تنسيها أليس كذلك ؟ عليك ألا تنسيها

وأنا الآن قريب منها جداً . فأنت تعلمين كم يعاني المريض ، وكيف

عملت من أجلها ، وكيف كانت تجلس طوال اليوم على كرسيها ، قسرب

النافذة وكيف ماتت وهي شابة صغيرة . آه ياللتشويش ياللتشويش .

اقتربت لويزا منه ، ولكنه لم يستطع رؤيتها ، اذ كان ممدداً

ووجهه نحو السماء .

تابع حديثه الموجه الى راشيل قائلاً :

لو لم يكن كل الأمر مشوشا لما كنا محتاجين الى أن نأتي
الى هنا. لو عرفني السيد باي معرفة صحيحة لما كان اتهمني
بالسرقة، سرقة المصروف ولم يكن ليشارك في، ولكن انظري الى أعلى
ياراشيل انظري .

تابعت راشيل نظرات عينيه فرأت أنه يحدّق في نجم فسي
السماء .

وتابع حديثه :

انه يشع فوقى والألم والمعاب موجودة في الأسفل لقد أضاء
في عقلي وأنا أفكر فيك ياراشيل حتى لقد زال التشويش من
ذهني. عندما استلمت رسالتك اعتقدت أنّ السيدة الشابة لويــزا
وأخاها قد أساءا إليّ معا، وأنّ هناك خطة قذرة بينهما. وعندما
سقطت في الحفرة غضبت منها جدا، وتسرّعت، وكنت غير عادل معها،
مثلما كان الآخرون غير عادلين معي. ولكن وفي خلال حكمنا على
الناس، كما في أعمالنا، يجب أن نتحمّل وأن نصبر. وفي خلال ألـمي
صرت أرى بوضوح أكثر، وجعلت صلاة موتي أنّ على العالم كله أن يـحتمل
أكثر، ويفهم بعضه بعضا فهما أفضل .

بعد أن سمعت لويـزا ماقاله، انحنت صوبه بالاتجاه المقابل
لراشيل، حتى يستطيع رؤيتها . قال لها ستيفن بعد بضع دقائق
صمت :

هل سمعت ؟ أنا لم أنسك ياسيديتي .

أجابته لويـزا :

نعم ياسـتيفن سمعتك وصلاتك هي صلاتي نفسها .

قال لها :

أنت لك أب فهل توصلين هذه الرسالة ؟

أجابته لويزا :

انه هنا هل أحضره لك اذا أحببت ؟

عادت لويزا برفقة والدها، وهي تقف ويدها في يده ويتطلعان
الى معالم وجهه الحزينة .

قال ستيفن للسيد غرند :

ياسيدي سوف تبرئني وتجعل اسمي نظيفا بين الرجال . هذه
المهمة سوف أتركها لك .

اضطرب السيد غرند وسأله :

كيف ؟

أجابه :

سيدي، سوف يخبرك أبناك كيف ؟ اسأله، لن أقدم أية شكوى ،
لن أترك أية كلمة . لقد رأيت ابنك، وتحدثت معه مرة واحدة فقط ،
وأنا لا أطلب اليك سوى أن تبرئني وأنا أثق في أنك ستفعل ذلك .
استعد الحمالون لحمل ستيفن، أما الطبيب فكان قلقا ازاء نقله
من مكان الى آخر، واستعد حاملو المصابيح للسير أمام الحشد وقبل
أخذه، قال ستيفن لراشيل وهو ينظر الى النجم : وأنا عندما أعود
الى نفسي، وأرى النجم يشع عليّ من خلال المعاب ، أفكر دائما في
أنه النجم الذي يرشدنا الى موئل الخلاص . أعتقد أنه النجم نفسه
الذي يشع الآن .

حملوه، ففرح لأنهم يأخذونه في الاتجاه نفسه الذي يبدو أن

راشيل يا حبي لا تتركي يدي، ربما استطعنا أن نمشي معا الليلة

يا حبيبتي .

أجابته :

سوف أمسك بيدك، وأبقى قريبة منك ياستيفن طوال الطريق .
فليباركك الله، ثم حملوه برفق عبر الحقول وعبر الأرض الواسعة،
وكانت راشيل دائماً تمسك بيده . همسات قليلة كانت تعغر الهدوء
الحزين، وكان موكب الجنازة بعد قليل. واذ ماتوفي ستيفن فقد
دله النجم أين يستطيع إيجاد اله الفقراء، وعبر الحزن والغفران
ذهب الى راحته الأبدية .

الفصل السابع اصطیاد الجرو

قبل أن ينفذ الحشد من حول الحفرة، اختفى شخص واحد من
المجموعة، لم يكن السيد باي وظله الجرو قرب لويزا ووالدها، بل
وقفوا على الحياد عندما دعي السيد غرند الى المجموعة، وقد كانت
سيسي المتبرمة لكل ما يحدث قد ذهبت خلف ذلك الظل الحقيق والوغد،
وكان هناك خوف على وجهه وهمسة في أذنه، ومن دون أن ידיر
وجهه تحدث معها بضع دقائق ثم اختفى. اذن فقد اختفى الجرو من
المجموعة قبل أن ينفذ الناس .

عندما وصل الأب الى المنزل، بعث برسالة الى السيد باي، وهو
يتمنى أن يحضر ابنه اليه فوراً، وجاءه الجواب لقد فقد السيد باي

ابنه بالحشد، ولم يره منذ ذلك الوقت وكان يتوقع وجوده في ستون لودج .

قالت لويزا :

أنا أعتقد ياواليدي أنه لن يعود الى البلدة هذه الليلة .

هنا تراجع السيد غرند ولم يقل أي شيء .

في الصباح ذهب السيد غرند نفسه الى المصرف عندما فتح، ولمّا رأى مكان ابنه فارغا ولم تكن لديه الشجاعة منذ البدء للتطلع الى الداخل، عاد أدراجه لمقابلة السيد باي، حيث قال له :

انه وبسبب ظروف سوف يشرحها لاحقا، مضطر أن يرسل ابنه للعمل في مكان بعيد مدة قصيرة . وانه قد قطع وعدا على نفسه بالدفاع عن ستيفن بلاك بول والوصول الى السارق الحقيقي للمصرف . وبعد أن تركه السيد غرند بقي السيد باي واقفا مشدوها في الشارع، وهو منتفخ مثل فقاعات الصابون الكثيرة ولكن من دون جمال .

وذهب السيد غرند الى منزله وسجن نفسه في غرفته وبقي فيها طوال النهار . وعندما دقت سيسي ولويزا بابه قال من دون أن يفتح الباب :

ليس الآن يا أحبائي، بل في المساء .

وعندما رجعتا مساء قال لهما :

لست مستعدا حتى الآن اتركما نني الى وقت آخر .

ولم يأمل شيئا طوال النهار، ولم يطلب شمعة بعد الظلام، لقد

سمعتاه يمشي ذهابا وايابا حتى ساعة متأخرة من الليل .

ولكنه ظهر في الصباح على الفطور في الساعة المحددة، وأخذ

مكانه المعتاد على الطاولة، بدا عليه الكبر والانحناء، ولكن بدا عليه أيضا أنه أصبح أكثر وعيا، ورجلا أفضل مما كان عليه عندما كان يريد في حياته الحقائق فقط . وقبل أن يغادر الغرفة حدد وقتا لهما للقدوم اليه ، وذهب ورأسه الشائب منحني قليلا .

قالت لويزا عندما اجتمعت مع أبيها في الموعد المحدد :
والدي الحبيب ، مازال عندك ثلاثة أطفال، وسوف يكونون مختلفين وسوف أتغير ياوالدي بمساعدة من السماء، وأعطت لويزا يدها الى سيسي وكأنها تعني مساعدتها أيضا .

قال السيد غرند للويزا :
أخوك التعس ، هل تعتقدين أنه قد خطط لهذه السرقة عندما ذهب معك الى منزل ستيفن ؟
أخشى ذلك ياوالدي. فأنا أعلم أنه كان يريد المال كثيرا وأنه قد أنفق الكثير .

قال والدها :
والرجل الفقير ستيفن كان على وشك مغادرة البلدة، فخطر على ذهن توم الشرير أن يشير الشبهات حوله ؟

أجابته لويزا :
أعتقد أنه قد فكر في ذلك ياوالدي عندما ذهبنا معا الى ستيفن، بعد أن طلبت اليه أن يذهب معي، والزيارة لم تفلح معه .

سألها والدها :
هل تحدثت مع هذا المسكين على انفراد ؟
أجابته :

لقد أخذه الى خارج الغرفة، وقد سأله بعد ذلك لماذا فعل هذا، وقدم لي عذرا مقبولا، ولكن منذ الليلة الماضية يا والدي، وعندما أتذكر الظروف التي مرتّ ينتابني خوف في أن أتخيّل حقيقة ماجرى بينهما.

قال لها والدها :

دعيني أعلم اذا ما كانت أفكارك تضع أخاك المذنب في الصورة القاتمة نفسها التي أضعه فيها.

أجابته لويزا وهي ترتعد: أخشى يا والدي أنه يكون قد قدم بعض العروض لستيفن بلاك بول يمكنها أن تكون باسمي وربما باسمه والتي يمكنها أيضا أن تكون قد جعلته يقوم بايمان وشرف، بمالم يفعله من قبل في الانتظار أمام المصرف مدة يومين أو ثلاثة قبل مغادرته البلدة .

أجابها والدها :

هذا وضع جدا، انه تصرف وضع جدا.

وغطى وجهه وبقي صامتا بضع دقائق، وبعد أن استرد أنفاسه قال : والآن كيف سنجده؟ كيف سننقذه من العدالة؟ كيف نستطيع ايجاده فقط؟ عشرة آلاف باوند لي تحدث مفعولا؟

أجابته لويزا :

سيبي قد أحدثت مفعولا يا والدي .

رفع عينيه الى حيث تقف كحورية جميلة في منزله، وقال بلهجة امتنان وشكر: دائما أنت يا طفلي .

أوضحت سيبي وهي تنظر الى لويزا قائلة :

كانت لنا مخاوفنا قبل البارحة، وعندما رأيتك البارحة وقد
أحضرت الى جانب النقالة وسمعت ماحدث لأنني كنت قرب راشيل طوال
الوقت ذهبت اليه ، أي الى الجرو توم، حيث لم يرني أحد، وقلت له :
لاتنظر اليّ . انظر الى حيث والدك . اهرب حالا من أجله ومن
أجلك . كان يرتجف قبل أن أهمل له بذلك، ثم أخذ يرتجف أكثر
وهو يقول :

أين يمكنني أن أذهب ؟ لديّ القليل من المال، ولا أعرف من
سيخبئني ؟ هنا فُكرت في السيرك القديم الذي كان يعمل به والدي .
فأنا لم أنس الى أين يذهب السيد سليري في مثل هذا الوقت من
السنة . وكنت قد قرأت حول سيركه منذ يوم في الصحيفة . أخبرته أن
يسرع الى هناك، وأن يخبرهم باسمه ، وأن يطلب من السيد سليري أن
يخبئه حتى آتي . وقال لي: انه سيصل اليه قبل الصباح، ورأيتــه
يتسلل من ضمن المجموعة . هنا قال الأب :

وربما نستطيع ارساله الى الخارج .

كانت البلدة التي دلت سيسي توم عليها تبعد حوالي ثلاث
ساعات عن ليفربول، ولكن الحذر كان واجبا في خلال الاتصال به ،
لأنّ الخطر صار أكبر بعد أن أصبح توم في موضع الشك، وكان الخوف
من السيد باي من أن يتهور في أية لحظة فيوءذيه ويبلغ عنه .
لذا تمّ الاتفاق على أن تذهب سيسي ولويزا وحدهما اليه،
بينما سوف يذهب الوالد التعس في الاتجاه المعاكس ، وسوف يسلك
طريقا أطول من أجل الوصول اليهم، وأنّ عليه ألا يكشف عن نفسه
للسيد سليري، حتى لا يشكوا في أمره ولئلا يهرب ولده، ولكن الاتصال

يجب أن يتم بوساطة سيبي ولويزا .

وعندما تمّ فهم ذلك جيدا لدى الثلاثة سيبي ولويزا والأب

بدأ وقت التنفيذ .

بعد الظهر ذهب السيد غرند من منزله مباشرة الى البلدة، لأخذ

الخط الذي سيسلكه خلال سفره، وفي الليل بدأت البنّتان جولتهما،

وكان يشجعهما أنهما لم ترى أحدا ممن تعرفانهم .

سافرت الاثنتان طوال الليل، ومنذ الصباح كانتا على بعد ميل

أو اثنين من القرية التي كانتا تقصدانها . وكان أول مارأتاه

عند دخولهما البلدة، هو أطلال سيرك سليري، إذ أنّ المجموعة انتقلت

البارحة الى بلدة أخرى، تبعد نحو عشرين ميلا . وكان الاتصال بين

البلدتين يتم عبر طريق صغير، أما السفر على هذه الطريق فيحتاج

الى التمهّل والبطء . تناولت الفتاتان افطارا سريعا من دون راحة،

وعند الظهر وجدتاه مكان سليري، واقتربت سيبي ولثلا يثيرا أيسة

شبهة وقفتا في الدور ودفعتا رسم الدخول، وكانهما تريدان حضور

السرك، وإذا ما كان السيد سليري هو من يتسلّم النفود فسوف

يعرفهما بالتأكيد، وسوف يتصرّف بفطنة . وإذا لم يكن هناك فسوف

يراهما بالتأكيد في الداخل، وسوف تعلمان ماذا فعل بالهارب، وسوف

يتصرّف أيضا بفطنة .

لذا دخلتا بقلبين خافقين الى الدكان الذي تذكرانه تماما .

كانت اللافتة التي تحمل اسم سليري موجودة، وكل شيء في مكانه،

باستثناء السيد سليري . أما السيد كيد منستر المعروف بكيد بيد

فكان قد كبر في السن، ولم يعد قادرا على اللعب في السيرك، كما

كان في السابق، وهو في الوقت الحالي لم يعد يرى أي شيء سوى المال، وكان هو الواقف أمام الباب يأخذ المال من الداخلين لحضور السيرك. لذا مرت سيسي من أمامه من دون أن يتعرف عليها. بدأت العروض وظهرت ابنة السيد سليري، ودخلت لتقديم عرضها مع مهرج جديد، وهنا ظهر السيد سليري، وهو يقودها الى الداخل. بدأ السيد سليري العرض بضرب المهرج مرة واحدة بسوطه، وقال المهرج: اذا فعلت ذلك ثانية فسوف أرمي الحصان عليه، وبعد هذا العرض فقط تعرف السيد سليري وابنه على سيسي مباشرة، ولكنهما تابعا العرض بكثير من الفرح، ولم يظهر السيد سليري المزيد من التعبير ازاء وجود سيسي. بدأ العرض الطويل قليلا على سيسي ولويزا، وفي الأخير انحنت جوزفين تحية للجمهور، وترك المهرج وحده في الساحة عندما لمست يده كتف سيسي، وأشير اليها أن تخرج .

أخذت سيسي لويزا معها، واستقبلها السيد سليري بشقة منفردة، وقال السيد سليري :

سيسيليا يسرني جدا أن أراك. كنت دائما المفضلة معنا، وقد قدمت لنا الكثير من الأعمال الجيدة في خلال وجودك معنا. يجب أن تري رفاقنا يا عزيزتي، قبل أن نتكلم على العمل، والآن فانهم سوف ينزعجون كثيرا، وقلوبهم سوف تنكسر حزنا، ولا سيما النساء منهم . هذه هي جوزفين، وقد تزوجت من شيلدرز وأنجبت صبيا، وعلى الرغم من أنه لم يتجاوز ثلاث سنوات من العمر، لكنه يستطيع الركوب على أي مهر يكون أمامه . أما بالنسبة الى كيدر منستر فلقد تزوج أيضا . تزوج امرأة كبيرة كبرا يسمح لها بأن تكون أمه، وقد

أصبح لها ولدان وأنت يا عزيزتي، بالطبع، تتذكرين غوردون التي كانت بمنزلة أم لك. بالطبع تتذكرين ولاداعي لأن أسالك . حسنا لقد فقدت زوجها، لقد تعرض لوقعة قوية من على ظهر الفيل، وقد تزوجت ثانية .

هذه التطورات الكثيرة تحدث عنها السيد سليري ببراءة وفرح كبير، وبعد ذلك أحضر ابنته جوزفين وزوجها وابنتهما وكل أفراد الجماعة لرؤية سيسي. كانوا ينظرون الى لويزا وهم أشبه بمخلوقات مذهشة ملامحهم باهتة وردية، وملابسهم ضيقة، ولكن منظرهم وهم يحومون حول سيسي كان كثير الابهاج، وكان ممن الطبيعي ألا تستطيع سيسي إلا أن تبكي فرحا لرؤيتهم حولها. والآن ياسيسي، وبعد أن سلمت على الجميع، وقبلت النساء والأطفال، وسلمت على الرجال فلينفذ الجميع وليحضروا أنفسهم من أجل العرض الثاني .

وبعد أن ذهب الجميع، تابع بلهجة منخفضة :
والآن ياسيسيليا أنا لا أريد أن أعرف أي سر، ولكنني أعتقد أن هذه السيدة هي شقيقته .
نعم انها شقيقته .

أتمنى أن تكوني بخير يا آنسة، وأتمنى أن يكون والدك بخير كذلك .

قالت لويزا: سوف يكون أبي هنا قريباً، وتابعت بقلق، وهي تريد أن تصل الى الموضوع، هل أخي في مأمن ؟
أجابها في مأمن تام . أريد منك فقط أن تلقي نظرة على

العرض يا آنسة من هنا، وأنت يلسيسيليا أنت تعرفين المكان، فأوجدي
فرجة وانظري منها .

تطلعت الاثنتان عبر فتحتين، وأخذ سليري يشرح لهما العرض
الذي تتفرجان عليه، ثم سألهما:

هل رأيتما كل الموجودين ؟

أجابتا: .

نعم .

قال لهما سليري :

انظرا مرة ثانية .

انظرا جيدا، هل رأيتماهم جميعا ؟

حسنا والآن، يا آنسة لدي رأي، ولوالدك رأي . أنا لا أريد أن
أعرف ماذا فعل شقيقك فمن الأفضل ألا أعرف . أخوك موجود فسي
العرض الذي رأيتماه أمامكما، وهو واحد من الخدم السود الواقفين
في العرض، وأنتما لم تستطيعا التعرف عليه، وسوف أبقى أخاك
أيتها الأنسة هنا بعد انتهاء العرض . دعي والدك يأت الى هنا
بعد العرض، وسوف تجدي أخاك وسوف تتكلمان معه أنت وأبوك
وأنتما مرتاحان، ولا يهم مظهره مادام مخبأ تخبة جيدة .

وبعد أن شكرت لويزا السيد سليري كثيرا، تركت سلاما وحبلا
لأخيها، وكانت عيناها مليئتين بالدموع، وذهبت هي وسيبي لتعودا
بعد الظهر .

وصل السيد فرند بعد ساعة، ولم يقابل أحدا ممن يعرفهم،
وأصبح حاد الطباع، مع تأكيد سيبي بأن يذهب ابنه العاصي السي

ليفربول خلال الليل، لذا كتب رسالة الى أحد العملاء ممن يوثق بهم لنقل ابنه الى شمال أمريكا أو جنوبها، أو أي مكان آخر بعيد عن العالم، حيث يبقى مدة من الوقت . وبعد أن فعل ذلك انتظر حتى انفض السيرك من المشاهدين اضافة الى العاملين والخيول، وبعد مدة شاهد الثلاثة السيد سيري وهو يحضر كرسيًا، ويجلس قرب البساط الجانبي يدخن، وكان ذلك اشارة الى انهم باستطاعتهم الاقتراب منه .

حياتهم بقوله :

خادمكم الأمين، باستطاعتكم مناداتي هنا عندما تحتاجون اليّ، ويجب ألا تمانعوا في أن يعيش ابنكم هنا حياة هزلية .

دخل الثلاثة معا، وجلس السيد غرند على الكرسي الذي يجلس عليه المهرج وسط الحلبة، وعلى أحد المقاعد الخلفية المخفية في وسط عربة المكان جلس الجرو الدنيء وهو كئيب جدا، وقد كان لسوء الطالع يضطر السيد غرند الى أن يدعوه ابنه . كان توم يرتدي معطفا غيسر معقول، مثل شماس الكنيسة، وكانت أطراف أكمامه وأطرافه مبالغيا فيها مبالغة غير معقولة . كان لباسه كله غير مناسب، فله مقاس أكبر من مقاسه بكثير، ولم يصدق السيد غرند بأية حال من الأحوال أن أحد أطفاله المثاليين قد وصلت به الحال الى هذا الحد .

في البداية لم يقترب الجرو، ولكنه بقي في مكانه على بعد، ثم اقترب قليلا، ولكنه بقي بعيدا عن أبيه .

سأله والده :

كيف حدث هذا ؟

أجابه ابنه بحزن :

كيف حدث ماذا ؟

قال له الأب :

هذه السرقة، قال ذلك وهو يرفع صوته .

أجابه توم :

فتحت الخزانة في تلك الليلة، ثم أغلقتها بعد أن تركتها مفتوحة قليلا قبل خروجي، وكان المفتاح الذي وجد مرميا في الخارج معي، وكنت قد حصلت عليه منذ وقت طويل، ورميته في ذلك الصباح ، حتى يبدو وكأنه استعمل في السرقة، ولم آخذ النقود، ولكن فسي الوقت نفسه، تظاهرت بأنني أضع بقية الحساب شاني كل يوم فسي الخزانة، ولكنني لم أكن أفعل ذلك، والآن عرفت كل ماجرى .

قال له والده :

لو نزلت صاعقة عليّ لكان ذلك أهون من هذا .

تمتم ابنه :

أنا لا أدري لماذا تشعر بذلك، فكثير من الناس وضعوا فسي مراكز ثقة، أجل كثير من الناس، والكثير منهم أيضا لم يكونوا أهلا لهذه الثقة . ولقد سمعتك تتحدث مئات المرات وتعلن أنّ هذا قانون . كيف أستطيع مساعدة القوانين؟ فأرح نفسك .

دفن الأب وجهه بيديه بينما وقف ابنه ويداه الشبيهتان بيدي القرد في جيبه، وكان المساء قد حل، وكان توم بين الفينسة والأخرى يدير عينيه القلقتين نحو والده، وكانت عيناه الجزء الوحيد في وجهه الذي يوحي بوجود حياة أو تعبير، وكان الصباغ حـول

عينيه كشيئا جدا .

قال له والده :

يجب أن تذهب الى ليفربول ثم ترسل الى الخارج .

أجابه توم :

أعتقد أنه عليّ فعل ذلك، فأنا لن أكون أكثر تعاسة في أي مكان آخر أكثر مما أنا فيه هنا، اذ انني أتذكر أنني لم أكن سعيدا فيه قط .

ذهب السيد غرند الى الباب ، وعاد مع السيد سليري وقد سأله :

كيف نستطيع اخراج هذا التعس من هنا ؟

أجابه السيد سليري :

حسنا لقد فكرت في ذلك، وليس لدينا الوقت الكافي لنضيقه ،
وعليك أن تقول نعم أو لا . فهناك عربة تقله خلال نصف ساعة الى
المحطة حيث يأخذ القطار الذي يقله مباشرة الى ليفربول .

أجابه السيد غرند :

ولكن انظر الى شكله هل يستطيع ركوب أية عربة ؟

أجابه سليري :

أنا لا أعني أن يذهب بهذه الثياب المضحكة . وافق أنت وسوف
أجعل منه سائق عربة نقل خلال خمس دقائق .

وافق السيد غرند سريعا، وهنا أخرج السيد سليري من علبة
ثياب أعطاها الجرو الذي بدّل ثيابه سريعا خلف ستار .

قال سليري : والآن تعال الى العربة واقفز الى داخلها وسوف
أذهب معك الى هناك، وسوف يعتقد الجميع أنك أحد العاملين معي،

ودع عائلتك سريعا .

قال له والده: هذه هي رسالتك، وكل الوسائل الضرورية سوف تؤمن لك، ولكن يجب أن يكون تمرقك أفضل، وأن تتعظ بما حدث لك لأن ما فعلته كان صدمة حقيقية، ورأيت النتائج المخزية التي أوصلتنا إليها . أعطني يدك يا بني المسكين، وليسامحك الله كما سامحتك .

تحركت مشاعر توم المذنب، وذرف بعض الدموع، بعد كلام والده ولهفته الموءثرة، ولكن عندما فتحت لويزا ذراعيها لمعانقته نفر منها قائلا: ليس أنت، لا أريد أن أتكلم معك أبدا .

أجابته :

آه ياتوم هل تنتهي هكذا بعد كل حبي لك ؟

أجابها بقسوة :

بعد كل حبك؟ يا للحب الجميل بتركك باي وحده، وباسا، تسك لصديقي المفضل السيد هارث هاوس، وبذهابك الى المنزل عندما كنت في مرحلة حرجة وخطرة . يا لهذا الحب، بذهابك وأنت ترين الشباك تلتف حولي . يا للحب الذي قدمته لي، أنت لم تهتمي بي قط .

طلب اليهم سليري التقدم، فتقدم الجميع وخرجوا . كانت لويزا تبكي، وتؤكد لتوم أنها غفرت له، وأنها لاتزال تحبه، وأنه سيندم يوما ما لأنه تركها هكذا . وبينما هم في هذا الوضع كان أحدهم يركض ويقف أمامهم، وكان السيد غرند وسيبي أمام توم، بينما كانت لويزا لاتزال متعلقة بكتفه فوقف الجميع وتراجعوا .

كان الراكض بيتزر وهو مقطوع النفس، كان وجهه الشاحب لا لون فيه، وكأنه قد ركض طوال الليل . وقف وهو يلهث ويستريح، ثم قال

لهم وهو يهز رأسه : آسف لأنني تدخلت في خططكم، ولكن يجب أن آخذ
معي السيد توم الشاب . يجب ألا يذهب، وهاهو ذا انه الذي يلبس
هذه السترة الطويلة، ويجب أن آخذه .

الفصل الثامن فلسفي

عاد الجميع الى الدكان المتنقل، وأغلق سليري الباب ليمنع
المتطفلين من الدخول، أما بيتزر فكان لا يزال ممسكا بالمذنب من
قبة قميصه، وكان يقف في الباحة وهو يتطلع الى سيده القديم عبر
الظلام .

قال له السيد غرند وهو حزين جدا :

بيتزر هل عندك قلب ؟

أجابه بيتزر وهو يضحك من غرابة السؤال بقوله :

الدورة الدموية ياسيدي لايمكنها أن تتم من دون أن يكون لي
قلب .

سأله السيد غرند بحدة :

هل يتأثر قلبك بأية تأثيرات عاطفية ؟

أجابه الشاب :

ان قلبي يتأثر بالحقيقة والمنطق فقط ياسيدي من دون أي شيء
آخر .

وقف السيد غرند وبيتزر ينظران الى بعضيهما بعضا، وكان وجه

السيد غرند أبيض مثل شخص ملاحق .

سأله السيد غرند :

أي دافع من المنطق دفعك الى أمر هرب هذا الشاب التعس ؟ والى
حق والده التعس ؟ انظر الى شقيقته هنا . أشفق عليها .

أجابه بيتزر :

ياسيدي بأسلوب منطقي وبطريقة رجل الأعمال وبما أنك
سألتني عن الدافع الذي دفعني الى أخذ توم الى كوك تاون، فممن
المنطق أن أخبرك أنني شككت في أن السيد توم هو الذي قام بسرقة
المصرف وذلك منذ البداية . فقد كنت أراقبه قبل ذلك الوقت لأنني
كنت أعرف أساليبه، واحتفظت بملاحظاتني لنفسي ولكنني حصلت على
دلائل ضده الآن . اضافة الى هربه والى اعترافه الذي سمعته عند
وصولي، وقد كان لي المتعة في أن أراقب منزلك البارحة صباحا
وتبعتمكم الى هنا، وسوف آخذ السيد توم وأعود به الى كوك تاون حتى
أسلمه الى السيد باي، وأنا واثق من أن السيد باي سوف يرفعني
ويسلمني مكان السيد توم، وذلك سيكون ترقية بالنسبة اليّ وسوف
يعود ذلك عليّ بالنفع .

بدأ السيد غرند كلامه بقوله : اذا كان الموضوع هو منفعة
شخصية بالنسبة اليك ؟

قاطعه بيتزر بقوله :

أرجو المعذرة ياسيدي لمقاطعتك المنفعة الشخصية، وأنا قد
نشأت على ذلك كما تعلم .

سأله السيد غرند:كم تأخذ من النقود عوضا عن ترقيةتك

المتوقعة ؟

أجابه بيتزر :

أشكرك ياسيدي لأنك لمّحت لي بهذا العرض ،ولكنني لم أطلب
أي مبلغ عوضا عن الترقية . فقد كنت أعلم أنك ستعرض عليّ ذلك
فلمت بعملية حسابية بذهني ووجدت أنّ أخذي مبلغا من المال لمن
يكون آمنا وجيدا مثل وظيفة ثابتة وجيدة في المصرف .

قال السيد غرند وهو يمد يديه :

بيتزر .

وكانه يريد القول :

تأمل كم أنا تعس ؟ بيتزر مازال أمامي فرصة وحيدة لاقتناعك
لقد كنت طوال سنوات عدة في مدرستي، أرجو أن تراعي هذه الذكرى
وتفيد نسي . أجابه طالبه القديم بأسلوب نقاشي : أنا أعجب يا
سيدي من أخذك وفيها غير منيع . فدراستي كانت تدفع نفقاتها ،
كانت مساومة ،وعندما انتهيت من الدراسة انتهت المساومة .
كان أحد مبادئ فلسفة غرند أنّ كل شيء يجب أن يدفع ثمن
له . والقاعدة ألا يعطي أحدا شيئا أو يساعد أحدا من دون مقابل
فوجود الانسان منذ ولادته وحتى مماته هو نوع من المساومة عبر
الحساب .

وتابع بيتزر قوله :

انني لأنكر أنّ دراستي لم تكلفني كثيرا .

كانت لويزا وسيمي تبكيان فقلق بيتزر قليلا بسبب ذلك ،
وقال لهما : أرجوكما لاتفعلا ذلك، فلأفائدة له . يبدو أنكم اتظنان
أنني أبغض السيد توم ولكني لأكنّ له أية كراهية، ولكن أريد أن

أعيده الى محوك تاون من أجل الأسباب التي ذكرتها . وإذا ما قاوم فسوف أصرخ وأقول أوقفوا اللص ، ولكنه لن يقاوم ، باستطاعتكما الاعتماد على ذلك .

السيد سليري وقف هنا وقال :

ياسيدي وكان كلامه موجهًا الى السيد غرند أنت تعرف تمام المعرفة وكذلك ابنتك وهي تعرف أفضل منك أنني قلت ذلك لها أنا لا أعرف ما الذي فعله ابنك ، وأنا لا أريد أن أعرف ، فأنا قلت انه من الأفضل ألا أعرف .

مهما يكن من أمر ، وبما أن هذا الشاب قد عرف ما فعله ابنك من أنه سرق مصرفا ، وهذا شيء جدي ، أجل هذا شيء جدي ، ولكنني سأخبرك بما سأفعله ، سوف أوصل هذا الشاب وابنتك الى سكة القطار لو تجتّب العرض هنا ، وأنا لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك .

بكت لويزا كثيرا ، وحزن السيد غرند كثيرا ، اشر خيانة صديقهم سليري هذه ، ولكن سيسي نظرت اليه باهتمام كبير ، وقد فهمته تماما ، وعندما كان الجميع يهتمون بالخروج ، نظر اليها نظرة واحدة وهو يرغب اليها أن تتمهل قليلا ، حيث أخبرها أنه سيساعد توم على الهرب بمساعدة السيد شيلدرز ، وتم تهريب توم خلال الليل بعيدا عن بيتزر .

وبقي الثلاثة لويزا وسيسي والاب في حالة قلق حتى ظهر السيد سليري في الثامنة صباحا بروح مرتفعة ، حيث قال :

كل شيء في أحسن حال . ابنك الآن على ظهر سفينة في هذا الوقت . لقد أخذه شيلدرز من هنا بعد أن غادرناكم بساعة ونصف .

شكره السيد غرند كثيرا وسأله بحساسية كبيرة حول المسال

الذي يريده .

أجابه سليري :

أنا لا أريد مالا لنفسي، ولكن شيلدرز - وبما أنه صاحب عائلة - وإذا أحببت أن تعرض عليه خمسة باوندات فسيكون ذلك جيدا. وإذا أحببت أن تعطي بعض الويسكي فأنا دائما مستعد لقبوله .

سر السيد غرند كثيرا، ووعده بتنفيذ ما طلب السيد سليري، مع أنه رأى أن السيد سليري طلب أشياء جيدة جدا، مقابل الخدمة التي أسداها اليه .

قال السيد سليري للسيد غرند :

إذا سمحت ابنتك فأود أن أحدثك بكلمة ونحن منفردان . ذهبت سيسي ولويزا الى غرفة جانبية، بينما وقف السيد سليري وهو يشرب الويسكي الممزوج بالماء، وقال للسيد غرند : منذ أربعة عشر شهرا كنا مجموعة رجال السيرك في شستر، وكنا وأولادنا في الغابة عندما أتى الى الحلبة كلب . كان قد سافر مسافة طويلة، وكان في وضع سيء جدا، ولقد كان يعرج وكان أعمى، تجول من طفل الى آخر، وكأنه كان يبحث عن طفل يعرفه، ثم أتى اليّ ورمى بنفسه بقربي، ثم لوح بذنبه ومات، وهذا الكلب كان ياسيدي ميري لك .

كلب والد سيسي .

نعم كلب والد سيسي، وأستطيع أن أخبرك ياسيدي، أن والد

سيبي قد توفي ودفن، قبل أن يعود الكلب اليّ، وقد تشاورت مع جوزفين وشيلدرز، اذا ما كنّا سنخبر سيبي بذلك أم لا، ثم قررنا ألا نخبرها. لماذا نشوّش أفكارها ونجعلها غير سعيدة؟

قال له السيد غرند :

انها لاتزال تحتفظ بالزجاجة التي أرسلها والدها لاضارها، وهي مؤمنة بعاطفته حتى اللحظة الأخيرة من حياتها.

هنا قال السيد سليري :

يبدو أنّ هناك شيئين باقيين بالنسبة الى الانسان .
قال ذلك وهو يتطلع الى الويسكي والماء اللذين يشربهما . أحد هذه الأشياء أنّ هناك حبا في هذا العالم، وهذا الحب ليس محوره المنفعة الشخصية، بل انه شيء آخر مختلف تماما .

تطلع السيد غرند عبر النافذة ولم يعط أي جواب .

أفرغ السيد سليري محتويات كأسه ونادى السيدات .

قال لسييليا :

حبيبتي قبليني وودعيني، ثم وجه كلامه الى لويزا قائلاً :
سروري كبير جدا لأنك تعاملين سييليا كأخت لك، وأخت تشقيس بها وتحبينها من كل قلبك. أتمنى أن يعيش أخوك حتى يستحق أن يكون لديه أخت مثلك، وحتى ترتاحي أنت .

ثم وجه كلامه الى السيد غرند قائلاً :

يجب ياسيدي أن يتسلّى الناس ويعيشوا بفرح، فالانسان لا يستطيع أن يتعلم فقط، وأن يعمل فقط . عليك دائماً أن تفعل الشيء الأفضل والأعقل، ولتفعل دائماً الأفضل، وليس الأسوأ .

وتابع السيد سليري قوله : انه لم يكن يعتقد نفسه كثير
الكلام الى هذه الدرجة .

الفصل التاسع الختام

شعر السيد باوندر باي أنّ السيدة سبارست قد تدخلت بوقاحة
في حياته وادعت أنها أذكى منه، وكان باي غاضبا منها جدا لأنها
اكتشفت أنّ السيدة بفلر هي والدته، ومن ثم وصل الى قرار هو أنه
من أجل اداة هذه المرأة المعتدة كثيرا بنفسها لابد من أن يقول
أمام الناس انها امرأة ذات أصل جيد وأرادت أن تلتصق بـ
وترتبط بي، ولكنني لم أوافق على ذلك وتخلصت منها، وهذا سيكون
أكبر عقاب لها على تطفلها وتدخلها فيما لايعنيها .

دخل الى غرفة الطعام لتناول الغداء وهو معبأ بهذه الفكرة ،
بينما كانت السيدة سبارست تجلس قرب المدفأة .

وفند موضوع السيدة بفلر، كانت السيدة سبارست دائما حزينة
وتشعر بالندم، وأصبحت دائما تنظر نظرات مكتئبة، وكانت تنظر
الآن نحو السيد باي باكتئاب، وقد سألها بلهجة مقتضبة وقاسية :
ماالموضوع الآن أيتها السيدة؟

أجابته السيدة سبارست مامعناه :

أرجوك ياسيدي ألا تقطع لي انفي .

أجابها السيد باي وهو يرمي الشوكة التي قطع بها قطعة خبز

محدثا صوتا قويا :

أنفك يجب أن يقطع لأنه يَدَس نفسه فيما لايعنيه .

سألته السيدة سبارست :

سيدي .

أجابها :

نعم ماذا تريدان ؟ أجابته المرأة المجروحة :

هل يمكنني أن أسألك اذا كنت أنا السبب في فقدانك أعصابك؟

أجابها باي :

سوف أقول لك ياسيدتي انني لم أحضر الى هنا من أجل أن

أنزعج .

من المحتمل أن تكون سيدة ذات أصل رفيع ،ولكن ذلك لايفوضها

في أن تتدخل في حياة رجل في مركزي وشؤونه لن أسكت

عن ذلك .

رأى السيد باي أنه من الضروري أن يستمر على هذا النمط،لأنه

رأى أنه اذا دخل في التفصيل فسوف يهزم .

في البداية ترفعت السيدة سبارست عن الحديث ،ثم وضعت ما

كانت تحوكه في العلبة المخصصة ووقفت تريد الذهاب .

قالت بسمو :

سيدي يبدو أنني أقف عشرة في طريقك في الوقت الحاضر،لذا

سوف أذهب الى غرفتي .

أجابها باي :

اسمح لي أن أفتح لك الباب أيتها السيدة .

أشكرك ياسيدي،أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي .

أجابها :

من الأفضل أن تسمح لي بذلك ، قال ذلك وهو يمسك قبضة الباب

بيده قائلا :

لأنني أود أن أقول لك كلمة قبل ذهابك. فانا أظن ياسيدة سبارست أنك تسببين لي تشنجا في الأعصاب من خلال وجودك في هذا المكان. هل تعلمين ذلك؟ وأنا أعتقد أنه بحب ستيفن المتواضع لا يوجد مكان متسع لسيدة في مثل عبقريتك، لتتدخل في شؤن الآخرين .

نظرت اليه السيدة سبارست باحتقار وقالت بأدب شديد :

حقا ياسيدي ؟

أجابها : لقد فكرت طويلا بالحوادث التي حصلت في الأيام

الأخيرة ياسيدي، ويبدو لي بحسب رأيي المتواضع .

هنا قاطعته السيدة سبارست وهي تقول بسخرية :

لا تدم رأيك ياسيدي، فالجميع يعلم كم هو صائب رأي السيدباي.

آجل الجميع يملكون دلائل على رأيك الصائب . يجب أن يناقش رأيك في محادثة عامة .

دم أي شيء في نفسك ماعدا رأيك ياسيدي. قالت ذلك وهي

تضحك لهذا .

تابع السيد باي وهو مرتبك ووجهه مكفهر :

يبدو لي ياسيدي أن مسكنا من نوع آخر يليق بسيدة تملك

قدراتك، كمسكن قريبتك السيدة سكاد جزر. ألا تعتقدين أنه يمكنك

ايجاد بعض الأمور هناك تتدخلين فيها .

أجابته :

لم يخطر ذلك ببالي ياسيدي، ولكن مادمت ذكرت أنت ذلك فعلي
أن أفكر فيما قلته تفكيراً جيداً .

تابع باي وهو يضع مغلفاً فيه حوالة مالية بالسلة الصغيرة التي
تحملها :

إذا تستطيعين أن تأخذي الوقت الكافي من أجل ذهابك
ياسيديتي، ولكن في خلال ذلك الوقت أرجو أن تأكلي بمفردك وألا أراك
خلال ذلك الوقت ، وأود الاعتذار اليك من أنني جوزيه باوندر باي
من كوك تاون قد وقفت في طريقك طويلاً .

أجابته السيدة سبارست بسخط واحتقار :

أرجو ألا تذكر ذلك ياسيدي، وإذا استطاعت تلك الصورة المعلقة
بالحائط أن تتكلم وهي صورة السيد باي المعلقة في غرفة الجلوس
كانت استطاعت أن تقول لك: أنني ومنذ مدة طويلة كنت أناديهما
بصورة الأبله .

هذا الاحتقار الذي أظهرته السيدة سبارست تجاه السيد باي
جعلته مرتبكاً من رأسه حتى أسفل قدميه .

هنا تركته السيدة سبارست وذهبت، فأغلق باي الباب ، ووقف
أمام المدفأة يتطلع إلى صورته ويفكر في مستقبله .

أما السيد غرند ففي اليوم نفسه والساعة ذاتها كان يجلس
متأملاً في غرفته . ترى ما نظرت للمستقبل؟ هل رأى نفسه وقد غزا
الشيب رأسه؟ هل اعترف وأقر أن نظرياته ومثالياته لم تعس
النتائج المرجوة منها؟ وهاهي ذي لويزا وفي اليوم نفسه تراقب

المدفأة ولكن وجهها كان أهدأ وأكثر اللفة .

فكرت لويزا كثيرا فيما حدث لها . فكرت في والدها . في ستيفن

وما حدث له ، وشقيقها ، ولكن ماذا عن المستقبل ؟

أما راشيل المرأة العاملة المكافحة فبعد مدة مرض طويلة

مادت الى الظهور ثانية ، وكانت تلبس السواد دوما ، ولكن طباعها

كانت دائما هادئة ومحبة ، وكانت هي الوحيدة التي تبدي تعاطفا

واهتماما نحو امرأة سكيرة ومنهارة ، هي زوجة ستيفن ، تعمس

راشيل وهي مسرورة بعملها هذا ، وستبقى تعمل حتى تصبح عجوزا

لاتقدر على العمل .

ماذا حدث لتوم شقيق لويزا ؟ كان على بعد آلاف الأميال

يكتب ورقة مبلة بالدمع ، اذ ان كلمات شقيقته وقد أصبحت حقيقة

بالنسبة اليه ، وان كل كنوز الأرض ترخص أمام نظرة من وجهها

الحبيب . وكان توم يود رؤية شقيقته ، فسافر يريد العودة

لرؤيتها ، ولكنه تأخر عن الوصول بسبب المرض ثم وصلت الى لويزا

رسالة غريبة تخبرها أنه قد توفي بحمى وهو في المستشفى ، وهو

نادم جدا ، وأن آخر كلمة تفوه بها كان اسم شقيقته لويزا .

أما لويزا فلم تتزوج وكانت تعلم الأطفال في مدرسة القرية ،

وقد زرعت فيهم المتع والمباهج الخيالية اضافة الى الحقائق .

وقد رقي بيتزر في عمله ووصل مكان توم ، وهذا ما كان يطمح

اليه . أما باي فقد توفي في شوارع بلدته المليئة بالدخان .

لقد خسرت السيدة سبارست مركزها وغرند خسر مثله ومعتقداته

وراشيل خسرت صديقا مخلصا وستيفن بلاك بول خسر حياته .

أما سيسي فقد تزوّجت وعاشت حياة سعيدة هي وأطفالها، وكان
أطفال سيسي يحبون لويزا كثيرا، وسيسي هي الوحيدة التي أثبتت
نجاحا وتفوقا في حياتها .
إن الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو سيرك سليري .



الفهرس

١	المقدمة .
٧	الأيام العصبية (الجزء الأول) .
٧	الفصل الأول : الشيء الضروري الوحيد .
٨	الفصل الثاني : قتل الأبرياء .
١٥	الفصل الثالث : المنفذ .
٢١	الفصل الرابع : السيد باوندر باي .
٣١	الفصل الخامس : بلدة كوك تاون .
٣٦	الفصل السادس : فروسية (سليري) .
٤٩	الفصل السابع : السيدة سبارست .
٥٥	الفصل الثامن : لاتعجب ولاتدهش .
٦٢	الفصل التاسع : تقدم سيبي .
٧١	الفصل العاشر : ستيفن بلاك بول .
٧٥	الفصل الحادي عشر : ليس ثمة مخرج .
٨٢	الفصل الثاني عشر : المرأة العجوز .
٨٨	الفصل الثالث عشر : راشيل .
٩٦	الفصل الرابع عشر : صاحب المصنع العظيم .
١٠١	الفصل الخامس عشر : الأب والابنة .
١٠٩	الفصل السادس عشر : زوج وزوجته .
.	
١١٣	الحصاد (الجزء الثاني) .
١١٣	الفصل الأول : تأثيرات في المصرف .

١٢٤	الفصل الثاني : السيد حيمس هارث هوس .
١٣١	الفصل الثالث : الجرو .
١٣٧	الفصل الرابع : الرجال والاخوة .
١٣٨	الفصل الخامس : الرجال والسادة .
١٤٤	الفصل السادس : الذبول .
١٥٧	الفصل السابع : مسحوق البارود .
١٦٩	الفصل الثامن : الانفجار .
١٨٤	الفصل التاسع : نهاية ما حدث .
١٩٢	الفصل العاشر : سلم السيدة سبارست .
١٩٧	الفصل الحادي عشر : أدنى فادنى .
٢٠٦	الفصل الثاني عشر : الأسفل .
٢١٣	الادخار (الجزء الثالث) .
٢١٣	الفصل الأول : الحاجة الى شيء آخر .
٢٢٠	الفصل الثاني : سخيـف جداً .
٢٣١	الفصل الثالث : كثير المراحة .
٢٤١	الفصل الرابع : مفقود .
٢٥٠	الفصل الخامس : الموجود .
٢٥٩	الفصل السادس : نور النجم .
٢٦٩	الفصل السابع : اصطياد الجرو .
٢٨٢	الفصل الثامن : فلسفي .
٢٨٨	الفصل التاسع : الختام .
٢٩٤	الفهرس .

- اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء في ثمانية أجزاء .
- للعلامة محمد راغب الطباخ الحلبي .
- * التشخيص التفريقي في الأمراض الداخلية .
- للدكتور علي حداد ورفاقه .
- * دلالات وتفسير النتائج المخبرية .
- للدكتور سيد الحديدي .
- * نظرية النقد الأدبي .
- للدكتور عصام قصبي .
- * الأيام العصبية .
- لتشارلز ديكنز، تعريب الأستاذة ناديا أسعد .
- * تماثيل الوحوش الزجاجية .
- لتنسي وليامس، تعريب الأستاذ محمد رجب باشا .
- * قواعد لغة البيسك في الرسم على الكومبيوترات الدقيقة .
- للمهندس فوزي الراغب .
- * ديوان ابن الفارض .
- للعلامة شرف الدين أبو حفص عمر الشهير بابن الفارض .

*

